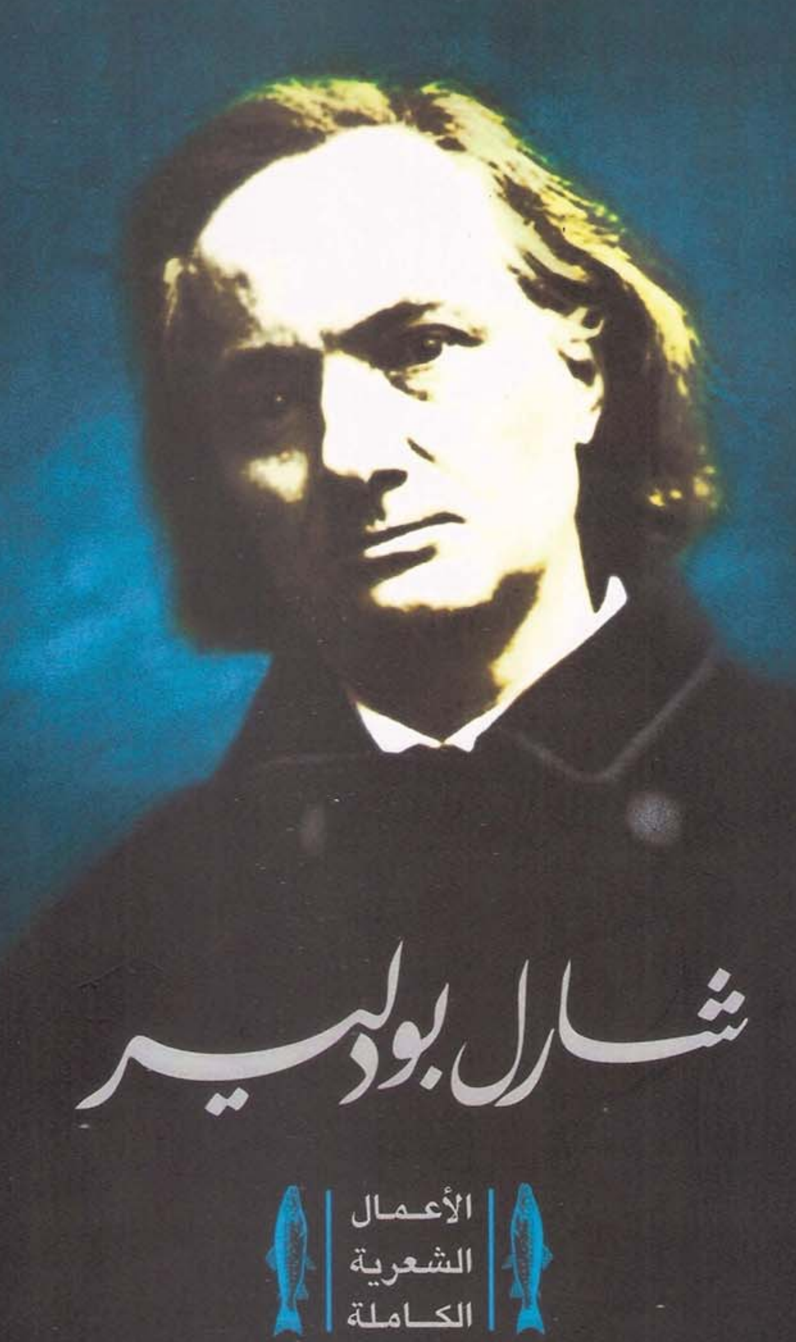


شارل بودلير

الأعمال
الشعرية
الكاملة

ترجمة: رفعت سلام

دار الشروق

شارل بودلیر

الطبعـة الأولى ٢٠٠٩

رقــم الإيـــداع ٢٠٠٩/٥٧٩٧
ISBN 978-977-09-2635-9

٨ شــارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩ (٢٠٢)+
فاكـس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

شارل بودلير

الأعمال
الشعرية
الكاملة

ترجمة وتقديم
رفعت سلام

دار الشروق

المحتويات

قصائد مدانة

محذوفة من «أزهار الشر»

غزليات

نقوش

قصائد متنوعة

هزليات

إضافة الطبعة الثالثة من

(أزهار الشر- طبعة ١٨٦٨)

بقية «أزهار الشر»

قصائد الشباب

قصائد بلجيكية

سأم باريس

«قصائد نثر صغيرة»

ملاحق ووثائق

ملاحق «أزهار الشر»

شَاعرُ الشَّرّ الجمِيل

أغبياء البرجوازية الذين يتشدقُون دائمًا بكلماتٍ من قبيل «لا أخلاقي»، «لا أخلاقية»، «الأخلاق في الفنّ» وغيرها من الحماقات، يُذكّرونني بـ«لويز فيلديو»، وهي عاهرة بخمسة فرنكات، رافقتني ذات يوم في زيارة إلى اللوڤر، وكانت تلك أوّل مرة تزور فيها هذا المتحف، فاحمَرَّ وجهُها وراحت تغطيه بكفّها وتجذبني من كُم السترة، متسائلةً أمام اللوحات الخالدة: كيف أمكن عرض كل هذه العَوْرَات على الناس؟!

بودلير، قلبي عاريًا

بعد حوالي قرن ونصف القرن من صدور الطّبعة الأولى من «**أزهار الشر**»، يظلّ هذا الدّيوان الصّغير أكثر فعاليّة وحضورًا في الشعرية الفرنسيّة والعالميّة من كل معاصريه. ويظل بودلير أكثر حياةً وتأثيرًا من شعراء قرنه اللّامعين.

لم يكن أحد ليستطيع التنبؤ بذلك، بل لعلّ الاستخفاف نفسه لم يكن غائبًا عن بعض كتابات معاصري بودلير إزاء صدور الديوان، إن لم نرصد التشفّي والعدائية ـ التي تصل إلى حدِّ الغِل ـ لدى بعض الصحفيين ضيّقي الأفق. وبالفعل كانت «المعاصرة» ـ بالنسبة لزمن بودلير ـ أكثر من «حجاب» يُعمي البصر ويُشوِّش على البصيرة.

فخلال حياته، كان معاصروه يميلون عمومًا إلى وضعه جانبًا، في الركن؛ عقابًا له، باعتباره «ولدًا خبيثًا»، أو كشخص «غريب الأطوار».

فالقرن التّاسع عشر هو قرن ڤيكتور هوجو ولامارتين وشاتوبريان وجوتييه ودي موسيه ودي ڤيني، كقامات إبداعية شاهقة هيمنت على النّصف الأول من القرن هيمنةً

ساحقة. وفي ظل تلك الهيمنة، صدرت الطبعة الأولى من «أزهار الشر» (٢٥ يونيو ١٨٥٧)، في ١١٠٠ نسخة.

فكيف كان لمعاصريه ـ شعراء ونقادًا وصحفيين ـ أن يدركوا أن هذا الديوان الصغير ـ للشّاعر الذي لم يتجاوز عمر الشباب ـ سيكون ألمع ما أنتجه القرن، بما انطوى عليه من فتوحات لا تُستنفَد؟

لن يدرك ذلك سوى ڤيكتور هوجو ـ ببصيرته الخارقة ـ حين كتب له: «إنك تخلق رعشةً جديدةً في الشّعر الفرنسي».

وبعد وفاته ـ في الثانية والأربعين من عمره ـ كان اعتقاد الأجيال التالية أنه إنما عاش في الجحيم، حيث يشهد مصيره على استمرارية رهيبة للعذاب طُوال حياته. ولحظة الوفاة، لم يكن لديه سوى كلمة وحيدة، «سُحقًا!»، وصورة الشّاعر الملعون التي يحملها معه إلى النهاية.

(١)

حياةٌ بائسةٌ عاشها بودلير في قلب القرن التاسع عشر، على الصّعيد الشخصيّ، فيما بين ٩ أبريل ١٨٢١، تاريخ ميلاده، و٣١ أغسطس ١٨٦٧، يوم وفاته. حياةٌ مرتبكةٌ، قلقةٌ، متوترةٌ، متخبطةٌ وعصيبةٌ، تبدأ بوفاة أبيه وعمر بودلير ٦ سنوات، لتتزوج أمه ـ بعد عام واحد من الترمُّل ـ بأحد العسكريين اللامعين، الصارمين، ضيِّقي الأفق.

لم يكن الرجلُ معاديًا للطفل المشاكس، لكنّه لم يكن يعرف سوى التربية العسكرية، باعتبارها المثل الأعلى لكل تربية وسلوك، والمستقبل العسكري أو البيروقراطي، باعتباره المستقبل المأمول الذي ينبغي لابن زوجته أن يعمل من أجله.

أما شخصية بودلير، فتتكشف مبكرًا مضادةً ـ بطبيعتها الأوليّة ـ لهذا النمط من التفكير والحياة والسلوك، والنفور العميق من «المؤسسة» على إطلاقها: المدرسة، والمنزل البرجوازي، والزواج، والوظيفة، وبقية المؤسسات، لا بحثًا عن مؤسسة بديلة، بل عن التحرر من كل مؤسسة.

وفي المواجهة الأولى، يتم طردُ بودلير من المدرسة. شخصيةٌ مضادة،

مناقضة، معاكسة. ومجتمع يقوم على مؤسسات متراتبة، وقواعد وقوانين وأخلاق وأعراف ما أنزل الله بها من سلطان.

* * *

يبدأ الصّراع بين الشّاعر والجنرال بحصول بودلير على شهادة البكالوريا. ويخطّط الجنرال لابن زوجته مستقبله كدبلوماسيّ؛ اعتمادًا على نفوذه لدى السلطات العليا. لكن بودلير يصمِّم على تكريس نفسه للأدب. يعيش حياة بوهيمية، ولا يحضر أية محاضرات بكلية الحقوق المُسجّل بها. عالَمه الأثير هو عالم الشخصيات الأدبية لتلك الفترة، والعاهرة سارة، التي سيكتب عنها قصيدته «ليست لديَّ كعشيقة لبؤة». أما العائلة، فيشتعل قلقها من تراكم ديونه، وحياته البوهيمية، وعدم اكتراثه بالارتباط بوظيفة.

ويُقرّر الجنرال وضع الخطة «الإصلاحية» لهذا الناشز، ويتم دفعه إلى القيام برحلة «تربوية» بحرية طويلة، يقيم خلالها في جزيرة موريشيوس، بعد تعرض الباخرة لعاصفة واضطرارها إلى الرسوّ بالجزيرة. لكنه يقرر عدم استكمال رحلته، والعودة إلى الوطن: «لا أظن أنني أعود والتعقل في جيبي».

لكن هذه الرحلة «التربوية» الإجبارية الفريدة ستصبح مصدرًا للعديد من القصائد الهامة اللاحقة، وستمنح شعر بودلير مذاقًا «استوائيًّا» لاذعًا. لكنها ـ خارج هذا الإطار الشعريّ ـ ستبدو بلا جدوى «تربوية». فمؤسسة الأسرة ـ التي تبنت فكرة «إصلاح» الابن الضّال ـ لم تدرك المفارقة: أن الابن «الضال» مضادٌّ لكل «إصلاح» بالمعنى البرجوازي التقليدي، ولكل أخلاق رائجة، وأنه ـ على النقيض ـ يبحث عمَّا يتجاوز هذه القيم، أو ما يهدرها، أو ينفيها.

*

والكراهية الأعمق ـ في حياة بودلير الشخصيّة ـ ستتوجه إلى أوپيك، زوج أمه العسكريّ اللّامع، الذي كان كل حدث مناسبةً لترقيته إلى رتبة أعلى، شارةً على إخلاصه وتفانيه في خدمة النظام. كراهية تأسست ـ منذ البدء ـ على التعارض بين نمطين في التفكير وتصورات الحياة.

فالوقائع والوثائق تثبت أن الرجل لم يُكِنَّ كراهيةً خاصَّةً لبودلير، طوال وجوده

في حياته؛ بل كان يسعَى إلى «مصلحته» القائمة على «الاستقامة» و«الاحترام» و«الانضباط» الحياتي والأخلاقي، بمعايير ذلك الزمن الرائجة المعتبَرَة. هي تلك المعايير التي التزم بها ـ هو نفسه ـ كضابطٍ خاض معارك النمسا وأسبانيا وواترلو والجزائر، فضلاً عن قيادة المواقع العسكرية الحساسة في المدن الفرنسية لحظات التمرد الاجتماعي الفاصلة، وأثبتت فعاليتها، فنال الأوسمة الحربية الرفيعة، وسيواصل التزامها بقية حياته ـ من موقع عسكري إلى آخر ـ فينال الأوسمة والنياشين والترقيات، ويعقبها بوظائف رفيعة في السلك الدبلوماسي الفرنسي، كسفير في القسطنطينية ومدريد، إلى أن يبعث الإمبراطور ممثله إلى جنازته ليواريه الثرى، في النهاية.

فعندما يُلحق الطفل بودلير بالمدرسة، يقدِّمه إلى مدير المدرسة بفخر: «سيدي، هذه هدية أقدمها لك. هذا تلميذ سوف يُشرِّف مدرستك». ولن تكون الرحلة «التربويّة» الإجباريّة ـ في مرحلة أخرى ـ سوى محاولة مخلصة منه لمنع بودلير من «الضياع المطْلق»، حسب وصفه. وفي مرحلة لاحقة، سيؤنب أوپيك ابن زوجته على علاقته مع جين دوڤال (عشيقته)؛ لأنها تختلس أمواله وتخونه. وهو ما ستُثبت الوقائع والأحداث صحته، فيما بعد.

كان الرجل مخلصًا في محاولاته اعتراض طريق بودلير إلى ما يعتبره «الضياع المطلق»؛ وستكون كل معاركه التالية ـ الصّاخبة أو المكتومة ـ مع ابن زوجته منطلقةً من هذا الهدف المعلَن منذ البداية. لكن هذا الإخلاص المتعصب ـ الذي لم يفتُر طوال حياة الرجلين ـ كان متسقًا مع المُثل الرائجة، سياسيًّا، في تلك الحقبة البرجوازية/ الاستعمارية؛ حيث يمكن الادعاء بضرورة «تحضير» الآخر ـ الشعوب المتخلفة ـ بالغزو والقوة المسلحة والمجازر (وقد شارك أوپيك في حملة «الجزائر» عام ١٨٣٠، وعاد منها مكلَّلاً بالغار والترقية من جديد؛ الحملة نفسها التي تمنَّى الطفل بودلير ألاَّ يعود منها حيًّا؛ فهل يعود العسكريون من الحروب؟!).

لكنه الإخلاص المحكوم بضيق أُفُق وتعصب يُعمِي بصيرة الضابط المتميز الذي لا يقبل إلاَّ بالطاعة العمياء من مرءوسيه، بلا مناقشة أو حوار، والإيمان بقدرته الرفيعة المطلقة على اتخاذ القرار الصائب، الذي لا يحتمل الشك أو التردد، فضلاً عن الخطأ. ضيقُ أُفُق وتعصبُ أبِ ذلك الزمان والطبقة، الذي لا يقبل المعارضة،

فضلاً عن العصيان والتمرد من ابنه، مع الاقتران بإرادة متصلبة لا تلين حقًّا، كأنه في معركة عسكرية، أو معركة إرادات أبدية.

ولن نجد في وثائق بودلير إلاَّ الكراهية العميقة لهذا الرجل، منذ أن أصبح طرفًا في حياته، إلى اللحظة التي شيَّع فيها جثمانه متصدرًا كبار رجال الدولة. ففي أبريل ١٨٤٢، يترك بودلير إلى أمه رسالة هروب من المنزل: «من المستحيل أن أكون مثلما يريدني زوجك؛ وبالتالي، فإني سأسرقه إن بقيت عنده فترة أطول؛ وأخيرًا، فلا أجد من اللائق أن يعاملني كما يبدو أنه يريد من الآن فصاعدًا. لاشك أني سأُضطر إلى أن أعيش حياة قاسية، لكني سأكون أفضل حالاً..». ولن يعود بودلير إلى المنزل العسكري مرةً أخرى. وسيصل اعتراضه إلى كل شيء، حتى ما يشربون: «إنهم لا يشربون سوى البوردو عند أمي، وأنا لا أستطيع الاستغناء عن البورجون»!.

*

لكن التعارض الجذْريّ بين الاثنين يمتد إلى ما هو أبعد؛ فالرجل العسكري الطموح، الملتزم، هو أحد أدوات النظام، يقود له معاركه في الخارج، والداخل، فيكافئه النظام بالأوسمة والترقيات. شارك في معاركه الخارجية، فالداخلية: فهو قائد الفرقة العسكرية السابعة في ليون ١٨٣١، لقمع «ثورة الجوع» التي ترفع شعار «الحياة ونحن نعمل أو الموت ونحن نقاتل»، فيما كان بودلير يقف في الضفة المقابلة. وبين الموقفين مسافاتٌ وفجواتٌ شاسعة وعميقة، لا تقبل الوساطة ولا الوسطية.

وفي فبراير ١٨٤٨، يشارك بودلير في الانتفاضة الشعبية، ويُصدر مع اثنين من أصدقائه نشـرةً ذات طابع اشتراكي، «الخلاص العام» التي يصدُر منها عددان؛ لكن الجنرال كان يقف في الضفة الأخرى، يقود عملية القضاء على الانتفاضة، واستعادة النظام.

تعارضٌ وتناقضٌ خِلقِي بين الاثنين، بلا إمكانية تعايش. وكل لقاء مشاجرة وخصامٌ عنيف. قُطبان متنافران، وشخصيتان متضاربتان، لا ينتج عن لقائهما، أو تماسهما، سوى العنف والفظاظة.

أما الأُم، فهي علامة الاستفهام الشائكة في حياة بودلير الشخصية. لقد ظلّ زواجها الثاني شوكةً في حلقه، لم يتكيف معها أو ينساها: «عندما يكون للأم ابن مثلي، فهي

لا تتزوج مرةً ثانيةً أبدًا»، ليصبح زواجها الثاني ـ بالنسبة له ـ خطيئتها «الأصلية» التي لا تقبل الغفران. ويضمر لها ـ طوال حياته ـ خليطًا من العواطف المتناقضة: الحنان والمرارة، الحب والظلم، العتاب والحزن، الفظاظة والعذوبة، والكثير من الشكوك.

إنها ظِل الزوج، المتوافقة ـ على نحوٍ ما ـ مع موقفه من ابنها (لن يستطيع أحد الجزم بما إذا كانت متوافقةً حقًّا، أم راضخةً لسطوة الزوج العسكري). وثَمّة مسافةٌ تحكم العلاقة مع ابنها المتمرد، الذي يكتب إليها: «لا أستطيع أن أصف لكِ الأثر الكئيب والعنيف الذي يتركه فِيَّ ذلك البيت الكبير، البارد والفارغ.. إني لا أدخله إلاَّ بحذر، ولا أخرج منه إلاَّ بتلصص؛ لقد أصبح ذلك أمرًا لا يُطاق بالنسبة لي».

*

فإلى المعركة الأخيرة مع العائلة.

يبلغ الحادية والعشرين من عمره، سنَّ الرُّشد القانونية، ويحصل على بضعة آلاف من الفرنكات الذهبيّة، كجزء من نصيبه من ميراث أبيه.

يهرُب من المنزل. وينتقل للسكنى بغرفة في جزيرة سان لويس وسط باريس. يضاعف من مصروفاته بصورة زائدة. ويعيش حياة بوهيمي ثري، مع الحشيش والأفيون. يشارك في حضور اجتماعات «نادي الحشاشين». وحوالي خمس عشرة قصيدةً ـ ستتخذ مكانها فيما بعد في «أزهار الشر» ـ كانت قد كُتبت حتى ذلك الحين. لكن نصف ميراثه تم إنفاقُه في عامين.

هنا، يجتمع مجلس للعائلة، وترفع أمُّه دعوى قضائيِّة تطالب بوضع ما تبقَّى من ميراثه تحت رقابة وصي قانوني تعيِّنه المحكمة. والمحكمة تقضي بتعيين الوصي، فلا يمنحه إلاَّ مبلغًا محددًا كل عام. ويقضي بودلير بقية حياته في التهرب من الدائنين، والتوسل إلى الوصي وأمه ليقدما له «دفعات مسبقة» من مستحقاته الخاضعة للحراسة.

هكذا جنَّدت الأسرة مؤسسات الدولة: القانون والقضاء، ضد الابن العاصي. ولن يستطيع بودلير مواجهة القرار القضائيِّ، وسيعاني منه حتى لحظة وفاته. لكنه ـ في الوقت نفسه ـ لن يغير شيئًا من طبيعتة المتأصلة: ضد أي قيد أو قمع أو قسر. ولا

إذعان. وسيظل طوال حياته القصيرة ـ نسبيًّا ـ يدفع غاليًا ثمن هذا القرار «التربوي»، لكن دون خضوع أو تنازل.

معركة استنزفت بودلير طول الوقت. هروب دائم من الدائنين، وتغيير متواصل للإقامة حتى لا يتوصلوا إليه، واستجداء دائم لبضع فرنكات من أمه، وكتابة محمومة أحيانًا من أجل الحصول على النقود، وقلق يسكن الروح يمنعه أحيانًا من الكتابة وإنجاز مشروعات مقررة لمقالات وكتب وقصائد. ضريبةٌ باهظةٌ يدفعها من أجل امتلاكه لحياته التي لن تطول، واعتصامٌ ـ حتى النهاية ـ باختياراته الشخصية للحياة بلا هوادة. فحتى معركة «**أزهار الشر**» القادمة ـ التي وصلت إلى حد المحاكمة، والتشهير، وإصدار حكم قضائي ضده ـ ستبدو، بالمقارنة مع هذه المعركة العائلية، محدودة التأثير عليه، وعابرة، على المستوى الشخصي والحيويِّ، في مقابل حفزها الناري لقواه الروحية والإبداعية لمزيد من الإبداع.

صراع بين نموذجين للحياة: النموذج البرجوازيّ (حياة مستقرة، ووظيفة مُعتبَرة، وتأسيس أسرة ذات زوجة وأولاد، والتزام بأخلاقيات البرجوازية المنافقة البائسة...إلخ)، ونموذج الفنان الحُر الذي يقرر أخلاقيات ومعايير حياته بنفسه، حتى لو تعارضت مع أخلاق ومعايير المجتمع، ويتمسّك بها حتى اللحظة الأخيرة، ويدفع ثمنها حتى الموت.

معركةٌ بطول الحياة وعرضها، وحياةٌ في شكل صراع دائبٍ لا ينتصر فيه طرفٌ على الآخر؛ لكن بودلير ـ في المقابل ـ ينتصر بموته دون خنوع أو استسلام، على الرغم من كل شيء.

*

وسيكون لمعركة «**أزهار الشر**» أن تكشف أبعادًا أُخرَى.

ففي ٢٥ يونيو ١٨٥٧، تصدر الطّبعة الأولى من «أزهار الشر». وبعد أيام، تنشر جريدة «لو فيجارو» مقالاً يحرض على ملاحقة الديوان قضائيًّا. وبعد يومين فحسب من نشر المقال، يتم بالفعل تقديمُ بودلير وناشرَيه: بوليه ـ مالاسي ودبرواز، إلى المحاكمة بتهمة انتهاك الأخلاق العامة وانتهاك الأخلاق المسيحيّة. وتطالب النيابة

العامة بحذف ١٠ قصائد، ست منها بدعوَى إهانة الأخلاق العامة، وأربع بدعوَى إهانة الأخلاق المسيحية.

وتقضي محكمة الجنح بأن بودلير وناشريه «مذنبون»، وتغريم بودلير ٣٠٠ فرنك، وكل من الناشرين ١٠٠ فرنك، مع حذف القصائد الست المتهمة بإهانة الأخلاق العامة، وعدم الاعتداد بتهمة إهانة الأخلاق المسيحية[1]

لكن بودلير يكتب إلى أمه: «إني سعيد تقريبًا لأول مرة في حياتي. فالكتاب جيدٌ تقريبًا، ولسوف يبقى، هذا الكتاب، شهادةً على قرفي وحقدي على جميع الأشياء». فهو لم يعنه من الحُكم سوى أمرين: بنية الديوان ـ الصارمة فنيًّا ـ التي اهتزت بفعل حذف ست قصائد، والغرامة الباهظة التي لم يكن بمقدوره سدادها، «وتتجاوز قدرات الفقر مضرب الأمثال للشعراء»، كما كتب في رسالته إلى الإمبراطورة. أما بعض مقالات التشهير والنميمة الصحفية، التي سبقت وصاحبت وأعقبت المحاكمة، فلم تستوقفه طويلاً، على الرغم من غيظه منها.

والمفارقة أن الأم لم تهرع لنجدة ابنها ماليًّا، المهدد بالحبس لمدة عام إن لم يدفع الغرامة. كم هي بعيدةٌ بعيدة، في تلك اللحظة. كما لم ينجِده الوصي على أمواله، بدفع الغرامة من ميراثه الواقع تحت سلطانه، ليُضطر بودلير إلى مخاطبة الإمبراطورة نفسها، لتخفيض الغرامة إلى مبلغ معقول. فعليه أن يخوض المعركة وحيدًا إلاَّ من الدعم المعنوي والثقافيّ لعدد محدود من الأصدقاء الكتاب.

لكن الحُكم كان حافزًا ـ في المقابل ـ على إصلاح الخلل البنيويّ للديوان، بالانكباب على الكتابة من جديد، بما يسد الفراغ البنيوي بعد حذف القصائد الست المدانة. وفي بضعة شهور، كُتبت «الرحلة»، «البجعة»، «رقصة جنائزية»، «العجائز السبع»، «خُصلة الشَّعر»، «القناع»، «الهيكل العظمي الكادح».. بما يكشف عن أن الفراغ البنيوي قد تم تجاوزه بزلزلة داخلية أكثر عمقًا؛ فهذه القصائد ليست ـ فحسب ـ الأكثرَ رحابةً في أزهار الشّر، بل ـ أيضًا ـ الأجمل في الديوان، وربَّما في الشعر الفرنسيّ.

---

(١) فلنلاحظ أن المدعي العامّ لم يطالب بمصادرة الكتاب، بل بحذف القصائد التي اعترض عليها، فحسب. ولنلاحظ أن المحكمة استبعدت إحدى التهمتين، وأنها حكمت بحذف ٦ قصائد فحسب، لا مصادرة الكتاب ككلّ؛ ثم إن القضاء الفرنسيّ سيلغي هذا الحكم من بعد، بعد وفاة بودلير، حتّى لا يظلّ الحُكم وصمةً في تاريخه.

وأيضًا، كشف الحُكم عن اتساع وعمق الهُوَّة الفاصلة بينه وبين العالم المحيط؛ هُوَّة لا يمكن القفز عليها، أو ردمها، أو التغاضي عنها.

ولا أوهام لديه في ذلك، ولا رغبة في إقناع أحد بشيء، أو تفسير شيء، أو تبرئة نفسه من شيء. حالةٌ من الرواقية الواعية والغريزية في آن: « قال بَعْضُهم لي إن هذه الأشعار يمكنها أن تؤذيَ؛ فلم أبتهج بذلك. وآخرون، من ذوي الأرواح الطيبة، قالوا إنها قد تفعل خيرا؛ وذلك لم يحزنّي». لا بهجة، ولا حُزن.

إنه إيمانه العميق والنهائي بأن «فرنسا تمر بمرحلة من السوقية. فباريس، مركز وإشعاع الحماقة الكونية»، وأن « الفرنسي حيوان قن، مُدجَّنٌ إلى حد أنه لا يجرؤ على عبور أي حاجز. انظروا إلى ذوقه في الأدب والفن. إنه حيوانٌ من السلالة اللاتينية، لا تُزْعِجُه القذارةُ في بيته، وفي الأدب هو آكل بُراز. إنه مولعٌ بالغائط».

وسيكون على معاصريه أن ينتظروا وفاته، ليعثروا في أوراقه على تصوره لدور الأديب في الحياة: «**الأديب هو عدو العالم**»؛ ولهذا فـ «**الأمم لا تنجب العظماء إلاَّ مُرغمة. فلن يكون المرء عظيمًا ـ إذن ـ إلاَّ إذا انتصر على أمته كلها**».

وسيكون عليهم أن يدركوا ـ بعد وفاته ـ جدية صورته عن نفسه، ليست صورةً بقدر ما هي كشف ذاتي لأعماق شخصيته التي حيرتهم: «**إنني أتمتع بإحدى الشخصيات المحظوظة التي تستمد البهجة من الكراهية، والتي تتمجد في الاحتقار. ومزاجي المولع ـ بصورة شيطانية ـ بالحماقة يجعلني أجد ملذات خاصة في تحريف البهتان. طاهرًا كما الورق، بسيطًا كالماء، مدفوعًا إلى الورع مثل مقدّمة القربان، غير مؤذٍ كضحية، لن يزعجني أن أُدعَى ماجنًا، سكِّيرًا، مُلحدًا وقاتلا**».

(٢)

لعل أخطر ما أسفر عنه الحكم القضائيّ ضد «أزهار الشّر» هو تدمير بنية الديوان المحسوبة بدقة (فلنتأمل العدد الرمزيّ للقصائد ـ ١٠٠ قصيدةٍ)، نتيجةً للحذف الذي تنجم عنه فجواتٌ بنيويةٌ خطِرة، بالنسبة لشاعر مشغول ـ تمامًا ـ بالمعمار الفنيّ لديوانه.

ونقرأ في ملاحظاته إلى محاميه بشأن محاكمة الديوان: «ينبغي تقييمُ الكتاب في كُلِّه، وما ينجم عنه بالتالي من أخلاقية مرعبة (..) أكرر إن أي كتاب ينبغي تقييمه في كله». فتكامل العمل ـ بالنسبة لبودلير ـ هو مسألة «تأليف Composition»، أو معمار، لا مسألةً أخلاقية. فنسق ترتيب القصائد يحدّد الشكل الخاصّ للديوان، ويؤسس المعنى الذي سيستمده القارئ، فيما يؤدّي الحذف إلى تغيير الشكل والمعنى معًا (ليس الديوان «تجميعًا» عشوائيًّا لما كُتب خلال فترة سابقة، بل هو عمل إبداعيّ محكوم ببنية فنيّة، تصبح فيها القصائد عناصر داخليّة محكومةً بهذه البنية ومُنتجةً ـ في آن ـ لها).

ولهذا، فقد كانت المهمة الطارئة، المستعجلة لبودلير هي كتابة ٦ قصائد تحل محل القصائد المستَبعَدة، لاستعادة البنية المتوازنة للديوان. ونتيجة العمل المحموم الدءوب، فسرعان ما تجاوز العدد المطلوب من القصائد، لتصل القصائد الجديدة في الطبعة الثانية من «أزهار الشر» ـ في فبراير ١٨٦١ـ إلى ٣٥ قصيدةً (ويصل إجمالي القصائد إلى ١٢٧ قصيدة). وهي الطبعة الأخيرة التي أشرف بودلير بنفسه على إعدادها وترتيب قصائدها، وتشكيلها في بنية يرضَى عنها.

وللمقارنة بين الطبعتين، لا بد من ملاحظة أن الطّبعة الثّانية تضم قسمًا إضافيًّا يحمل عنوان «لوحات باريسية». وإذا ما كان هذا القسم يسترد ٦ قصائدَ من قسم «سأم ومثال»، فإن هذا القسم الجديد يفرض ـ في آن ـ توازنًا جديدًا في الشكل الكلي (من بين القصائد الجديدة، نرصد قصائد بأهمية «البجعة» و«الشيوخ السبعة» و«العجائز القصيرات»، و«رقصة جنائزية»)، ويغير مركزة الأفكار: فتجربة «الحداثة» المرتبطة بارتياد العاصمة الباريسية تدخل إلى قلب رؤية تتخذ طبيعتها الشخصية سمة أكثر كونية أو ـ على الأقل ـ حضرية. كما نلاحظ أن توزيع القصائد داخل «سأم ومثال»، شأن نسق ومادة الأقسام الستة، يفرض معنًى أكثر خطورة.

ففي الطّبعة الأولى، يحقّق القسم الأول ذاته ـ من خلال ٧٧ قصيدة ـ عبر ثلاث قصائد («حزن القمر» و«الموسيقى» و«الغليون»)، كانت سِمتها الهادئة نسبيًّا تخفف من تأثير سلسلة القصائد المكرسة مباشرةً للسأم. وفي الطّبعة الثّانية، خضعت هذه القصائد الثلاث لإعادة ترتيب إلى ما قبل قصائد السأم التي تتخذ ثقلاً مخيفًا، فتبدو مضافةً إلى نصوص يائسة من قبيل «مذاق العدم» و«كيمياء الألم» و«رعب تعاطفي»

وخاصة «ساعة الحائط». والحركة التي ترسم هذا القسم الأول هي حركة السقوط، سقوط المثال إلى سأم بلا نهاية: الكلمات الأخيرة للقسم: «فَلْتَمُت، أَيُّهَا الْجَبَانُ الْعَجُوز! فَاتَ الأَوَان!»، التي تعلنها ساعة حائط تحولت إلى «إِلَهٍ مَشْئُوم» بإصبع متوعد لا يفضي إلى أي أمل.

والتعديلات التي جرت على اضطراد الأقسام تتم في الاتجاه نفسه. ففي الطبعة الأولى، كان القسم الذي يحمل عنوان «الخمر» يسبق مباشرة القسم الأخير «الموت»، الذي تقلص إلى ثلاث قصائد فحسب، وينتهي بتمني أن يقوم الموت «الَّذِي يُحَوِّمُ مِثْلَ شَمْسٍ جَدِيدَة، بدْفَعِ أَزْهَـارِ عُقُولِهِم [الفنانين] إِلَى التَّفَتُّح!». وهذا التحويل يمثل «الفردوس الاصطناعي» الذي نجم عن الخمر، فتتخفف الرؤية إلى نهاية مُعزِّية؛ حيث يبدو الموت ـ بالنسبة لهؤلاء المحبين والفقراء والفنانين ـ نوعًا من الخلاص.

وفي الطبعة الثانية، أُعيد ترتيب قسم «الخمر» بصورة أكثر منطقية بكثير، في أعقاب «لوحات باريسية»، حيث تقع القصيدة الثانية من قصائده «في قلب ضاحية قديمة» توصف بأنها «الْقَيءُ الْغَامِضُ لِبَارِيسَ الضَّخْمَة»؛ ليسبق بالتالي قسم «أزهار الشر»، و«تمرد» وقسم «الموت» الذي كبُر بالثقل الواضح لقصيدة «الرحلة». وتتخذ باقي الأقسام شكل اضطراد في نسق الشر.

وبالتالي، فإن توزيع قصائد وأقسام الديوان يمضي بالقارئ من التأكيد الاستهلالي للقصيدة الأولى «إلى القارئ»، حيث: «الْحَمَاقَةُ، وَالْخَطَأُ، وَالْفُجُورُ، وَالشُّح/ تَحْتَلُّ أَرْوَاحَنَا وَتَسْتَوْلِي عَلَى أَجْسَادِنَا»، إلى التقرير البصير لقصيدة «الرحلة»: «رَأَيْنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَدُونَ الْبَحْثِ عَنْه،/ مِنْ أَعْلَى حَتَّى أَسْفَلِ السُّلَّم الْقَاتِل،/ الْمَشْهَدَ الْمُمِلَّ لِلْفُجْرِ الأَبَدِي». وإذا ما كان الموت موضع ابتهال، هنا أيضًا، كموقع للخلاص، فإن هذا الخلاص لا يسمح للحلم إلا بقَبول ما هو أسوأ: «فِي قَاعِ الْهَاوِيَةِ، أَوِ الْجَحِيمِ، أَوِ السَّمَاءِ، مَا الْفَرْق؟»، بما يعني البحث عن «الجديد».

وذلك ما دفع باربي دورفيي ـ ببصيرة نافذة ـ إلى تقرير أن «كل شعر في كتاب السيد بودلير يمتلك قيمةً بالغة الأهمية للكُل وللموقف، ينبغي ألاَّ نتركها للضياع، باجتزائها. وسيدرك الفنانون.. جيدًا أن ثَمّةَ هنا معمارًا سريًا، تخطيطًا محسوبًا من قِبل الشاعر، قصديًّا وموضع تأمل»؛ وهو معمار لا يقوم إلاَّ باكتساب مزيد من الأهمية

في الطبعة الثانية. وهو ما كان بودلير يعيه جيدًا، وهو يكتب إلى ڤيني بمناسبة صدور الطبعة: «إن الثناء الوحيد الذي ألتمسه لهذا الكتاب هو إدراك أنه ليس مجرد ألبوم خالص وأنه ينطوي على بداية ونهاية. وكل القصائد الجديدة قد كُتبت لتتوافق مع إطار فريد قُمتُ باختياره».

كتاب ذو بداية ونهاية، وأقسامه تم اختيارها قصديًّا واحدةً وراء الأخرى، في إطار محدد. كتاب تتحد فيه القصائد أحيانًا في «دوائر»، فيما تتخذ عناصر أخرى قيمةً ترجع إلى الترابط أو التضاد، مثلما في التجاور البسيط. وهذا «المعمار السري» يفسر لنا اعتبار إيڤ بونفوا **أزهار الشر** «سيد الكتب في شعرنا».

وذلك ما يطرح الأسئلة حول الطبعة الثالثة، التي صدرت بعد وفاته، متضمنةً ٢٥ قصيدةً إضافية (ليصل إجمالي قصائد هذه الطبعة إلى ١٥٢ قصيدة). فذلك المعمار السري ـ الذي يحدّد توجهات ونتائج القراءة والفاعلية الخاصة بالديوان، والتي كان يُعوِّل عليها بودلير ويهتم بها كثيرًا ـ هي ما يختفي في الطّبعة الثّالثة التي يتحمل مسئوليتها شارل أسيلينو وتيودور دي بانڤيل، بعد وفاة بودلير.

(٣)

منذ اللَّحظة الأولى، سيدرك بودلير أن «شعراء مشهورين تقاسموا منذ أمدٍ بعيد أكثر الأقاليم ازدهارًا في المجال الشعريّ».

لابد أنه كان مؤمنًا ـ منذ بدايات وعيه ـ بأنه إنما وُلد فتيًّا في قرن بالغ الشيخوخة، وأنه كان يردد على نفسه جملة «لا بروبيير»: «كل شيءٍ قد قِيل». فخلال الأعوام العشرين الأخيرة ـ قبل صدور «أزهار الشر» ـ تقدم الرومانتيكية عدة دواوين للامارتين، وڤيكتور هوجو، وأيضًا لسانت ـ بيف وڤيني وموسِّيه وتيوفيل جوتييه وآخرين.

ولا بد أن بودلير قد راقب هذا الازدهار بعين يقظة، وقرأ كل ما كُتب خلال هذين العقدين. يكتب إلى أمه في ٣ أغسطس ١٨٣٨: «لم أقرأ سوى أعمال حديثة؛ لكن من تلك الأعمال التي يتحدثون عنها في كل مكان، ولها سمعة، ويقرؤها كل الناس..؛ آه حسنًا، كل ذلك زائف، مبالغٌ فيه، ومهووس، ومفتعَل.. إنني متقززٌ من كل ذلك: ليس هناك سوى مسرحيات وأشعار ڤيكتور هوجو وكتاب لسانت ـ بيف (شهوة) التي

أمتعتني. إنني قرفان تمامًا من الأدب؛ وفي الحقيقة، فمنذ عرفت القراءة، لم أعثر بعد على عمل يمتعني تمامًا، ويمكن أن أحبه من أوله إلى آخره»[1]. وتنطوي الرسالة على إحباطٍ ما. فكل شيءٍ قد قيل، برداءةٍ قيل، ولكنه قيل.

إذن، فهي الضرورة المطلقة للعثور على جديد.

فأي إقليم شعريّ ظل بكرًا، مُهمَلاً من الأسلاف القريبين؟ لقد بث سانت ـ بيف ـ من خلال عمله «أدوات الدفاع الصغيرة..» ـ في بودلير:

«كلُّ شيءٍ قد تم الاستيلاء عليه في مجال الشعر.

لامارتين استولى على السماوات. واستولى ڤيكتور هوجو على الأرض، وما هو أكثر من الأرض. ولابراد استولى على الغابات. واستولى موسِّيه على العاطفة والعربدة الباهرة. واستولى آخرون على البيت، والحياة الزراعية، ... إلخ.

استولى تيوفيل جوتييه على إسبانيا وألوانها الرفيعة. فما الذي تبقَّى له؟

ما استولى عليه بودلير».

وذلك ما سيستعيده بودلير في أحد مشروعات مقدمة «أزهار الشر»: «شعراء مشهورون تقاسموا منذ أمدٍ بعيد أكثر الأقاليم ازدهارًا في المجال الشعري. لقد بدا لي ذلك سارًّا، بل وممتعًا أكثر **لأن المهمة كانت أصعب، وهي استنباط الجمال من الشّر»**: «الوعي في الشَّر»، «لأَنَّنِي أُرِيدُ الْبَحْثَ عَنْ خُلاَصَةِ الشَّر»، كما يقول في إحدى قصائده.

فهذه القامات الكبرَى في الشعر الفرنسيّ كانت قد وصلت بالرومانتيكية إلى منتهاها، إلى اكتمالها الختاميّ، في أعمال باهرة تستكشف كل احتمالات الفن من أجل التعبير عن نشوات وفورانات القلب والروح، والإعلاء من الفانتازي، والبحث عن الهرب والنشوة في الحلم، عن المَرَضي والسامي، عن الغرائبيّ والماضويّ. وهو أيضًا الإحساس بخسارة عميقة لأَبعاد العالم السابق على الثورة، في مجتمع تسيطر عليه ـ في زمنها ـ النقود والشهرة أكثر من الشرف. حالة من خواء العالم، بعد أن سرقت العقلانية والحضارة من الإنسان أوهامه، مما يؤدي إلى الكآبة واختلاط المشاعر والإحساس بالفقدان والخسارة والضياع.

---

(١) سيكتب رامبو ـ أيضًا ـ شيئًا من هذا القبيل فيما يُسمَّى برسالة الرائي. وسيستثني من الكتاب بودلير، الذي سيعتبره «ملك الشعراء».

تصبح الذات «الأنا» مركز العالم، فيما يصبح العالم تجليًا للذات في حالاتها المتعددة، المشبوبة أبدًا، بلا استقلال أو انفصال. وتصبح «العاطفة» أو «الشعور» قُطب الذات الفاعل بصورة مطلقة، شمولية، ليحل «الخيال» بديلاً لـ«العقل» ذي القدرات الشمولية لدى الكلاسيكيين. ويصبح «الإلهام» هو الطاقة السماوية التي تحل بالشاعر في اللحظة القَدَرية فتنهمر القصيدة بفعل الخيال والحساسية المرهفة، الاستثنائية، بما يصل إلى اعتماد وجود العالم وشكله كليًّا على بصيرة الخيال الفرديّ، الذي يتيح النفاذ إلى ما وراء الحقيقة السطحية في اتجاه المثال الجوهريّ.

يصبح الشعر «التعبير عن الخيال»، حسب شيللي، فيما يعتبره وردزورث «من أعمال الخيال والعاطفة»، ليكتب كيتس «أنا أصف ما أتخيل». إنه الخيال الخلاَّق، المعيار والمرجع والوسيلة في آن.

والشاعر الرومانتيكيّ هو نبي العصر الحديث، الذي اصطفته السماء، وحَبَته بالكشوف والرؤَى والبصيرة النافذة التي تكشف ما لا يراه الآخرون الفانون، ويختصر ـ في ذاته ـ التواريخ والأحاسيس والحكمة والمعرفة؛ ما كانت أو ما ستكون. هدية السماء إلى البشر المعذَّبين، المتخبطين، الضالين.

ولأن الأرض كاسدة، والبشر فاسدون، فمصيره الوحدة والعزلة في البرية والقفار، يوجه رسالته إلى الكون والأبدية، يحادث الأشجار والأطيار والأنهار ونجوم السماء، مريديه وحوارييه، بنبوءاته الغرائبية. وكالأنبياء، فهو الطريد، المرجُوم، باعتباره الخارج على السياق والمجتمع، الرافض لفساده وعفنه، المطالب بالنقيض الغامض.

هكذا، تصبح القصيدة الرومانتيكية مزيجًا ـ في آنٍ ـ من الهجاء للراهن والرثاء للماضي والذات. راهن يمثل نفيًا لإنسانية الإنسان، وإهدارًا لطاقاته الحقيقية الإبداعية والرفيعة؛ وماضٍ كان تحقيقًا لشهوات الإنسان وأحلامه في حياة مزدهرة، سعيدة ومكتملة؛ وذات ضائعة ضالة مُهدَرة، محكومة بقيم مادية فظَّة لا إنسانية، إلى حد الانحطاط والابتذال.

من هنا، تنبثق الكآبة والتشاؤم في النصّ الرومانتيكيّ، بفعل اكتشاف خواء العالم، وعدائيته، وانفصاله العميق عن «روح» الإنسان، وتحول الطبيعة ـ مع العصر الصناعيّ ـ إلى «شيء» خارجيّ منفصل عن الإنسان، وأداة استغلالية للحركة الصناعيّة المتنامية، لتفقد بدورها تكاملها «الروحيّ» مع جوهر الإنسان الداخليّ الحميم.

إنها القصيدة الغنائية التي تحررت من القوالب الكلاسيكيّة الصّارمة، لتتمحور على صوت بالغ الفردية، يكتشف العالم ونفسه انطلاقًا من خياله الذاتيّ، حيث يحل المثاليّ في الواقعيّ، والتعبير عن الداخليّ والمجرد بالخارجي والملموس. وتحولت وظيفة الصورة بشكل جذْريّ ـ من موقعها الكلاسيكيّ كنوع من الزينة ـ إلى مكانة مسيطرة، كناقل فاعل للمعنى.

كانت الرومانتيكية ثورة هائلة ضد القوالب الكلاسيكية، امتدت إلى جميع مجالات الإبداع الإنسانيّ، مكتسحةً القارة الأوروبية جمعاء على يد مبدعين ومفكرين رفعوا «الذّات» فوق العالم.

*

هذه الضرورة لاكتشاف **الجديد** هي ما عاناه بودلير طوال حياته الشعرية، خلال تأليف «أزهار الشر»، وحتى «سأم باريس»، الذي سيمثل مرحلةً أخرى مغايرة في هذا الاكتشاف الدءوب المشبوب: «**استنباط الجمال من الشر**». ذلك ما تبقّى له، وما لم يخطر على قلب أحد.

والعناوين الأولية لـ«الأزهار» القادمة تصور جيدًا هذا المفهوم المختلف. فعلى أغلفة كتابه «صالون ١٨٤٦» وكتب الأصدقاء، يعلن بودلير ـ منذ أكتوبر ١٨٤٥ إلى يناير ١٨٤٧ ـ عن صدور «**السحاقيَّات**»، فيما يحل «**الأعراف**»، ابتداءً من نوفمبر ١٨٤٨، محل «السحاقيات»؛ والناشر الآن موجود: ميشيل ليڤي، وتاريخ الصدور محدد في ٢٤ فبراير ١٨٤٩ (أي في ذكرى ثورة ١٨٤٨): الـ«كتاب»، «الذي سيصدر قريبًا للغاية»، «مُكرَّس لتقديم اهتياجات وكآبات الشباب الحديث»؛ الكتاب «مقرر لإعادة اقتفاء الاهتياجات الروحية للشباب الحديث». ومنذ بدايات ١٨٥٢ إلى الأول من يونيو ١٨٥٥ يتم تجاهلُ عنوان الديوان.

كان «**السحاقيَّات**» عنوان «فرقعة»، باستخدام مصطلح بودلير نفسه، عنوانًا طريفًا، لامعًا. وكان عليه أن يتوافق لا مع قصائد النساء الملعونات فحسب، بل أيضًا مع قصائدَ أخرى كثيرة. وقد نجم اختيارُه عن إرادته القصدية لصدم البورجوازيين، هؤلاء الذين سبق لبودلير أن وضع فيهم ثقته، في إهداء «صالون ١٨٤٦»: «أنتم الأغلبية ـ في العدد والذكاء ـ إذن فأنتم القوة التي هي العدل».

ويمثل «**الأعـراف**» عنوانًا غامضًا، ملغزًا. فثمة دلالة للكلمة في طبوغرافيا الكاثوليكية. ويمكن بالتأكيد لبعض القصائد أن تتعلق بفكرة اشتراكيةٍ ما، مثل «الفدية»، وخاصة مقطوعتها الأخيرة، المحذوفة فيما بعد ١٨٥٢ [1]. لكن من المستحيل أن نمد هذه اللمسة الاشتراكية على مجموع القصائد التي كانت تشكل «الأعراف».

وبعد بداية ١٨٥٢، لم يعد بودلير قادرًا على قبول معنى «الأعراف». لكن المؤكد أن غالبية القصائد العظمَى ـ من تلك القصائد التي ستدخل طبعة ١٨٥٧ـ كانت قد كُتبت، عندما نشر بودلير الإعلان ـ عام ١٨٤٧ـ عن الصدور الوشيك لديوانه. ومنذ عام ١٨٥٠، كان ديوان «أزهار الشر» القادم قد تم ترتيبه، حتى لو كانت بعض القصائد الأجمل ـ وخاصةً القصائد المكتوبة إلى السيدة ساباتييه ـ كانت تنتظر الكتابة.

هكذا، كان على بودلير أن يقوم بقفزته إلى خارج السياق، وخارج غابة القامات الشاهقة، مدركًا ـ كما كتب ـ «أن الرومانتيكية بركةٌ من السماء أو من الشيطان. وقد تركت فينا جروحًا لا تندمل».

(٤)

يرصد مؤرِّخو الأدب ـ لأسباب تاريخية وأدبية ـ تأخُّر الحركة الرومانتيكية الفرنسية عن نظيراتها في ألمانيا وإنجلترا، حيث نشر لامارتين أول مجموعة شعرية رومانتيكية عام ١٨٢٠ بعنوان «تأملات شعرية»، فيما لم تصعد الرومانتيكية إلى المسرح الفرنسي إلاَّ مع «هرناندي» لهوجو عام ١٨٣٠

لكن سيكون لبودلير أن يعيد الاعتبار إلى الأدب الفرنسيّ إزاء الآداب الأوروبية. فانطلاقًا منه، أصبح الشعر الفرنسي محط اهتمام الأوساط الأدبية بالقارة، ليصبح الرائد الذي تقتفي خطاه ـ بفعل كشوفاته واكتشافاته الشعرية والنظرية ـ حركاتٌ وأصواتٌ شعريةٌ على امتدادها، فضلاً عن فرنسا، متخطيًا «الجروح التي لا تندمل» بفعل الرومانتيكية، منتقلاً بالشعر ـ بصورة حاسمةٍ ونهائية ـ إلى «الحداثة».

في مقالته «رسام الحياة الحديثة»، يستخدم بودلير مصطلح «الحداثة» لأول مرة

---

(١) راجع المقطوعة المحذوفة في الملاحظات الختامية المتعلقة بقصيدة «الفدية».

في الكتابات النقدية، في حديثه عما يميز الفنان الحديث (وكأنه يتحدث عن نفسه): «هكذا يمضي، يجري، يبحث. فعمَّ يبحث؟ بالتأكيد، هذا الرجل، كما وصفته، هذا المنعزل الموهوب خيالاً نشطًا، الرحَّال دائمًا عبر صحراء البشر العظيمة، إلى غاية أكثر سموًّا من غاية متسكع خالص، غاية أكثر عمومية، غاية غير المتعة العابرة للمناسبة. إنه يبحث عن ذلك الشيء الذي سنسمح لأنفسنا بتسميته الحداثة؛ لأنه لا تتوفر كلمة أفضل للتعبير عن الفكرة الحالية.. وهو ما يعني ـ بالنسبة له ـ أن يستخلص من الحالة.. الشعريّ من التاريخيّ، وأن يستمد الأبديّ من الانتقاليّ».

ويزيد المصطلح ـ الذي لم يكن معهودًا ـ تحديدًا: «الحداثة، هي العابر، الهارب، العارض». ولأن المفهوم جديدٌ تمامًا، فإنه يُضطر للدفاع عنه: «هذا العنصر العابر، الهارب، الذي تتكرر أشكاله المتحولة، ليس لديكم الحق في ازدرائه أو تجاهله. فبإلغائه ستقعون لا محالة في خواء جمالٍ مجرد ومُبهَم، مثل جمال المرأة الوحيدة قبل الخطيئة الأولى».

إنها الحياة في صحراء المدينة الكبيرة ـ المزدحمة بالبشر والحركة العارمة المحمومة المتضاربة، كخلية نحل ـ التي سيطرت عليها الصناعة والتجارة، فلا يرى الفنّان فحسب سقوط الإنسان، بل يحس أيضًا بنوع من الجمال الغامض الذي لم يسبق اكتشافه.

في مشروع خاتمة «أزهار الشر»، يخاطب بودلير مدينته باريس:

إِنَّنِي اسْتَخْلَصْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ الْجَوْهَر،
أَعْطَيْتِنِي طِينَكِ فَصَنَعْتُ مِنْهُ الذَّهَب.

وفي موضع آخر، يكرر الفكرة بطريقة شبه كاملة:

عَجَنْتُ الطِّينَ وَصَنَعْتُ مِنْهُ الذَّهَب.

ولم يكن هذا «الطّين» سوى ركام المدينة، الماديّ والإنسانيّ، أطلالها الحجرية والبشرية. حانات القاع، والمقابر، والدعارة، والمسوخ، والمقعدون، والموتى. فالمدينة تمارس على المتجول فيها فعلاً يتخذ شكل الصدمة.

وثمة ظواهر موازية: فبودلير قد تأمل بعمق مفهوم اللغة الشعرية، محررًا للمرة

الأولى البُعد الموسيقي كقرين لاختيار المكان الحضَري، كمكان «جديد» للشعر. والاستقلال النسبيّ للكلمات المختارة من الآن فصاعدًا ـ بناءً على طاقتها الموسيقية لا قدرتها الدلالية ـ سيتجاوب مع تجزؤ المتجول الباريسيّ في نظرة ملحة، بصورة فظة غالبًا، بفعل المظاهر الألف للمدينة وانسحاب، أليم غالبًا، إلى عالمه الداخلي.

واختيار المدينة هذا، الذي يتأكّد مع مقدمة قسم «لوحات باريسية» ـ في الطبعة الثانية من «أزهار الشر» ـ هو بالتأكيد أحد مفاتيح الحداثة البودليرية. وهو ما سيؤكده ت. إس. إليوت بعد قرابة قرن: «أعتقد أنني قد تعلمتُ من بودلير (..) المظاهر الشائنة للمدينة الحديثة بالذات، وإمكانية انصهار الواقعية الأكثر قذارةً فيها والرؤى الخارقة، إمكانية تجاور المبتذل والخيالي. منه، كما من لافورج، تعلمت أن المادة التي توفرتُ عليها، والتجربة التي توفرتُ عليها، كمراهق، في مدينة صناعية بالولايات المتحدة، كان يمكن أن تكون مادةً شعرية؛ وأن منبع الشعر الجديد كان يمكن أن يكون اكتشافًا فيما يمكن اعتباره حتى الآن كواقع عصي، عقيم، لا شعري بصورة لا تُرَد».

هو قاع المدينة والانتباه الرءوف إلى تلك «الجماهير المريضة»، إلى «النَّاسِ الْمُنْهَكِين بِالْهُمُوم الْمَنْزِلِيَّة،/ الْمَطْحُونينَ بِالْعَمَل، الْمُعَذَّبينَ بِالزَّمَن،/ الْمُرْهَقِينَ الْمَحْنِيِّين تَحْتَ رُكَامِ الأَنْقَاض،/ الْقَيءِ الْغَامِض لِبَارِيسَ الضَّخْمَة»، فيما يتكشف عن الوعي بالمظالم الاجتماعية، حتى لو كان هذا الوعي ـ بالاختلاف مع هوجو ـ لن يقوده أبدًا إلى تبنِّي عقيدة التقدم الاجتماعيّ.

لكنها مدينةٌ موسومةٌ أيضًا بالشيخوخة. فمن «الشيوخ السبعة» إلى «العجائز القصيرات»، من «لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الذِّكْرَيَاتِ كَأَنِّي عِشْتُ أَلْفَ عَام» إلى «عَاهِرَاتٌ عَجَائِز»، ومن «قَارُورَة عِطْرٍ قَدِيمَة» إلى «الْخِدَعِ الْقَدِيمَة» التي يتهكّم عليها الشياطين، يُضاعف الديوان من إشارات الوهن التي تسم «الثنايا الآثمة» لـ«العاصمة العتيقة» شأن جباه سكانها. والمفارقة أن هذا الوعي بالشيخوخة هو ـ بالفعل ـ أحد مفاتيح جِدة الديوان. ففي قصيدة «بياتريس»، بعدما تذكر بودلير تهكم الشياطين المفعم بالسخرية، يستحضر رد الفعل الذي يمكن أن يقوم به، رد فعل الشعراء الرومانتيكيين، أسلافه، القائم على كِبْرِيَاء «بِارْتِفَاع الْجِبَال/ يُشْرِفُ عَلَى الْغَيْمَةِ وَصُرَاخِ الشَّيَاطِين»، إلى «أَنْ أُدِيرَ رَأْسِي السَّامِيَةَ بِبَسَاطَة». وهذا السمو هو بالتحديد ما فقده العجائز،

«أَنْقَاض إِنْسَانِيَّةٍ نَاضِجَة مِنْ أَجْلِ الأَبَدِيَّة»، تلك «الأطلال» التي قال عنها إنها «عائلته». وفجأةً، مع هذا الفقدان لـ«وهم» السمو، ينفتح الفصل الأليم للاغتراب والتعاسة.

ولاشكّ أن الأدب الأوروبي قد شهد نزوعًا نحو الحزن والكآبة بما يمثل إحدى سمات الرومانتيكية. غير أن هذا الحزن وتلك الكآبة لا عَلاقة وثيقة لهما بما سيتحقق لدى بودلير. فالرومانتيكيون ـ يحتفظون في حزنهم أو كآبتهم ـ بنوع من الكمال الداخلي، الذي ينجحون في الحفاظ على حد أدنَى من الوحدة فيه، الوحدة المثالية. ولا شيء من ذلك لدى بودلير، فالكمال نفسه هو الذي يصبح موضع سؤال. فقصائد السأم تنطوي على برهان أول. ففي مقابل المثال، فالسأم هو ـ في آنٍ ـ النقيض والعبوس. إنه قريب ـ دلاليًا ـ من مصطلح جعلته القصيدة الافتتاحية بديهيًّا: «الضجر»، الذي يتخذ دلالةً لاهوتيةً إضافية مستمدةً من مصطلح acedia في العصور الوسطى (الحزن الكئيب).

فمنذ «سأم ١»، فإن القارئ مدعوٌّ إلى مسرح حزن أو جفاف داخليّ. والحضور الوحيد لـ«أنا» في هذه القصيدة هو ضمير ملكية (قطتي)، الذي يقابل ـ إلى جانبه ـ جمعًا من الأشياء غير الشخصية ذات القيمة الرمزية التي تحيط به: «بلوڤواز» الذي «يَصُبُّ مِنْ جَرَّتِهِ بَرْدًا مُظْلِمًا» على الموتَى إلى «رُوح شَاعِرٍ عَجُوز تَهِيمُ فِي أُنْبُوبِ تَصْرِيفِ الْمَاء»، إلى «جرس ينوح» إلى «وَلَد الْقَلْبِ» إلى «سَيِّدَةِ الْبسْتُونِي» التي تتحدث «بِنَبْرَةٍ شُؤْم عَنْ عِلاَقَاتِهِمَا الْغَرَامِيَّةِ الْغَابِرَة»، تميل السوناتا إلى رسم صورة موضوعيةٍ متشيئة لدرجة عدم القدرة على الإشارة إلاَّ إلى لسان حال العناصر غير الذاتية. وتكشف السوناتا عن داخل مَرَضيٍّ تقول رموزه المعزولة التجزؤ.

وتمضي قصيدة «سأم ٢» شوطًا أبعد: فدون اكتفاء بالمغامرة في لعبة التشبيهات الذاتية الأكثر تشيؤًا، فإن الفاعل لا يتردد في التساؤل بكلمات «الْمَادَّة الْحَيَّة»: «مِنَ الآن، أَيَّتُهَا الْمَادَّةُ الْحَيَّةُ!، لَنْ تَكُونِي/ سِوَى قِطْعَةِ جَرَانِيتٍ مُلْتَفَّةٍ بِرُعْبٍ غَامِض». وذلك ما يشهد على درجة التحجر التي بلغها الفاعل في حديثه إلى نفسه. وتلاشَى كل كمال داخلي هنا لصالح «أبي هول عتيق»، «منسي» و«المزاج الضاري» الذي ما يزال يُغنِّي، ولكنه «لاَ يُغَنِّي إِلاَّ فِي أَشِعَّةِ شَمْسٍ غَارِبَة».

فقصائد السأم تصور بالأساس حالة روح معذَّبة في إحساسها بنفسها، وذلك من

خلال العلاقة بين هذه الروح والآخر، والتي يمكن خلالها أن نرى ـ بطريقة أكثر وضوحًا ـ شارات الاغتراب.

*

وبودلير شاعر عظيم للحب. لكنه الحب الذي لا يكف عن إثبات تناقضاته. وقد يتلقّى ـ في «عطر غرائبي»، في «خصلة الشعر» أو في «الشرفة» ـ انطباعًا بنشوة عاشقة. لكن السعادة ـ في القصيدة الأخيرة ـ ليست سوى نوع من الاستعادة، من التذكر، إلى حد أن المقطوعة الأخيرة لا تملك سوى التساؤل عن إمكانية أن تولد من جديد «هَذِهِ الْعُهُودُ، هَذِهِ الْعُطُورُ، وَهَذِهِ الْقُبُلاَتُ اللاَّنِهَائِيَّة»، مرةً أخرى، من «هَاوِيَةٍ لاَ نَسْبُرُ أَغْوَارَهَا».

وبصورة أكثر عمومية، فالحب يقع تحت شارة التعارض. هكذا، على سبيل المثال، في تأثير للتجاور كاشف، فالقصيدة التي تسبق «الشرفة» هي «مبارزة»، التي تصف العلاقة العاشقة كصراع قاتل يترجم «غَضْبَةَ الْقُلُوبِ النَّاضِجَةِ الْمَجْرُوحَةِ بِالْحُب».

وثمَّةَ قصائد أخرى تشهد على تمزقات أكثر عمقًا؛ ففي «إلى عذراء» ـ على سبيل المثال ـ فإن الحركة المزدوجة للإذلال الذاتيّ المازوخيّ للشاعر إزاء هذه العشيقة المتحولة إلى معبود/ صنم، ثم انقلاب هذا الإذلال إلى اهتياج سادي وقاتل يسم الحب بـ«الوحشية». فالعشيقة عذراء ذات خطايا سبع ومنذورة للموت. ويعلن الشاعر بوضوح:

أَنَا الْجُرْحُ وَالسِّكِّين!
أَنَا الصَّفْعَةُ وَالْخَد!
أَنَا الأَعْضَاءُ وَآلَةُ التَّعْذِيب
وَالضَّحِيَّةُ وَالْجَلاَّد!

وفكْر بودلير واضح في ربط الحب بالألم. وثمة ملاحظة في «سهام نارية» (Fusées) تقول بسخرية أليمة: «ذات مرة، تم التساؤل أمامي عما يشكِّل أكبر متعة في الحب؟ أجاب أحدهم بصورة طبيعية: «في الأخذ»، وآخر: «في العطاء». وهذا

قال: «متعة الكبرياء»! ـ وقال ذاك: «شهوة المذلة!» كل هؤلاء البذيئين كانوا يتكلمون كتقليد ليسوع المسيح. في النهاية كان ثمة شخص طوباوي أكد أن أعظم متعة في الحب هي تأهيل مواطنين من أجل الوطن. أما أنا فقلت: «إن شهوة الحب الفريدة والسَّامية تكمن في اليقين بارتكاب الشر. ويعرف الرجل والمرأة منذ الميلاد أن في الشر تكمن كل شهوة».

وهذا الارتباط بين الحب والألم ـ المتعارض مع المفهوم المسيحي، ومع مثالية واحد من قبيل ڤيكتور هوجو ـ هو المسئول عن اللوحات التي صدمت كثيرًا بعض معاصريه. والتعارض الذي يجعل من الكراهية الرفيق اللصيق للحب، والذي يقود العاشق إلى الإحساس بعاطفته كعبء لا يُحتَمل، يُغذِّي رغبةً لا تتحقق إلا في تخيل عقاب قاس بصورة سادية. فإلى هذه «الْمَجْنُونَة الَّتِي جُنِنْتُ بِهَا»، والتي يُسر لها «أَكْرَهُكِ بِقَدْرِ مَا أُحِبُّك!»، يعلن الشاعر: «هَكَذَا أُرِيدُ، ذَاتَ لَيْلَة،/ عِنْدَمَا تَدُقُّ سَاعَةُ الشَّهْوَة،/ أَنْ أَزْحَفَ بِلاَ صَوْتٍ، كَجَبَان،/ نَحْوَ كُنُوزِ جَسَدِك،/ لأُهَذِّبَ جَسَدَكِ الْمُبْتَهِج،/ لأَجْرَحَ صَدْرَكِ الْمُتَسَامِح،/ وَأَرْتَكِبَ فِي خَصْرِكِ الْمَذْهُول/ جُرْحًا كَبِيرًا وَغَائِرًا،/ وَعَبْرَ هَذِهِ الشِّفَاهِ الجَدِيدَة،/ الأَكْثَر صَخَبًا وَجَمَالا،/ أَيَّتُهَا الْعُذُوبَةُ الْمُدَوِّخَة!/ أَبُثُّ فِيكِ سُمِّي، يَا أُخْتِي!»

فـ«السُّم» رمز للسأم أو للكآبة، والرغبة لا تنكشف إلا في نزوع تدميري هو ـ بالتحديد ـ أحد أشكال الألم[(١)]. وخارج القسوة، تكشف قصيدة «إلى تلك المبتهجة للغاية» مُقومًا آخر للروح البودليرية: السخط، لا كتعبير متفاقم عن استثارة مُعذَّبَة، بل شارة يأس ميتافيزيقي. ففي قصيدة «شهيدة»، يكشف المشهد الرئيس التدخل الغريب والمفاجئ للراوي الذي يبدو، لحظة مساءلته للجثة، أنه يضاعف ـ في النقمة التي تعتريه على الافتراض الذي يصوغه ـ من الإيماءة القاتلة، المغيظة للزوج القاتل:

وَالرَّجُلُ الْمُنْتَقِمُ الَّذِي لَم تَسْتَطِيعِي، وَأَنْتِ حَيَّة،
أَنْ تُشْبِعِيه، رَغْمَ كُلِّ الْحُب،

---

(١) ينطوي عنوانُ الديوان نفسه على معنى «الألم» و«الوجع» الكامن في كلمة Mal، حيث يمكن ترجمةُ العنوان إلى «**أزهار الألم**»، فضلاً بالطبع عن الترجمة الشائعة «**أزهار الشر**»، التي اعتمدناها كما هي. فالكلمة تنطوي على المعنيين معًا: «الشر» و«الألم».

هَل أَشْبَعَ بِجَسَدِكِ الطَّيِّعِ الْهَامِد
شَهْوَتَه الشَّاسِعَة؟

أَجِيبِي، أَيَّتُهَا الْجُثَّةُ الآثِمَة! وَمِن ضَفَائِرِكِ الْخَشِنَة
وَهوَ يَرْفَعُكِ بِذِرَاعٍ مَحْمُوم،
قُولِي لِي، أَيَّتُهَا الرَّأسُ الرَّهِيبَةُ، أَعَلَى أَسْنَانِكِ الْبَارِدَة
أَلْصقَ قُبُلاَتِ الْوَدَاعِ الأَخِيرَة؟

تتكشف النقمة هنا باعتبارها احتجاجًا ميتافيزيقيًّا على الفجوة بين لانهائيَّة الشهوة ونهائيَّة الجسد. وإذ يسترجع غضب العاشق، فإنَّ الشاعر يكرر القتل خلال تأويله له، مؤكدًا هنا أن رهان المشهد ليس سوى المأساوي الذي يتخلل كل حب حقيقي.

وتأسيس الحب ـ أو الشهوة ـ على الألم إنما يعني الارتباط بالموت: «الْفُجُورُ وَالْمَوْتُ فَتَاتَانِ مَحْبُوبَتَان». وهو ارتباط قديم، لكنه يتخذ ـ لدى بودلير ـ دلالةً مختلفة. فالارتباط بينهما ـ في العصر الرومانتيكيِّ ـ يقوم على إدراك الموت باعتباره المعيار الوحيد الحقيقيَّ للحب، واللانهائي. أما لدى بودلير، فالارتباط يقوم على أن الوعي العاشق يتجلَّى في نهائية الجسد المنذور للموت القادم. وتَصدر «حداثة» بودلير من هذا الشكل للوعي. وعلى نقيض المثالية الروحية للرومانتيكيين، فحداثة بودلير لا تكف عن تأكيد الواقع القاطع للموت الفيزيقيِّ. وكما كتب بونفوا: «لقد اختار بودلير الموت»، باعتبار الموت أحد أشكال الوعي.

وفي «رقصة جنائزية»، يمنح بودلير الخطاب إلى الموت، فيقرر الطريقة التي يقرن بها رؤيته، ويوحِّد الشاعر نفسه بالتمثال الرمزي، فاضحًا عمَى «القطيع» الذي «يَتَقَافَزُ وَيُمْعِنُ فِي الْبَهْجَةِ»، دون أن يرى «ثُقْبَ السَّقْفِ» الذي ينفذ من خلاله «بوق» ملاك الموت «كَفُوَّهَةِ بُنْدُقِيَّةٍ سَوْدَاء».

لكن الموت ـ وبصورة مناقضة ـ هو موضوع حلم قلق باعتباره موقع فخ محتمَل. فإذا ما كان التحذير بنهائية الجسد يغير من الوعي الشعريِّ، بجعله أكثر حساسيةً بصورة لانهائية، فسنجد ـ كتعويض لدى بودلير ـ التعبير عن عذاب أن الموت لن

يكون سوى وهم، وأن الحياة ما بعد الموت لن تكون سوى ديمومة للحياة، سوى امتداد الانتظار الذي حُكِم به على الأحياء:

كُنْتُ مَيِّتًا بِلاَ مُفَاجَأَة، وَالْفَجْرُ الرَّهِيب

كَانَ يَلُفُّنِي. وَمَاذَا! أَهَذَا كُلُّ شَيْء؟

كَانَت السِّتَارَةُ قَد رُفِعَت وَكُنْتُ مَا أَزَالُ أَنْتَظِر.

حيث تتكشَّف قصيدة «حلم شخص فضولي» عن كابوس: ففيما وراء الموت «بلا مفاجأة» لن يكون سوى بداية «الْفَجْر الرَّهِيب» ليوم بلا نهاية. ولا شكَّ أن النبرة التهكميَّة لهذه القصيدة تخفف من فظاظة الحالة. صحيح أن بودلير ليس أول من تناول هذه الفكرة ـ فهناك هايني وجوتييه ـ لكن ليس هناك من اتخذها بجديَّة بودلير، ولا أحد تأمل بعمق كبودلير هذه الفرضيَّة بمثل هذا القلق:

أَتُرِيدُونَ (كَرَمْزٍ وَاضِحٍ رَهِيب

لِمَصِيرٍ بَالِغِ الْقَسْوَة!)

أَنْ تَكْشِفُوا أَنَّ النَّوْمَ الْمَوْعُود

لَيْسَ مَضْمُونًا حَتَّى فِي القَبْر؛

وَأَنَّ الْعَدَمَ خَائِنٌ لَنَا؛

وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْمَوْتَ، يَخْدَعُنَا،

وَأَنَّنَا دَائِمًا أَبَدًا

رُبَّمَا سَيَكُونُ عَلَيْنَا، وَا أَسَفَاه!

أَنْ نَحْرُثَ الأَرْضَ الْقَاسِيَة

فِي بَلَدٍ مَا مَجْهُول

وَنَغْرِسَ فِيهَا مِعْزَقَةً ثَقِيلَة

تَحْتَ قَدَمِنَا الْعَارِيَةِ الدَّامِيَة؟

وبصورة مختلفة أيضًا، يتخذ الموت معنى فضاء آخر. وباعتباره أملاً كخلاصٍ ما، فإنه يتخذ ألوان الحلم:

هُوَ مَجْدُ الآلِهَةِ، وَمَخْزَنُ الْغِلاَلِ الرُّوحِي،

هُوَ كِيسُ نُقُودِ الْفَقِيرِ وَمَوْطِنُهُ الْقَدِيم،

هُوَ الرُّوَاقُ الْمَفْتُوحُ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَجْهُولَة!

وكملاذٍ أخير إزاء «المعرفة المريرة» التي يستمدها من الرحلة مَن لم يزُر الأرض إلاَّ ليشاهد فيها «الْمَشْهَدَ الْمُمِلَّ لِلْفُجْرِ الأَبَدِي»، ومعاناة قوة الزمن الساحقة، «الْعَدُوِّ الْيَقِظِ الْمُمِيت»، يتكشف الموت باعتباره الأداةَ الوحيدة لزعزعة النفس، والطريق الوحيد الذي يُفضي إلى المجهول. والتساؤل المثير للإعجاب الذي يرمز للموت بقبطان سفينة الحياة يشير إلى أية درجة يُخفِق اجتياز الوجود في العثور على نظير موضوعي متوافق مع شهوة اللانهائي التي تسكن المتكلم:

أَيُّهَا الْمَوْتُ، أَيُّهَا الْقُبْطَانُ الْعَجُوزُ، هُوَ الْوَقْت! فَلْتَرْفَعِ الْمِرْسَاة!

هَذِهِ الْبِلاَدُ تُضْجِرُنَا، أَيُّهَا الْمَوْتُ! فَلْتُبْحِر!

فَإِذَا مَا كَانَت السَّمَاءُ وَالْبَحْرُ سَوْدَاوَيْنِ كَالْحِبْر،

فَقُلُوبُنَا الَّتِي تَعْرِفُهَا مَلِيئَةٌ بِالأَشِعَّة!

فَلْتَسْكُب لَنَا سُمَّكَ لِيُنْعِشَنَا!

فَنَحْنُ نُرِيدُ ـ وَهَذِهِ النَّارُ تُحْرِقُ عُقُولَنَا ـ

أَنْ نَغُوصَ فِي قَاعِ الْهَاوِيَةِ، أَوِ الْجَحِيم، أَوِ السَّمَاءِ، مَا الْفَرْق؟

فِي قَاعِ الْمَجْهُولِ لِنَعْثُرَ عَلَى الْجَدِيد!

* * *

وإذا كان الرومانتيكيون قد أنشدوا مدائح للربّ، فإنه قدّم «ابتهالات الشيطان». وإذ أشادوا بالحب «الطاهر»، فإنه يعكف على الشهوة الجسديَّة. وفيما قدموا ورود الحياة لنشمها، سيقترح هو عفونة الجثث. لقد سعوا إلى جمال الجميل، فيما توصل إلى جمال البشع، جمال شيطاني حقيقي. وإذ تمت قبله زراعة كل أنواع الورود، فإنه سيكتفي بتفتيح النباتات المهجورة للشر والموت في المخالب الخانقة لبستاني كئيب.

فالقصيدة البودليرية ليست تعبيرًا عن ذات الشاعر، ولا تأريخًا لمسيرته الروحية. فالانفصال صارمٌ بين الشعر والشاعر كذاتٍ فردية شخصية، لتبدأ مع بودلير تلك المسافة المباعِدة بين القصيدة وصاحبها، بحيث تصبح القصيدة نتاجًا إبداعيًّا، له وجودُه الموضوعيُّ المستقل.

فالذَّاتُ ـ لدى بودلير ـ ليست ذاتَ الشّاعر، الشّخصيّة، الفرديّة، بل هي ذاتٌ «عامّة» بصيرة، ذات «إنسان» ذلك العصر المتخبط في ظواهر المدينة الحديثة، التي فاجأته دون استعداد أو تأهيل، ودون قدرة على مواجهتها أو ردِّها، لكن ـ أيضًا ـ دون القبول بها، بما هي ظواهر سلبية في عمومها، مُدمرة لماهية الإنسان.

و«الأنـا» ـ الـواردة في القصائد ـ هي «أنا» غير ذاتية، غير شخصية، لشخص «موضوعيّ»، أو قريب من ذلك. شخص يرى، ويقدّم لنا ما يراه، دون أن يُقحم نفسه ـ مشاعره، ورغباته، وذاتيته الضيقة الشخصية ـ في تحديد عالم القصيدة. هي ما تكتشفه تلك الذات «العامة» في العالم من خبايا وأسرار، ما يتخفَّى وراء السطح الزلق المصقول من أطلال وركام وأشلاء، وما يكمُنُ وراء تفاصيل اليومي من عمومِي مأساويّ.

ولهذا، فهي قصيدة لا عاطفية (ليس الشعور ـ أو القلب ـ هو الفاعل في العمليّة الإبداعية؛ كما أنه ليس العقل؛ بل الخيال المحكوم ـ أو المكبوح ـ بدرجة من العقلانيّة والفكر). لا آهاتِ ولا دموع. لا أناشيد أو مراثي. لا حُزن ولا بهجة.

هنا، يستعيد العالم الخارجيُّ استقلاليته وموضوعيته التي فقدها في الخيال الرومانتيكي. فهو ـ لدى بودلير ـ قائم خارج الإنسان الخياليِّ، واضحًا، قاسيًا، صلدًا، بلا إمكانية لدمجه أو اختصاره أو إلغاء حضوره الماديِّ، وفاعليته الفظة. لكن حضوره سلبي (بلا إسقاطات ذاتية عليه)، لا يُنتج سوى «الْعَفَنِ السَّقِيم» و«الضَّجَرِ وَالأَحْزَانِ الْكَبِيرَة» و«الْمُسُوخِ النَّائِحَة علَى ثِيَابِهَا» و«الفُجُورِ» و«الرَّذِيلَةِ الأُمُومِيَّة».

«ما من احترام إنساني، ولا أي حياء زائف، ولا أي توافق، ولا أي قبول عالمي باستطاعته أن يرغمني على الكلام بلهجة هذا العصر الفريدة، ولا على خلط الحبر بالفضيلة». «لقد وضعت في هذا الكتاب البشع كلَّ قلبي، كل رقتي، كل ديني (المتنكِّر)، وكل حقدي».

ولدى بودلير، فإن الواقع محسوسٌ كألم مُبرِّح: «سَرْعَانَ مَا سَتَنْغَرِسُ الآلاَمُ النَّابِضَة/ فِي قَلْبِكَ الْمُفْعَمِ بِالرُّعْبِ مِثْلَمَا فِي الْهَدَف»؛ حيث تقول هذه الأبيات ـ من قصيدة «ساعة الحائط» ـ الحالة التي ينبغي عليها أن يتحمل الفاعلُ الواقع. وينجم عن ذلك ما يمكن أن نسميه معرفةً بفعل الألم الذي يعيد شخصنة المجهول الذي تحدث عنه باربي دورڤيي: «على اختلاف مع عدد كبير للغاية من القصائد الغنائية الراهنة، المشغولة للغاية بذاتيتها وانطباعاتها الصغيرة البائسة، فإن شعر السيد بودلير لهو أقل كشفًا عن الشعور الفرديِّ من مفهوم بالغ الصرامة لعقله.. إن شاعر «أزهار الشر» هو ـ في العمق ـ شاعر درامي.. وكتابه الراهن هو دراما مُجهَّلة ممثلها الكوني هو».

فهناك إذن في غنائية الديوان تجاوز لـ«الشعور الفرديّ» بالانكسار الذاتيّ الذي سيتخذ مكانًا في «مجهولية» الدراما. فهذا «الصوت المجَهَّل»، أو صوت «الممثل الكوني»، هو ـ في الوقت نفسه ـ صوتٌ ذو نبرات أكثر شخصانية، أكثر ذاتية مما حدث في الشعر من قبل. ويكمن السبب في ذلك في أن هذا الممثل ـ الفاعل الغنائي البودليري ـ يقع في موقف من «السلبية»، بل من الضعف الذي يعوقه عن احتمال الفعل (المدمر) لواقع (خارجي، لكنه أيضًا داخلي) بطريقة لن تغطيَ تخفِّي حساسيته.

* *

في عام «أزهار الشر» (١٨٥٧) يتجلَّى مشروع «سأم باريس». ولا بد أنه قد تشكل فيما قبل، لكن بودلير لم يُعان الحاجة إلى التعبير عنه إلاَّ في اللحظة التي صدر فيها الديوان المنظوم.

ولدى نشر القصائد الأخيرة، استقبلها سانت ـ بيف بحرارة، حيث اعتبر «الأرامل» و«البهلوان العجوز» بمثابة «دُرَّتَين». لكن بعد نشر مجموعة أخرى في «لا بريس» (La Presse)، سيكتب تيودور دي بانڤيل: «لقد وقع حدث أدبيٌّ حقيقيٌّ، أقصد نشر

«قصائد نثر» شارل بودلير (..) هذه الروائع القصيرة المنجَزة فنيًّا، حيث إنها متحررةُ من كل حبكة، بل يمكن القول من كل تركيب مادي، تتبدَّى الفكرة الحرة، الرشيقة، في عريها الباهر، دون أن تملك سوى التجلِّي لتدفع بحشد الجبابرة المدَّعِين والخاوين إلى السقوط في التراب (..) ولا تنخدعوا فيها، ففي اختيار النثر المستخدم في هذه المؤلفات، هناك أيضًا برهان هام. فها هي ثلاثون عامًا، ماذا أقول؟ ها هي ألف عام ونحن نكرر بشفقة: «ماذا ستكونون بدون النظم، بدون الإيقاع، بدون القافية، بدون تلك المفاتن المادية التي تؤكدون تواطؤها مع أحاسيسنا، تهدهد الروح في نشوة موسيقية وتخفي تحت ثراء وشيها بساطة أفكاركم الفقيرة؟» فحسنًا! إن قصائد نثر شارل بودلير ترد على ذلك أيضًا (..) أيها البلهاء الغرباء بتخيلكم أن في أرجحة معينة للمقاطع اللفظية، في تعليق للمعنَى، في العودة المنتظمة لأصوات معينة مُنح الامتياز الخارق لإنجاب مخلوقات!..»

لقد دخل بودلير عالم قصيدة النثر كما يدخل غابةً مجهولة، عذراء تقريبًا، مليئةً بالفخاخ، بالمهابة والمخاطر، بقدر ما هي مغوية. ولعل قراء كتابه «صالون ١٨٥٩» لم يلحظوا ـ وسط الخطاب المتعلق بالفن التشكيلي ـ هذه الخاطرة التي تشبه الحديث الذاتي: «خطرةٌ كشعر النثر» (la poésie en prose). لم تكن نذيرًا، على النقيض، بالعمل المطروح، لأنه كان هناك عامان على الأقل قد مرَّا على صياغة وتشكيل قصيدة النثر (حتى لو اعترفنا بأن بودلير لم ينظر إلى هذه القصائد الأولى كتدريبات منفصلة).

ولكنه سيكرر: «خطرةٌ كالحرية المطلقة»، كصدًى لما قال عن قصيدة النثر، وعن أنها «بداية مطلقة».

لكن ما هي «الحريَّة المطلقة»؟ فإذا ما كانت الحريَّة التي لا تستمد قوانينها إلا من الذات، فهي حرية شاعر النثر. وهنا يكمن بالتحديد الخطر الرئيس الذي أدركه؛ هذه القوانين المستمدة من الذات، والتي لا يعرفها أحد مقدمًا، ولن يتعرف عليها بالتالي أحد.

وفيما كان يكتب «أزهار الشر»، كان مشغولاً في الوقت نفسه بفتح طريق آخر، لم تطأه قدم من قبل، يمنح خلاله التعبير الشعريّ شكلاً جديدًا؛ أو بالأحرى اختراع شعر آخر؛ لكنه يمثل ـ في الوقت نفسه ـ محاولةً لـ«التجاوب» مع نفسه، لاستعادة موضوعاته الكبرى، في نمط غريب.

(٥)

يعرف محققو أعمال بودلير ـ والمتخصصون في شعريته ـ أن ما يصطلح على وصفه بـ«الأعمال الشعرية الكاملة» إنما ينقسم إلى قسمين كبيرين: القصائد المنظومة وقصائد النثر. وهو التقسيم الذي كان بودلير يعتمده بنفسه، دون خلط بين الشكلين الشعريين.

وقد درج محققو أعمال بودلير ـ خلال قرابة القرن ونصف القرن من عملهم المتواصل على أشعاره المنشورة خلال حياته أو بعد الوفاة ـ على إدراج القصائد المنظومة تحت ذلك العنوان العام «أزهار الشر»، دون أن يعني ذلك أنها كانت كلُّها جزءًا من ذلك الديوان الذي أصدر بودلير طبعته الأولى عام ١٨٥٧، وطبعته الثانية عام ١٨٦١

فهم يوردون عادةً كل ما أصدره بودلير خلال حياته، وما اكتشف بعد وفاته، من قصائد منظومة تحت هذا العنوان العام ـ «أزهار الشر» ـ الذي بدأ في الظهور بشكل رسمي في الأول من يونيو ١٨٥٥، بمجلة «روفي دي دو موند» (Revue de deux mondes)، حين نشرت تحته ثماني عشرة قصيدة تصدرها هذا المقتطف:

يَقُال إِنَّه لاَبُدَّ مِن إِغْرَاقِ الأَشْيَاءِ الْمَقِيتَة
فِي آبَارِ النِّسْيَانِ وَالْقَبْرِ الْمُسَوَّرَيْن،
وَإِنَّ الشَّرَّ الْمُسْتَثَارَ مِنْ جَدِيد بِفِعْلِ الْكِتَابَاتِ
سَيُصِيبُ أَخْلاَقَ الذُّرِّيَّة؛
لَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ لَيْسَت أَبَدًا أُمَّ الرَّذِيلَة
وَالْفَضِيلَةَ لَيْسَت ابْنَةَ الْجَهْل.

(ث. أجريبا دوبيني،
المأساويون، الكتاب الثاني)

لكن الكتلة الأساسية التي ترد تحت ذلك العنوان العام «أزهار الشر» إنما

تستند ـ في جوهرها، بالفعل ـ على قصائد الديوان، الذي صدر ـ خلال حياة بودلير ـ في طبعتين:

١ـ **الطّبعة الأولى** عام ١٨٥٧: أزهار الشر، بوليه ـ مالاسي ودي برواز، باريس. يضم الغلاف وصفحة العنوان المقتطف السابق. وقد صدر الكتاب يوم ٢٥ يونيو ١٨٥٧، محتويًا ١٠٠ قصيدة ـ من بينها ٥٢ قصيدة غير منشورة من قبل ـ تتوزع على خمسة أقسام: سأم ومثال، أزهار الشر، تمرد، الخمر، الموت. وقد حكمت المحكمة السادسة للجُنح بحذف ٦ قصائد من الديوان[1]. ودفعت ضرورة كتابة قصائد جديدة لملء الفراغات التي تتخلل ـ بهذا الحذف ـ معمار الأزهار، فضلاً عن البيع المتسارع للنسخ ـ على الرغم من أو بفضل الحُكم ـ إلى تفكير بودلير في طبعة جديدة.

٢ـ **الطبعة الثانية** من ديوان «أزهار الشر»، بوليه ـ مالاسي ودي برواز، باريس، ١٨٦١ فلم تُنضب الطبعة الأولى معين الشاعر؛ فالقصائد الستُّ المطلوب إضافتها ـ محل القصائد المحذوفة ـ قد تضاعفت. وفي الأسبوع الأول من فبراير ١٨٦١، صدرت الطبعة الثانية من الأزهار في ١٥٠٠ نسخة، وهي تضم ٣٥ قصيدةً جديدة، إذا ما اعتبرت قصيدة «طيف» بمثابة أربع سوناتات، وهي تحمل بورتريه للمؤلف من رسم وحفر براكمون.

ولا تضم هذه الطبعة ـ في الواقع ـ سوى قصيدة واحدة غير منشورة، هي «نهاية النهار»، حيث سبق لبودلير نشر البقية في الصحف فيما بين ١٨٥٧ إلى الأيام الأولى من عام ١٨٦١. وتضم الطبعة قسمًا جديدًا إضافيًّا يحمل عنوان «لوحات باريسية».

وكان من المقرر أن تصدر هذه الطبعة مع مقدمة يوضح فيها بودلير «ألاعيبه» و«انتحالاته»، فيما كان يريد الانتقام فيها من تهجم لوي ڤيو عليه في ١٤ مايو ١٨٥٨ في «لو روڤي»(Le Réveil)، والتعريض بأنه قد وقع في نزاع مع القضاء من أجل «شيء تافه»؛ لكن هذه المقدمة لم يقدر لها النشر، لا في هذه الطبعة ولا في الثالثة، وستتخذ ـ في تراث بودلير ـ شكل أربعة مشروعات لمقدمة غير منشورة.

---

(١) راجع ملفات القضية، وتحديد القصائد المحكوم بحذفها، في القسم الخاصّ بالمحاكمة، فيما يلي من ملاحق ووثائق «أزهار الشر»، في نهاية هذا الكتاب.

ويضيف المحققون ـ في طبعاتهم التالية من «أزهار الشر» ـ إلى قصائد الطبعة الثانية:

١ـ ديوان «**البقايا**»؛ وهو كُتيب شعري نُشر في بروكسيل في فبراير ١٨٦٦، على يد بوليه ـ مالاسي. ويضم القصائد المحذوفة ـ بحُكم المحكمة ـ من الطبعة الأولى، بعد نشرها في بروكسيل في صحيفة «بارناس ساتيريك» (Parnasse satyrique du dix-neuvième siècle). وقد صدر الديوان في ٢٦٠ نسخة، مع لوحة غلاف رمزية من أعمال فيليسيان روب.

٢ـ أزهار شر **جديدة** نُشرت في «لو بارناس كونتومبوران» (Le Parnasse contempo-rain)، في ٣١ مارس ١٨٦٦؛ وتضم قصائد: نبذة لكتاب مُدان، امتحان منتصف الليل، غزلية حزينة، إلى امرأة من مالابار، الفدية، ترنيمة، الصوت، العاصِي، النافورة، عينا برت، النذير، بعيدًا عن هنا، تأمل، الهاوية، نواح إيكاروس.

٣ـ القصائد **الإضافية** المستمدة من الطبعة **الثالثة** لـ«أزهار الشر»، ميشيل ليڤي، باريس، ١٨٦٨. وكان بودلير قد وقع ـ عام ١٨٦٣ ـ عقدًا مع هيتزل لنشر طبعة ثالثة، مزيدة، من «أزهار الشر». وظل أمل رؤية هذه الطبعة يهدهد الشاعر حتى لحظاته الأخيرة، دون تحقق. وفي عام ١٨٦٨، نشرت هذه الطبعة، التي ستُدعَى النهائية، برعاية دي بانڤيل، باعتبارها الجزء الأول من «الأعمال الكاملة لبودلير»، يتصدرها بورتريه محفور للشاعر من أعمال ا. نارجو مع «ملاحظة» لتيوفيل جوتييه. وتضم هذه الطبعة ١٥١ قصيدة، تنتظم في ستة أقسام، شأن الطبعة الثانية التي ترد كاملة. وقد أضيفت إليها قصائد «البقايا» الاثنتا عشرة، وبعض القصائد التي لم تكن معروفة في ذلك الحين إلا كأعمال أولى منشورة في بعض الصحف. والقصيدة الوحيدة غير المنشورة ـ التي ضمتها هذه الطبعة ـ هي سوناتا «إلى تيودور دي بانڤيل». كما تضم الطبعة ملحقًا يجمع «مقالات الإثبات» التي أعدها بودلير عام ١٨٥٧ لتقديمها للقضاء، ورسائل سانت ـ بيف وكوستان وإميل ديشا.

وتتفاوت الطبعات التي تحمل عنوان «أزهار الشر»، فيما عدا ذلك. فثمّةَ طبعاتٌ تتوقف عند هذه الحدود. وثمّةَ أخرى تضيف إلى ما سبق قسمًا خاصًّا بالقصائد

المنظومة التي كتبها بودلير في شبابه، دون أن يُقدِم على نشرها في حياته (وهو قسم يتفاوت بدوره ـ في عدد القصائد ـ من طبعة إلى أخرى، ومن محقق إلى آخر).

أما القصائد المنظومة، التي كتبها بودلير فيما يتعلق برحلته إلى بلجيكا، فلا تَرِد ضمن هذه الطبعات المنفردة من «أزهار الشر»، بل في طبعات الأعمال الكاملة، وغالبًا ضمن كتاباته المتعلقة ببلجيكا، أي خارج نطاق الأقسام «الشعرية».

وتلتزم ترجمتنا العربية هذه بذلك الحد الأقصَى المتاح ـ فرنسيًّا ـ من قصائد بودلير المنظومة.

أما قصائد النثر، فلا اجتهادات أو اختلاف ذي بال فيها. فتاريخها أكثر تحديدًا ومباشرة، دون أن يطرأ على بِنيتها أيُّ تغيير على مدى السنوات اللاحقة لوفاة بودلير.

وشأن «أزهار الشر»، فما سيصبح «سأم باريس» (ذلك أنه حمل أسماء متتالية سابقة على صدوره النهائي، شأن الأزهار)، سيُنشر مجزءًا في الصحف والدوريات، تحت أول عنوان له: «قصائد ليلية».

وعلى الرغم من ذلك، فلن يصدر الكتاب خلال حياته. فبعد عامين من وفاته، صدر الكتاب في يونيو ١٨٦٩، لدى ميشيل ـ ليڤي، مشكلا، مع «الفراديس الاصطناعية»، الجزء الرابع من «الأعمال الكاملة»، بعنوان «قصائد نثر قصيرة».

ولن تشهد الطبعات اللاحقة من «سأم باريس» ـ حتى الآن ـ أية إضافة، فيما عدا بعض الملاحق المتعلقة بعناوين مشروعات قصائد كان يزمع بودلير كتابتها، أو مقاطع غير مكتملة، أو ملاحظات تمهيدية، دون اكتشاف أية قصيدة مكتملة ـ غير منشورة ـ ضمن أوراقه الشخصية. وهو ما يعني أن قصائد الطبعة الأولى من «سأم باريس» لم تطرأ عليها إضافة شعرية منذ صدورها لأول مرة.

والاختلاف الوحيد الذي يمكن رصده بين الطبعات المختلفة من «سأم باريس»، هو تلك القصيدة «المنظومة» التي ترد في ختام الديوان، في بعض الطبعات، دون بعضها الآخر. وقد بدا لنا منطقيًّا موقف بعض المحققين الفرنسيين من أنها لم تكتب أصلاً لـ«سأم باريس»، بل لاختتام «أزهار الشر»، استنادًا إلى رأي «بوليه ـ مالاسِّي»،

صديق بودلير وناشر أعماله الشعرية. فلم يكتب بودلير «مفتتحًا» منظومًا للقصائد النثرية، فلماذا يختتمها بقصيدة منظومة؟

*

وقد استندنا في ترجمة القصائد «المنظومة» على:

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, Édition de Claude Pichois, (folio classique), Gallimard, Paris 1996.

واعتمدنا هذه الطبعة كمصدر أول لترجمة «أزهار الشر»، وترتيب القصائد والأقسام، وضبط البنية العامة للأزهار؛ وهي أمور تختلف فيها طبعات «أزهار الشر»، استنادًا إلى مكانة كلود بيشوا كعميد لمُحقّقي أعمال بودلير.

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, Édition établie par John E. Jackson, Le Livre de Poche, Librairie Générale Française, 2001.

تزيد هذه الطبعة ـ فضلاً عن المصدر التالي ـ عن طبعة «بيشوا» السابقة في عدد القصائد الواردة بقسم «قصائد الشباب». ففيما يورد «بيشوا» ٥ قصائد، تورد هذه الطبعة وطبعة الأعمال الكاملة التالية ٩ قصائد، وهو ما دفعنا إلى ترجمة قصائد القسم بالاعتماد على المصادر الأكمل.

Baudelaire, **ŒUVRES COMPLÈTES**, Édition Robert Laffont, Paris 1999.

وتنفرد هذه الطبعة ـ دون الطبعات المختلفة من أعمال بودلير التي اعتمدنا عليها، أو حتى اطلعنا عليها دون اعتمادها مصدرًا للترجمة ـ بقسم خاص بما أسمته القصائد المنسوبة إلى بودلير والقصائد المشتركة، لكن محقّق الأعمال لم يستطع تقديم مبررات قوية لنسبة هذه القصائد إلى بودلير، وبدا ـ حتى هو نفسه ـ مُتشكّكًا في نسبتها إليه، أو ـ في الحدّ الأدنى ـ غير متأكد. وذلك ما دفعنا إلى تجاهل ترجمة هذا القسم الذي لم يجد تأييدًا من مُحقّقي أعمال بودلير، ولقي تشكيكًا قويًا إلى حد النّفي التام. ويبدو أن المحقّق قد أورد هذا القسم إمعانًا في «الشمولية»، أو «من باب الاحتياط». كما أن هذه الطبعة تحتوي على القصائد «البلجيكية» التي كتبها بودلير، دون أن توردها أي من المصادر الأخرى التي اعتمدناها.

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, choix de poèmes, par Adrien Cart et S. Hamel, Edition Remise à Jour, Librairie Larousse, Paris 1972.

أما قصائد النثر ، فقد استندنا في ترجمتها على:

Baudelaire, **Le Spleen de Paris** (Texte de 1869), Le Livre de Poche, Paris 1964.

Baudelaire, **Le Spleen de Paris,** Edition établie présenté et commentée par Yves Florenne, Le Livre de Poche Paris 1998.

Baudelaire Le Spleen de Paris (**ŒUVRES COMPLÈTES** Édition Robert Laffont Paris 1999).

وفيما يتعلق بالأعمال التكميلية (مقال «موقف بودلير» لبول فاليري، السيرة الشعرية والذاتية لبودلير، مشروعات المقدمة والخاتمة، وثائق المحاكمة، الإضاءات)، فلم نعتمد فيها على مصدر واحد، بل رجعنا بشأنها إلى المصادر السابقة، فضلاً عن مراجع أخرى متفاوتة.

رفعت سلاّم

القاهرة: ٢٥ فبراير ٢٠٠٧

مراجع المقدمة

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, Édition de Claude Pichois, (folio classique), Gallimard, Paris, 1996.

Baudelaire, **ŒUVRES COMPLÈTES**, Édition Robert Laffont, Paris, 1999.

Baudelaire, **Les Fleurs du Mal**, choix de poèmes, par Adrien Cart et S, Hamel, Edition Remise à Jour, Librairie Larousse, Paris, 1972.

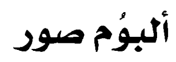
John E. Jackson, **INTRODUCTION**, Les Fleurs du Mal, Édition établie par John E. Jackson, Le Livre de Poche, Librairie Générale Française, 2001.

سوزان برنار، **قصيدة النثر من بودلير حتى الآن**، ترجمة راوية صادق، مراجعة وتقديم رفعت سلام، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٨/ ٢٠٠٠. (والفصل المتعلق ببودلير ـ بالتركيز على تجربة قصيدة النثر لديه ـ هو أهم ما نُشر بالعربية في هذا الخصوص).

د. عبد الغفار مكاوي: **ثورة الشعر الحديث**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢؛ وللكتاب طبعة ثانية في مجلد واحد، دار أبوللو، القاهرة ١٩٩٨ (وهو من أهم الكتب العربية عن تجربة الحداثة الشعرية الأوروبية؛ والفصل الخاص ببودلير ربما كان أهم ما كُتب عن الشاعر الفرنسيّ بالعربية، على الرغم من إغفاله تجربة «سأم باريس»).

فرانسوا بورشه: **بودلير**، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب، دار بيروت، بيروت ١٩٥٨

موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٢


ألبوُم صور

١ ـ وجوه بودلير



بودلير (١٨٥٤)



بودلير (١٨٥٤)



بودلير من تصوير نادار



بودلير من تصوير نادار



بودلير (۱۸۵۵)



بودلير (۱۸۵۵)



بودلير (۱۸۵۵)



بودلير (۱۸۶۰)



بودلير (١٨٦٢)



بودلير، من أعمال كارجا (١٨٦٣)



بودلير (١٨٦٤)



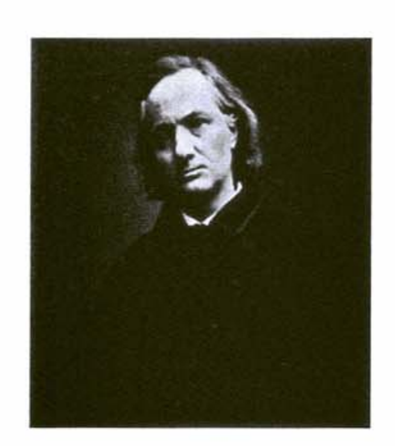
بودلير (١٨٦٤)



بودلير من تصوير نادار



بودلير (١٨٦٤)



بودلير (١٨٦٦)

۲ ـ رسوم بودلیر









رسوم بودلیر، بریشته



بودلير تحت تأثير الحشيش



بودلير تحت تأثير الحشيش
بريشته (١٨٤٤)



بودلير، بريشته



بودلير، من رسم نادار



جين دوفال، من رسم بودلير



جين دوفال، من رسم بودلير



جين دوفال، من رسم بودلير



جين دوفال، حبيبة بودلير من أعمال مانيه



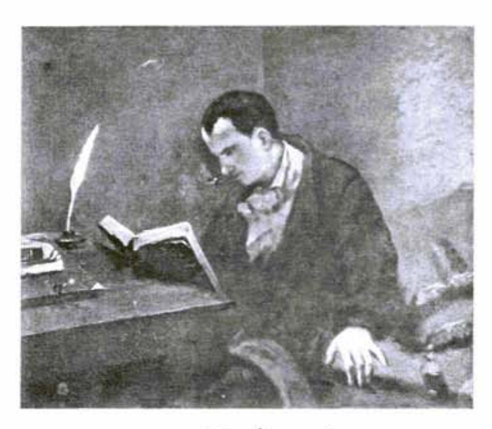
بودلير، من أعمال مانيه



بودلير، من أعمال مانيه



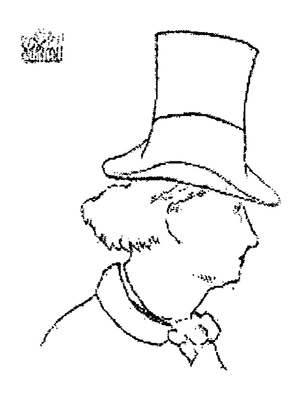
بودلير، من أعمال براكمون



بودلير، من أعمال كوربيه



فانتان ـ لاتور، تكريم ديلاكروا
يظهر بودلير يمين اللوحة



بودلير، من أعمال مانيه



بودلير، من رسم ماتيس

بودليـر: سيـرةٌ ما

١٨٢١ : ٩ أبريل: ميلاد شارل بيير بودلير، في ١٣ شارع هوتفيي بباريس، بمنزل ستتم إزالته في نهاية الإمبراطورية الثانية، مع شق طريق سان جيرمان. أمه ـ كارولين أرشينبو ـ دوفايي ـ في السابعة والعشرين من عمرها، ووالده ـ جوزيف ـ فرانسوا بودلير ـ في الواحد والستين من عمره. لكن جوتييه سيكتب ـ فيما بعد ـ أنه ولد في ٢١ أبريل، فيما والدته ستؤكد ـ في رسالة إلى آسيلينو ـ على أنه وُلد في ٧ أبريل. و٩ أبريل هو التاريخ المُسجَّل بشهادة ميلاده الرسمية.

٧ يونيو: التعميد في كنيسة سان سولبيس.

مولد جوستاف فلوبير، وشارل نودييه (مؤلف «سمارًّا»)، ووالتر سكوت، ودي كوينسي (مؤلف «اعترافات مدمن أفيون»).

وفاة نابليون.

١٨٢٧ : ١٠ فبراير: وفاة فرانسوا بودلير، والد شارل، الرئيس السابق لمكتب البرلمان، عن ٦٧ عامًا. كان أيضًا رسامًا، وقام بدراسات للفلسفة وعلوم الدين بجامعة باريس. تزوج ـ في المرة الأولى ـ في ٧ مايو ١٧٩٧ ـ من جين جوستين روزالي جاسمان، وأنجب منها ولدًا، كلود ألفونس، شقيق بودلير الوحيد.

بعد تَرَمُّلها في الثالثة والثلاثين من عمرها، تترك السيدة بودلير ـ «كارولين أرشيمبو ـ دوفايى» ـ شارع هوتفيي إلى ٥٨ شارع سان أندريه ديزار، ثم إلى ٣٠ ميدان سان أندريه ديزار.

في الصيف؛ الإقامة في نُوَيي، قرب غابة بولوني، في منزل ريفي صغير يقع في شارع ديباركادير (تمت إزالة المنزل عام ١٩٣٠).

ڤيكتور هوجو يصدر «كرومويل». آنجر: لوحة «تمجيد هومير».

وفاة بتهوڤين. معركة حول مذهب التحول (Transformisme)، وهو مذهب يرى عدم ثبات الأنواع الحية، لأنها في حالة تحول دائم.

حل البرلمان الفرنسي. نتائج الانتخابات البرلمانية الجديدة تصب في صالح المعارضة.

حرب الاستقلال اليونانية: معركة نفارين.

١٨٢٨: ٨ **نوفمبر**؛ السيدة بودلير تتزوج بالرائد جاك أوپيك، وهو في التاسعة والثلاثين. عسكري لامع، خاض معارك النمسا وإسبانيا وواترلو، ونال عدة أوسمة حربية رفيعة. وينتظره مستقبل لامع. لكنه رجل ذو إرادة متصلبة وأفق ضيق، لن يتوافق معه بودلير أبدًا.

١٨٣٠: يُرسل أوپيك في مهمة عسكرية إلى الجزائر، وباريس مسرح لثورة ١٨٣٠ يبتهج الطفل بودلير لسفر غريمه، لاعتقاده أن العسكريين لا يعودون من الحروب. لكن الرجل يعود مكللاً بالغار مرة أخرى، وتتم ترقيته من جديد.

١٨٣٢: الانتقال إلى ليون التي كانت شوارعها تضج بأصداء العصيان الأخير، الذي سُمِّي في ١٨٣١ «ثورة الجُوع»، تحت شعار «الحياة ونحن نعمل أو الموت ونحن نقاتل». تم تعيين أوپيك ـ الذي رقي إلى رتبة مقدم ـ قائدًا للفرقة السابعة العسكرية هناك. ويتم وضع شارل في بنسيون ديلورم.

وسيكتب ـ عن تلك الفترة ـ فيما بعد: «يستحيل على المرء، مهما يكن الحزب الذي ينتسب إليه، ومهما تكن الأوهام التي تغذى بها، ألاَّ يرتعش لمشهد الجماهير المريضة التي تتنفس غبار المصانع، وتبتلع القطن، وتتشرب الأسبيداج، والزئبق، وسائر السموم الضرورية لخلق الآثار الرائعة،

وتنام في القاذورات، في أعماق الأحياء حيث أكثر الفضائل تواضعًا وعظمة تقيم جنبًا إلى جنب أقسى الشرور...»

١٨٣٣: العودة إلى باريس، حيث عُين العقيد أوپيك قائدًا للفرقة العسكرية الأولى، بعد ترقيته من جديد.

١ مارس؛ التحاق شارل بالقسم الداخلي لمدرسة لوي لوجران. أوپيك يقدمه إلى مدير المدرسة: «سيدي، هذه هدية أقدمها لك. هذا تلميذ سوف يُشرِّف مدرستك». لكن الصراع الداخلي بين الطفل والجنرال يتصاعد.

١٨٣٦: **يونيو**؛ «كثير من الطيش؛ اعتياد محدود على اللغات القديمة. افتقار للطاقة لتصحيح أخطائه»، يكتب أستاذه أشيل شودان. «تزوير، أكاذيب. أساليب فروسية أحيانًا وأحيانًا صادمة من فرط الافتعال».

١٨٣٧: يحصل على الجائزة الثانية في الشعر اللاتيني في المسابقة السنوية العامة.

١٨٣٨: «لديه القدرة على الابتكار عندما يريد، وعلى الإجادة. وليس لديه ما يكفي من الجدية للقيام بدراسات قوية وجادة»، هذا ما يكتبه عنه الأستاذ ديفورج. رحلة في جبال بيرنيس، خلال موسم الإجازات، بصحبة العقيد أوپيك وأمه.

١٨٣٩: **فبراير**؛ «اتخذ بودلير منذ بضعة أيام سمات بالغة الغرابة. إنه تلميذ مزعج إلى حد أنه، بعد أن كان قد اتخذ الطريق القويم منذ بداية العام، يستمتع بأن يكون مثالاً سيئًا»؛ الأستاذ أشيل كارير.

١٨ أبريل: يتم طرد بودلير من المدرسة. الأستاذ ج. بييرُو يوجه رسالة إلى زوج أمه أوپيك: «سيدي، إذ أُنذِر ابنُكم من قبل نائب المدير بأن يعيد منشورًا كان أحد زملائه سيقوم بدسّه، فقد رفض تسليمه له، وقام بتقطيعه إلى قصاصات وابتلعها. وأعلن، لدى استدعائه عندي، أنه يفضل أي عقاب على تسليم سر زميله، وأصرَّ على الشهادة لصالح هذا الصديق، [...] وكان يجيب عليَّ باستهزاء لا ينبغي عليَّ تحمل وقاحته. إنني أرسل إليك ـ إذن ـ هذا الشاب الذي كان يتمتع بإمكانات جيدة، لكنه خرَّب كل شيء بفعل عقله الشرير..»

يُطرد من المدرسة بسبب العصيان. يستكمل استعداداته لامتحان البكالوريا في بنسيون لوفيك بايلي، حيث يرتبط باثنين من الشعراء الشبان المحليين: جوستاڤ لافافاسير وإرنست براروند.

١٢ أغسطس؛ يحصل على شهادة البكالوريا. ويترقَّى الكولونيل إلى جنرال، ويخطط لابن زوجته مستقبله كدبلوماسي، اعتمادًا على نفوذه لدى السلطات العليا. وبودلير يصمم على تكريس نفسه للأدب.

١٨٤٠: يعيش بودلير حياة بوهيمية لطالب مسجل بكلية الحقوق، لكنه لا يحضر أية محاضرات. أولى لقاءاته ببعض الشخصيات الأدبية لتلك الفترة. يقيم علاقة - في الحي اللاتيني - مع العاهرة سارة، التي يسميها أقرباؤها لوشيت. وهي التي سيكتب عنها قصيدته «**ليست لديَّ كعشيقة لبؤة**».

١٨٤١: أولى العلاقات في الوسط الأدبي: إدوارد أورلياك، جيرار دي نرڤال، بلزاك. وقلق - في أوساط العائلة - من تراكم ديونه، وحياته البوهيمية، وعدم اكتراثه بالارتباط بوظيفة.

١ يناير؛ «لو كورسير» (Le Corsaire) تنشر أنشودة تهكمية، بدون توقيع. الأنشودة إنتاج مشترك لبودلير ولافافاسير.

أوپيك يكتب إلى ألفونس بودلير، شقيق الشاعر: «سيدي العزيز بودلير، لقد حانت اللحظة التي ينبغي عمل شيء ما فيها لمنع أخيك من الضياع المطلق. إنني في النهاية على إلمام، على الأقل، بوضعيته، وأحواله وسلوكياته. إن الخطر كبير. وهناك، في رأيي، ورأي بول ولابييه، ضرورة عاجلة لانتزاعه من بلاط باريس الزَّلِق. وأفكر في دفعه إلى القيام برحلة بحرية طويلة، إلى هندٍ أو أخرى، على أمل انتزاعه، بتغريبه على هذا النحو، من علاقاته الشائنة، وإزاء كل ما سيكون عليه درسه، سيستطيع العودة إلى الطريق القويم ويعود إلينا شاعرًا ربما، لكن شاعرًا يتوفر على إلهاماته من مصادر أفضل من بالوعات باريس...»

٩ يونيو: على متن «باخرة بِحار الجنوب» المتجهة إلى الهند، يقوم برحلة «تربوية» بحرية طويلة، لإبعاده عن نمط الحياة والوسط الذي يعيش فيه،

نزولاً على نصيحة العائلة التي اجتمعت بناءً على طلب الزوجين أوپيك، اللذين حذرا من الحياة الفوضوية لبودلير، ورغبته في ألا يكرس نفسه إلا للأدب.

١ـ ٩ سبتمبر؛ يقيم في جزيرة موريشيوس، بعد تعرض الباخرة لعاصفة واضطرارها إلى الرسوّ بالجزيرة. يكتب قصيدة «إلى خلاسية»، إلى زوجة مضيفه بالجزيرة، ويرسلها إليه بعد عودته إلى فرنسا.

أكتوبر؛ يقيم في جزيرة بوربون. يقرر عدم استكمال رحلته، والعودة إلى الوطن. والكثير من القصائد اللاحقة ستكون مستلهمةً من هذه الرحلة الإجبارية المجهضة.

٢٠ أكتوبر ١٨٤١: «جزيرة بوربون، ٢٠ أكتوبر ١٨٤١، سيدي العزيز أوتار، كنتَ قد طلبت مني بضعة أبيات أرسلها إلى موريشيوس من أجل زوجتك، ولم أنسكم. فكم هو جيد، ورقيق، ولطيف أن تمر أشعار، كتبها شاب إلى سيدة، من خلال يدي زوجها قبل الوصول إليها، فأنت من أرسلها إليه، من أجل ألا تريها لها إلاَّ إن أعجبتك. منذ أن غادرتكم، كثيرًا ما فكرتُ فيكم وفي أصدقائكم الممتازين. ولن أنسى بالتأكيد الصباحات الجميلة التي منحتموها لي، أنتم والسيدة أوتار، والسيد ب. ولو لم أكن أحب باريس ولو لم أكن لأندم كثيرًا عليها، لبقيت أطول وقت ممكن بجانبكم، ولأجبرتكم على حبي، وعلى أن تجدوني أقل غرابةً مما أبدو. وقد يكون من المحتمل إلى حدٍّ ما أن أعود إلى موريشيوس، إلاَّ إذا كانت السفينة التي تقلني إلى بوردو (لالسيد) لن تجد مسافرين. ها هي سوناتتي: ..... إذن، فسأنتظركم في فرنسا. تحياتي المحترمة إلى السيدة أوتار».

ألفريد دي موسيه: **ذكرى** (قصيدة). بلزاك: **كاهن القرية**. جوجول: **الأرواح الميتة**.

١٨٤٢: **١٥ فبراير**؛ بودلير يقلع إلى بوردو: «لا أظن أنني أعود والتعقل في جيبي». يقيم ـ في باريس ـ علاقات أدبيةً جديدة مع تيوفيل جوتييه وتيودور دي بانڤيل وسانت ـ بيف وڤيكتور هوجو.

يبدأ علاقته مع جين دوفال، «فينوس السوداء»، فتاة خلاسية تمثل في أحد المسارح الصغيرة بالحي، التي سيرتبط بها في علاقة عميقة وعاصفة في نفس الوقت حتى ١٨٥٦

٩ **أبريل**؛ يبلغ الحادية والعشرين من عمره، سِنّ الرشد القانونية، ويحصل على آلاف الفرنكات الذهبية، كجزء من نصيبه من ميراث أبيه.

يهرب من المنزل، ويترك لأمه كلمة صغيرة: «إني أرحل، ولن أعاود الظهور إلاّ في حالة فكرية ومالية أفضل. إني أرحل لأسباب عديدة. فأنا ـ بادئ ذي بدء ـ عرضة لهزال وخمول رهيبين، ولابد لي من كثير من الوحدة حتى أسترد قواي قليلاً وأعاود سيرتي الأولى. وثانيًا، فإنه من المستحيل أن أكون مثلما يريدني زوجك.. لا شك أني سأُضطر إلى أن أعيش حياة قاسية، لكني سأكون أفضل حالاً إن قراري راسخ ونهائي ومعقول، ولذا فلا ينبغي أن تتشكي، بل أن تتفهميه».

ينتقل للسكنى بغرفة في جزيرة سان لويس وسط باريس. يضاعف من مصروفاته بصورة زائدة. ويعيش حياة بوهيمي ثري، مع الحشيش والأفيون.

ألويزيوس برتران: **جاسبار الليلي** (بعد عام من وفاة الشاعر). إ. سو: **أسرار باريس**.

نهاية حرب الأفيون في الصين.

١٨٤٣: يشارك بودلير إرنست برارون في تأليف دراما شعرية، لن تكتمل أبدًا.

أبريل؛ الانتقال إلى مسكن جديد بشارع فانو.

أكتوبر؛ العودة إلى جزيرة سان لويس، بفندق بيمودان. وأحد ساكنيه هو الرسام فرينان بواسار، الذي يجد بودلير في مرسمه جوتييه، ويلتقى ـ ربما للمرة الأولى ـ بالآنسة ساباتييه[1]

---

(١) سيتخذها رجل أعمال بلجيكيّ عشيقةً له فيما بعد، ويصبح بيتها قِبلة كبار المثقفين والمبدعين الفرنسيين، ومن بينهم بودلير وموسييه ونرڤال وسانت ـ بيف وفلوبير والموسيقار بيرليوز. وسيطلق عليها «جوتييه» لقب «الرئيسة».

يشارك في حضور اجتماعات «نادي الحشاشين».

نوفمبر/ ديسمبر؛ ترفض «لوتنتامار» (Le Tintamarre) و«لا ديموقراطيّ باسيفيك» (La Démocratie Pacifique) نشر مقالات لبودلير، باعتبارها مفرطةً في الجرأة. حوالي خمس عشرة قصيدة ـ ستتخذ مكانها فيما بعد في «أزهار الشر» ـ كانت قد كتبت حتى ذلك الحين.

١٨٤٤: نصف ميراثه تم إنفاقه في عامين. مجلس للعائلة يجتمع، وترفع أمه دعوى قضائية تطالب بوضع ما تبقى من ميراثه تحت رقابة وصي قانوني تعينه المحكمة. المحكمة تقضي بتعيين الموثق نارسيس ـ ديزيريه آنسيل وصيًا قانونيًّا على أمواله، لا يمنحه إلاّ مبلغًا محددًا كل عام.

بعد أن أُثقل بالديون، بودلير يقضي بقية حياته في التهرب من الدائنين، والتوسل إلى آنسيل وأمه ليقدما له «دفعات مسبقة» من مستحقاته الخاضعة للحراسة.

مارس؛ يُنشَر ـ لدى مؤسسة كازيل ـ عمل صغير مُغفَل المؤلف، «أسرار طريفة لمسارح باريس»، وهو مجموعة من الحكايات واللمحات الساخرة التي شارك في إعدادها بودلير.

١ ديسمبر؛ تنشر «لارتيست» (L'Artiste) ـ بتوقيع بريفا دانجلمنون ـ سوناتا «**إلى السيدة دي باري**»، التي قد يكون بودلير مؤلفها الحقيقي.

ألفريد دي ڤيني: **منزل الراعي**. الكسندر دوماس: **الكونت دي مونت كريستو.**

إنشاء أول تلغراف كهربائي على يد مورس.

١٨٤٥: **يناير، مايو، أغسطس؛** تنشر «لارتيست» ثلاث سوناتات، اثنتان منها بتوقيع بريفا دانجلمون، والثالثة مغفلة المؤلف، ويمكن أن يكون بودلير مؤلفها الأصلي. ويحكي أرسين هوساي ـ الذي كان يدير «لارتيست» في ذلك الحين ـ في كتابه «اعترافات»، أن بريفا قد وقع أمامه وأمام بودلير على سوناتات كتبها بودلير.



PRÉFECTURE DU DÉPARTEMENT DE LA SEINE.

Ville de Paris.

EXTRAIT du Registre des Actes de

ÉTAT CIVIL.

شهادة ميلاد بودلير



بودلير (١٨٣٣)



السيدة أوتار دي براجار

جاك أوبيك

أبريل؛ الناشر جول لابيت ينشر «**صالون ١٨٤٥**» باسم «بودلير-دوفايي» في كتيب يقع في ٧٢ صفحة. والاسم تركيب من الاسم العائلي لأبيه والاسم العائليّ الأصليّ لأمه قبل الزواج الثاني.

٢٥ مايو؛ «لارتيست» تنشر سوناتا «**إلى خلاسية**» باسم بودلير- دوفايي.

٣٠ يونيو؛ محاولة انتحار بودلير بالسكين، بعد كتابته وصية يوصي فيها بأن تئول جميع ممتلكاته إلى عشيقته الآنسة جين لوميه (اسم آخر لجين دوڤال). يكتب إلى آنسيل الوصي القانوني عليه - في ٣٠ يونيو ١٨٤٥: «عندما تُسلمك الآنسة جين لوميه هذه الرسالة، سأكون ميتًا. إنها تجهل ذلك. وتعرف وصيتي. فعدا النصيب المحجوز لأمي، فينبغي أن ترث الآنسة لوميه كل ما سأتركه، بعد تسديدك بعض الديون المرصودة في القائمة المرفقة بهذه الرسالة.

إنني أموت في حالة قلق مرعب. فلتتذكر حديثنا بالأمس. إنني أرغب، أريد أن تُنفذ أفكاري بدقة. وهناك شخصان يمكنهما التهجم على وصيتي، أمي وشقيقي - ولن يستطيعا التهجم عليها إلا بحجة الخلل العقلي (...) إنني **أنتحر - بلا حزن**-... لأنني لا أستطيع أن أستمر في الحياة، ولأن تعب نومي وتعب يقظتي لا يُحتمَلان. إنني أنتحر لأني غير مفيد للآخرين - و**خَطِر على نفسي**. إنني أنتحر لأني أعتقد أني خالد، وآمل في ذلك... لا أعرف شقيقي إلاَّ قليلاً - فهو لم يعش **داخلي ولا معي** - إنه ليس بحاجة لي... وأمي، التي سممت حياتي كثيرًا ودائمًا عن غير قصد، لم تعد بحاجة إلى هذه النقود. فلديها زوجها، وتملك **كائنًا إنسانيًا**، وعاطفة، ومحبة. أما أنا، فليس لديَّ سوى جين لوميه... فلتُطلعها على مثالي المخيف - وكيف أن فوضى العقل والحياة أفضيا بي إلى يأس كئيب أو إلى فناء تام».

طعن نفسه في صدره، فنُقل إلى مركز الشرطة أولاً، ثم إلى دار غريمه زوج أمه، وتم تسديد ديونه.

على ظهر غلاف كتاب لبيير دوبون، إعلان عن الصدور القريب لديوان «**السحاقيَّات**»(Les Lesbiennes) لبودلير دوفايي.

يوليو؛ بودلير يقيم لدى أمه، بالمقر العسكري لباريس، الذي يرأسه أوپيك، زوج أمه. خصومات جديدة وقطيعة أخرى مع زوج الأم. يرحل الشاعر للإقامة بفندك دنكرك: «لقد غادرتُ عائلتي من جديد. لم يكن ذلك ليستمر. إنهم لا يشربون سوى البوردو عند أمي، وأنا لا أستطيع الاستغناء عن البورجون».

٢٤ نوفمبر؛ تُنشر بدون توقيع ـ في «لو كورسير ـ ساتان» -(Le Corsaire Satan) فانتازيا عن بلزاك بعنوان «**كيف يسدد ديونه مع افتقاره إلى العبقرية**». وسيعترف بودلير بكتابته هذه المقطوعة عندما يعيد نشرها ـ بعد بضعة شهور ـ مقترنةً باسمه، في صحيفة أخرى.

تيوفيل جوتييه: **إسبانا**، **كوميديا الموت**. ميريميه: **كارمن**. دومييه: **رجال العدالة**. ڤاجنر: **تانهاوزر**.

١٨٤٦: **يناير/ أبريل**؛ التعاون مع «لو كورسير ـ ساتان» و«لِسبري بيبليك» (L'Esprit Public). يقدم للثانية ـ كنص من تأليفه ـ «الشاب الساحر»، الذي ليس سوى ترجمة قاصرة لقصة إنجليزية نشرت عام ١٨٣٦

تنقلات كثيرة في السكنَى.

مايو؛ ينشر ـ لدى ميشيل ليڤي ـ كتيبًا بعنوان «**صالون ١٨٤٦**»، ويتضمن الإعلان عن صدور لاحق لديوان شعري بعنوان «**السحاقيات**» (وهو ما سيصبح ـ بعد إحدى عشرة سنة ـ «**أزهار الشر**»)، و«عقيدة المرأة المحبوبة» الذي لن يطبع أبدًا، ويبدو أنه لم يكتب أصلاً.

الإعجاب بأعمال ديلاكروا ـ الذي تبدَّى في «صالون ١٨٤٥» ـ يتأكد بقوة في «صالون ١٨٤٦».

٦ سبتمبر؛ ينشر في «لارتيست» قصيدة «**السادر**» التي ستصبح ـ في «**أزهار الشر**» ـ «**دون جوان في الجحيم**».

سبتمبر؛ بداية تعامل ـ بدون توقيع ـ مع «لوتنتامار» (LeTintamarre)، لن ينتهي إلا في مارس ١٨٤٧

١٣ ديسمبر؛ ينشر في «لارتيست» قصيدة «إلى هندية» التي ستنشر ـ في «**أزهار الشر**» ـ بعنوان «**إلى امرأة من مالابار**».

١٨٤٧: يناير؛ جمعية الأدباء الشبان تنشر نصه السردي «**فانفارلو**»، الذي يقدم فيه بودلير نفسه ـ بدرجة أو أخرى ـ في شخصية صامويل كرامر، بطل النص.

خلال العام، تتفاوت أحواله بصورة حادة. يقيم مع جين دوفال. ويُغرم بممثلة أخرى صغيرة في العشرين من عمرها.

يقرأ ترجمة «القطة السوداء» لإدجار آلان بو، التي ستشكل أول تماس له بعالم بُو.

كوربيه يرسم له البورتريه الشهير (متحف مونبولييه حاليًّا).

١٤ نوفمبر؛ يعيد شامفلوري ـ في «لو كورسير ـ ساتان» ـ نشر سوناتا لبودلير (السوناتا الشهيرة «**القطط**»).

ديسمبر؛ بودلير ينتقل للإقامة في منزل جديد. يكتب إلى أمه: «لو كان بمقدوري أن أعيش، خلال خمسة عشر يومًا أو عشرين، حياةً منتظمة، فإن ذكائي سيجد خلاصه. تلك محاولة أخيرة، تلك مقامرة. غامري على المجهول، يا أمي العزيزة، أرجوك... فعندما تكرمت في المرة الأخيرة فأعطيتني خمسة عشر فرنكًا كنت قد قضيت يومين دون طعام، ثماني وأربعين ساعة».

١٨٤٨: التعاون مع «لو كورسير ـ ساتان».

نهاية فبراير؛ ليلة ٢٤ فبراير تنطلق الرصاصات الأولى في الانتفاضة الشعبية بباريس. لويس فيليب المذعور يتنازل عن العرش ويهرب في عربة عادية، فيما الثوار يجتاحون قصر التويليري ويستولون عليه.

بودلير يشارك في الانتفاضة الشعبية، المرتبطة بالجمعية الجمهورية المركزية، التي أسسها بلانكي، ويُصدر مع اثنين من أصدقائه ـ شامفلوري وتوبان ـ نشرةً ذات طابع اشتراكي، «**الخلاص العام**»، تختفي بعد صدور عددها الثاني.

يلتقي جول بويسون مع بودلير، في المساء، بأحد الميادين، وبندقية في يده، وهو يصرخ في الشارع: «لا بد من الذهاب لإطلاق الرصاص على الجنرال أوپيك» (زوج أمه).

وسيكتب: «إن في كل تبدل شيئًا سافلاً ولذيذًا في آن، شيئًا مستمدًّا من الخيانة والارتحال. وهو ما يكفي لتفسير الثورة الفرنسية».

أبريل/ مايو؛ يعمل سكرتيرًا لتحرير جريدة «لا تريبين ناسيونال» (Tribune La National)، فيما لا يبدو متوافقًا مع التوجهات المحافظة للجريدة. السيدة أوپيك وزوجها يسافران إلى القسطنطينية، حيث أرسل زوجها كوزير مُفوض. قبل رحيلهما بأيام، يؤنب أوپيك ـ ابن زوجته على علاقته ـ مع جين دوڤال، التي تختلس أمواله وتخونه. خصام كامل بين بودلير وأمه.

٢٢ ـ ٢٥ يونيو؛ الشاعر يشارك في الانتفاضة العمالية المسلحة.

١٥ يوليو؛ ينشر ـ في «لا ليبريتيه دي بونسيه» (La Liberté de Penser) ـ ترجمته الأولى لأحد أعمال إدجار آلان بو بعنوان «**رؤيا عجيبة**».

أكتوبر؛ يتوجه إلى شاتورو ليصبح رئيس تحرير صحيفة أسبوعية جديدة، ذات ميول محافظة. في نهاية الأسبوع، يعود إلى باريس بعد أن أصاب بالهلع أصحاب الجريدة، بفعل مواجهتهم بمجموعة من «المصادرات» غير المتوقعة والأحكام المحيرة.

نوفمبر؛ ينشر قصيدة «**خمر القاتل**». ويتم الإعلان عن نشر ديوان شعريّ له ـ لدى ميشيل ليڤي ـ في فبراير ١٨٤٩ـ بعنوان «**الأعراف**» (وهو ما سيصبح فيما بعد «**أزهار الشر**»، بعد التخلي عن العنوان السابق، «**السحاقيات**»).

ألكسندر دوما الابن: **سيدة الكاميليا**. وفاة شاتوبريان. إملي برونتي: **مرتفعات وذرنج**.

ثورة فبراير؛ حركات ثورية في أوربا.

١٨٤٩: فترة كئيبة من حياة بودلير. يُغرم بموسيقى ڤاجنر، التي لن يسمع بها الباريسيون إلا عام ١٨٥٠. يُجمِّع ديوانًا من أشعاره، كتبه بخط اليد كاتب عمومي.

٣ ديسمبر؛ يتوجه إلى ديجون. لا يُعرف ما الذي كان ينوي فعله في هذه المدينة، حيث كان يتوقع أن يقيم فيها لمدة طويلة. يقرر ـ أثناء إقامته بفندق بالمدينة ـ استئجار شقة صغيرة وأثاث.

وفاة إدجار آلان بو، عن أربعين عامًا.

١٨٥٠: **٩ يناير؛** جين دوڤال تلحق به في ديجون. في الربيع، العودة إلى باريس، بعد متاعب صحية (أعراض ثانوية لمرض الزهري الذي كان قد أصيب به منذ سنوات). يستأجر مسكنًا خاصًّا به.

مايو/ يوليو؛ ينشر في مجلة «لو ماجازان دي فامي» (Le Magasin des Familles) قصيدتين: «**عقاب الغطرسة**» و«**خمر الشرفاء**» (التي أصبحت فيما بعد «**روح الخمر**»).

١٨٥١: **مارس؛** ينشر في «لو ميساجيه دي لاسمبلي» (Le Messager de l'Assemblée) دراسته «**عن الخمر والحشيش باعتبارهما أداتين لتعددية الفردية**»، وهي المشروع الأول لـ«**الفراديس الاصطناعية**».

٩ أبريل؛ تحت العنوان العام «**الأعراف**» تنشر «لو ميساجيه» إحدى عشرة قصيدة، ستنشر فيما بعد ضمن «**أزهار الشر**».

بداية يونيو؛ لدى العودة من القسطنطينية، يقضي الجنرال أوپيك وزوجته بضعة أيام في فندق الدانوب، قبل أن يتوجه سفيرًا إلى مدريد. السيدة أوپيك تعثر على ابنها في حالة عوز تام.

يوليو؛ يتعاون مع «لو ريبيبليك دي بيبل» (Le République du Peuple)، وهي نشرة ديموقراطية. ترفض جريدة «لو بِيِّي» (Le Pays) اقتراحه بكتابة سلسلة من المقالات حول فن الكاريكاتير.

أغسطس؛ ينشر دراسته حول الشاعر بيير ديبون.

١٥ أكتوبر؛ يطلب من لندن الأعمال الكاملة لإدجار آلان بو.

٢٧ نوفمبر؛ ينشر في «لا سومين تياترال» (La Semaine Théâtrale) مقالاً عن «**الدراما والرومان الشرفاء**».

انقلاب ٢ ديسمبر يثير فيه الرعب.

١٨٥٢: **٢٢ يناير**؛ ينشر في «لا سومين تياترال» مقالاً عن «**المدرسة الوثنية**».

١ فبراير؛ تنشر «لا سومين تياترال» قصيدتين لبودلير.

مع بعض أصدقائه، وخاصة مونسليه شامفلوري، يقرر بودلير إصدار جريدة أسبوعية فلسفية، لكن المشروع سرعان ما يتم التخلي عنه.

مارس/ أبريل؛ مجلة «لا روڤي دي باريس» (La Revue de Paris) تنشر دراسة بودلير «**إدجار آلان بو، حياته وأعماله**». وهو أول نص هام في فرنسا عن الشاعر الأمريكيّ. ويكتب إلى أمه، في ٢٧ مارس: « لقد عثرت على مؤلف أمريكيّ أثار داخلي تعاطفًا لا يصدق، وقد كتبت عن حياته ومؤلفاته مقالتين، كتبتهما بحمية، لكنك ستجدين فيهما بلا شك بعض السطور التي يطغى عليها انفعال زائد غير عادي. وتلك نتيجة الحياة الأليمة والمجنونة التي أعيشها... وأنا مجبر على العمل ليلاً حتى أحصل على الهدوء وأتجنب المضايقات التي لا تُحتَمل، هذه المضايقات التي تُسببها المرأة التي أعيش معها».

٧ أبريل؛ بودلير يترك مسكنه، إلى مسكن آخر، وينفصل عن «جين دوڤال». يكتب إلى أمه: « لقد أصبحت جين عائقًا ليس في سبيل سعادتي فحسب... بل في سبيل استكمال فكري أيضًا.. في الماضي كانت تتمتع ببعض الصفات ـ لكنها فقدتها ـ وأنا كسبت البصيرة. فأن تعيشي مع كائن لا يعترف بأي من جهودك، بل يعاكسها بخراقة أو خبث دائمين، ولا يعتبرك إلا مثل خادمه وملكيته، ويستحيل عليك أن تتبادلي معه كلمة واحدة في السياسة أو الأدب، كائن لا يريد أن يتعلم شيئًا، على الرغم من أنك اقترحت عليه بنفسك أن تعطيه دروسًا، مخلوق لا يُعجَب بي، ولا يُعنَى حتى بدراساتي، بل يمكن أن يلقي بمخطوطاتي في النار إن كان ذلك سيعود عليه بمال أكثر من نشرها، ويطرد قطي وقد كان تسليتي الوحيدة في البيت، ويُدخل إلى

هذا البيت كلابًا لأن رؤية الكلاب تؤذيني، ولا يعرف أو لا يريد أن يفهم أن اللجوء إلى اقتصاد شديد خلال شهر واحد سيسمح لي ـ بفضل راحة مؤقتة ـ أن أنهي كتابًا كبيرًا ـ أخيرًا، أيكون ذلك ممكنًا، أيكون ممكنا؟...». لكن العلاقة لن تنقطع بشكل نهائي، وسيكون حريصًا على تدبير نقود لها بين الحين والحين، على الرغم من ديونه التي لا تنتهي.

أكتوبر؛ ينشر في «لا روفي دي باري» قصيدتين وإحدى ترجماته لبو، وينشر ترجمة أخرى لبو في «لو ماجازان دي فامي».

٩ ديسمبر؛ يهدي ويرسل أول قصيدة إلى أبولوني ساباتييه، بدون توقيع، تحمل عنوان «**إلى امرأة مبتهجة للغاية**». وستصبح هذه القصيدة ـ تحت عنوان «**إلى تلك المبتهجة للغاية**» إحدى ست قصائد من «**أزهار الشر**» سيتم منعُ نشرها بحكم قضائيّ.

١٨٥٣: ١٠ يناير؛ بموجب عقد تم توقيعه منذ بضعة شهور، يقدم بودلير إلى الناشر ڤيكتور لوكو مخطوط ترجمة «**حكايات عجيبة**» لبو، ويتسلم ثمنه. لكنه يقرر ـ بفعل عدم رضائه عن الترجمة ـ طلب وقف نشره، متحملاً أن يتحول إلى مدين بالأجر الذي كان قد تسلمه من قبل وأنفقه.

٤ فبراير؛ نشر ترجمته لبو في جريدة «باريس» (Paris).

١ مارس؛ ترجمة أخرى لبو (**الغراب**) تنشر في «لارتيست». الإفلاس والإحباط يمنعان بودلير من الاستجابة إلى إلحاح «روقوبلان» مدير الأوبرا على تأليف عمل له، وعروض أحد مديري المسارح بكتابة عمل دراميّ.

٨ مارس؛ الجنرال أوپيك يصبح عضو برلمان.

٢٧ مارس؛ نشر ترجمة لبو في «لو موند ليتيرير» (Le Monde Littéraire).

١٧ أبريل؛ في الجريدة نفسها، ينشر مقالة مهمة: «**أخلاقيات اللعبة**».

مايو؛ الانتقال إلى فرساي، ومجموعة قصائد جديدة، مجهولة التوقيع، ترسل إلى السيدة ساباتييه.

١٣ / ١٥ نوفمبر؛ ترجمة لبو تنشر في صحيفة «باريس».

١٨٥٤: يناير؛ يخطط لكتابة عمل درامي في خمسة فصول، بعنوان «السِّكِّير» الذي تتبدَّى فكرته في عدد من قصائده. لكنه لا يكتبه.

فبراير؛ مجموعة جديدة من القصائد ـ بلا توقيع ـ تصل إلى السيدة ساباتييه. يلجأ إلى الإقامة في فندق «يورك» لمدة ما بين عشرة وخمسة عشر يوما، للتهرب من دائنيه.

٧ فبراير؛ يكتب إلى السيدة ساباتييه: «لا أظن، سيدتي، أن النساء، عمومًا، يعرفن كل مدى قوتهن، سواء في الخير، أم في الشر. ولا ينبغي لي ـ بلا شك ـ أن أكون حصيفًا بتعليمها لهن كلهن على السواء. لكن، معك، فلا مخاطرة؛ فروحك بالغة الثراء والطيبة بحيث تفسح مكانًا للغرور والقسوة. ومن ناحية أخرى، فلقد ارتويتِ ـ بلا أي شك ـ وتشبَّعتِ من الإطراءات، إلاَّ من شيء وحيد يمكن ربما أن يُطريك مع ذلك، هو تعلُّم أن تفعلي الخير، في حياتك، حتىَّ بدون معرفته.. أما بالنسبة لهذا الخَوَر مجهول المصدر، الذي قلت لك عنه، فأي عُذر سأتعلل به، سوى أن خطئي الأول يؤدي إلى كل الأخطاء الأخرى، وأن الطَّبع قد غلَب عَلَيَّ. فلتفترضي ـ إن شئت ـ أنني ـ أحيانًا ـ تحت ضغط كآبة عنيدة، لم أستطع إيجاد السلوَى إلا في متعة كتابة قصائد لك، وأن أُجبَر بعد ذلك على موافقة الرغبة البريئة في إطلاعك عليها مع الخوف الرهيب من أن تزعجك. ذلك ما يفسر الخَوَر. إنها تمضي أمامي، هذه العيون الاستثنائية...؛ أفليس حقيقيًّا أنك تفكرين، مثلي، في أن الجمال الأكثر عذوبةً، في أن الكائن الأكثر رفعةً والأكثر محبةً، ـ أنتِ نفسك، على سبيل المثال، ـ لا يستطيع، كإطراء أسمَى، إلا اشتهاء التعبير عن العِرفان بالخير الذي فعله؟»

مايو؛ ينتقل إلى الإقامة في فندق «مراكش» بشارع السين.

٢٥ يوليو؛ تبدأ جريدة «لو بِيي (Le Pays)» في نشر ترجمة بودلير «**حكايات عجيبة**» لبو. ويستمر النشر بصورة متقطعة حتى أبريل ١٨٥٥

نهاية يوليو؛ يعود بودلير إلى لقاء الممثلة ماري دوبران.

ديسمبر؛ بفعل إلحاح المؤجرين ـ الذين لا ينالون حقوقهم إلا متأخرًا، وعلى أقساط صغيرة ـ يخبر أمه أنه ينوي «العودة في الحال إلى العلاقات غير الزوجية»، سواء بالعثور على جين دوڤال، أو بالإقامة «لدى الأخرى»، ماري دوبران أو الغامضة ج. جي. ف، التي سيهدي إليها «الفراديس الاصطناعية». يرتبط ـ في هذه الفترة نفسها ـ بباربي دورڤِّيي.

١٨٥٥: مارس/ أبريل؛ ٦ تنقلات بين الفنادق خلال شهر، فيما الجنرال أوپيك يشتري منزلا صغيرا في «أونفلير» أمام البحر.

مايو؛ تنشر «لو بِيي» (Le Pays) دراسة له عن المعرض العالمي الذي افتتح مؤخرًا في قصر الفنون الجديد.

انتحار جيرار دي نرڤال شنقًا.

١ يونيو؛ بودلير ينشر ١٨ قصيدة في «روڤي دي دو موند» (Revue de deux mondes) واسعة الانتشار والتأثير، تحت عنوان «**أزهار الشر**»، الذي يظهر للمرة الأولى.

الممثلة ماري دوبران ـ عشيقة بودلير ـ تصبح أهم صديقاته. يلتقي بالسيدة ساباتييه، التي سيقيم معها علاقة صداقة أفلاطونية لعدة سنوات. وتظهر فيما بعد آثار دوبران وساباتييه في القصائد اللاحقة لبودلير.

٨ يوليو؛ صحيفة «لو بورتفي» (Le Portefeuille) تنشر دراسته «**عن جوهر الضحك والفكاهي في الفن التشكيلي**».

٣ أغسطس؛ يعد ـ مع ميشيل ليڤي ـ مسألة طبع ترجمته لـ«**حكايات عجيبة**» و«**حكايات عجيبة جديدة**» لإدجار آلان بو في جزءين.

تنشر «لو بورتفي» الجزء الثاني من دراسته «**المعرض العالمي ١٨٥٥**»، ويتعلق بالفنان إنجر، والتي رفضت «لو بيي» (Le Pays) نشرها كاملة.

١٤ و١٩ أغسطس؛ بودلير يكتب إلى جورج صاند ليوصيها على ماري دوبران التي تسعى إلى الارتباط بأحد المسارح.

النشر الأول لقصائد نثر قصيرة، في ديوان مشترك بعنوان «فونتانبلو» (Fontainebleau).

٤ نوفمبر؛ تكتب «لو فيجارو» (Le Figaro)، في تعليقها على القصائد المنشورة من «**أزهار الشر**» في يونيو الماضي ـ في «روڤي دي دو موند» (Revue de deux mondes) ـ أن هذه القصائد قد دمرت «سمعة الدهشة» التي أحدثها بودلير، وهبطت بمنزلة كاتبها إلى مستوى «الفواكه المجففة في الشعر المعاصر».

ألكسندر دوما الابن: **عالم الغانيات**. كوربيه: لوحة «**ورشة العمل**».

تحالف أنجلوفرنسي ضد روسيا: حملة القرم. تأسيس شركة قناة السويس.

١٨٥٦: **مارس؛** صدور الجزء الأول ـ لدى ميشيل ليڤي ـ من ترجمة بودلير لبو تحت عنوان «**حكايات عجيبة**»، بسعر فرنك واحد للنسخة.

مايو؛ يعود بودلير إلى الإقامة بأحد الفنادق، فندق ڤولتير، لمدة عامين.

أغسطس، أو بداية سبتمبر؛ قطيعة نهائية مع جين دوڤال. يكتب إلى أمه في ١١ سبتمبر: «علاقتي، علاقة أربعة عشر عامًا، بجين قد قُطِعت... هذه المرأة كانت تسليتي الوحيدة، ولذتي الوحيدة، ورفيقي الوحيد. وعلى الرغم من ما انتاب علاقتنا العاصفة من هزات باطنة فإن فكرة الانفصال النهائي لم تخطر ببالي إطلاقًا. وأنا أفاجئ نفسي حتى الآن وأنا أفكر، عندما أرى شيئًا جميلاً، أو منظرًا فاتنًا، أو أي شيء لطيف: لماذا ليست معي الآن؟»

٣٠ ديسمبر؛ الاتفاق مع بوليه ـ مالاسي على نشر «**أزهار الشر**»، ومع ميشيل ليڤي على طبع ترجماته لإدجار آلان بو.

١٨٥٧: **ما الذي كان يجري عام ١٨٥٧، عام «أزهار الشر»؟**

كان لوي ـ نابليون بونابرت (١٨٠٨ـ١٨٧٣) يحكم فرنسا منذ ١٨٥٢، باسم نابليون الثالث. في ١٨٥٦، وُقعت معاهدة باريس، التي أنهت حرب القرم. وفي ١٨٥٧، وقعت أزمة مالية فادحة في فرنسا. وحملة فرنسية إنجليزية في الصين.



جين دوڤال، رسم بودلير



المحامي آنسيل



جين دوڤال، رسم بودلير



السيدة ساباتييه

وفي الآداب، وفاة هنريش هايني. وفاة المغني بيرانجيه، وألفريد دي موسيه، وأوجست كونت.

ألفريد دي ڤيني يعيش معتزلاً العالم، ويكمل الأجزاء الأخيرة من «**الأقدار**». ڤيكتور هوجو ـ المنفِي في جورنيسي ـ ينشر، عام ١٨٥٦، «**تأملات**»، ويجهز الجزء الأول من «**أسطورة القرون**» (١٨٥٩). تيودور دي بانڤيل ينشر «**قصائد غنائية صغيرة**» عام ١٨٥٦، و«**أناشيد**» في ١٨٥٧ لوكونت دي ليل يقدم ـ عام ١٨٥٨ـ الطبعة الثالثة من «**قصائد**» قديمة. ينشر فلوبير ـ في ١٨٥٧ـ «**السيدة بوڤاري**». المؤرخ ميشليه يعكف على «**تاريخ عصر النهضة والأزمان الحديثة**» (١٨٥٥ـ١٨٦٧)، ويكتب «**الطائر**» (١٨٥٦)، و«**الحشرة**» (١٨٥٧).

في الفنون: عام ١٨٥٧، يدخل ديلاكروا المجمع؛ ويعمل بكنيسة «سانت ـ آنج». كورو يعرض لوحة «**حفل موسيقي ريفي**»؛ وكوربيه ـ الذي رسم عام ١٨٥٥ «**ورشة العمل**» التي يظهر فيها بودلير ـ يعرض «**الآنسات على شاطئ السين**». بدايات الرَّسَّام والحفَّار ويستلر في باريس، حيث سيحظى برعاية بودلير.

بناء القاعات المركزية لباريس من ١٨٥٤ إلى ١٨٦٦ تنظيم جديد لباريس على يد الحاكم هوسمان. برليوز يكتب أوبرا «**الطرواديون**» من ١٨٥٥ إلى ١٨٦٣ . وجونو سيحقق انتصارًا كبيرًا في الأوبرا بـ«**فاوست**» ١٨٥٨

٤ فبراير؛ تسليم مخطوط «**أزهار الشر**» إلى بوليه ـ مالاسي عبر مراسله الباريسي؛ حيث يقيم مالاسي في ألنسون التي يدير فيها مطبعة عائلية بمشاركة دي برواز.

مارس؛ نشر الجزء الثاني من ترجمته لبو تحت عنوان «**حكايات عجيبة جديدة**». والنسخة تباع بفرنك واحد.

٢٠ أبريل؛ «لا روڤي فرانسيز» (La Revue Française) تنشر عددا من القصائد التي ستظهر لاحقا في «**أزهار الشر**».

٢٨ أبريل؛ الجنرال أوپيك يتوفى في مسكنه. يتقدم بودلير جنازة الجنرال،

سفير فرنسا وعضو مجلس الشيوخ، وخلفه ممثل الإمبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ وبقية المشيعين. ولم يترك الجنرال لزوجته سوى دخل سنوي محدود، لتوافق الحكومة ـ بطلب منها ـ على تقديم منحة سنوية لها قدرها ٦ آلاف فرنك.

١٠ مايو؛ «لارتيست» تنشر قصائد من «**أزهار الشر**» الذي يجري طبعه.

٢٥ يونيو؛ صدور «**أزهار الشر**»، في ١٣٠٠ نسخة، ويباع بثلاثة فرنكات للنسخة.

٥ يوليو؛ تعود «لو فيجارو» إلى شن الهجوم على بودلير، وتدعو إلى ملاحقة الديوان قضائيا. وفيها يكتب جوستاف بوردان عن «**أزهار الشر**»:

«لم يشهد المرء أبدًا إهدارًا ـ بمثل هذا الجنون ـ لمثل هذه القدرات الرفيعة. فثمة لحظات يتشكك المرء فيها بالحالة العقلية للسيد بودلير؛ ولحظات أخرى لا يعتري المرء فيها أي شك: إنه، في معظم الأوقات، التكرار الرتيب والعمدي للألفاظ نفسها، وللأفكار نفسها.. والقبيح في ذلك يقترن بالدنيء؛ والمنفِّر في ذلك يبلغ النتِن. فلم ير المرء قَضْمًا قطّ بل مضغًا، لكل هذه الأثداء في مثل هذه الصفحات القليلة؛ أبدًا لم يشهد المرء استعراضًا مماثلاً للشياطين، والأجنَّة، والأبالسة، واليرقان، والقطط والهوام.

فهذا الكتاب مستشفى مفتوحة لكل العاهات العقلية، وكل انحلالات القلب؛ وليت ذلك كان من أجل علاجها، لكنها مستعصية.

وكان ممكنًا فهم أن خيال شاعر في الثانية والعشرين من عمره قد انساق إلى مثل هذه الموضوعات، لكن لا يمكن أبدًا التماس العذر لرجل تجاوز الثلاثين من عمره على نشره كتابا يحمل مثل هذه الفظاعات».

يكتب إلى أمه: «إني سعيد تقريبًا لأول مرة في حياتي. فالكتاب جيدٌ تقريبًا، ولسوف يبقى، هذا الكتاب، شهادةً على قرفي وحقدي على سائر الأشياء».

٧ يوليو؛ يتم تقديم بودلير وناشريه ـ بوليه ـ مالاسي ودبرواز ـ إلى المحاكمة بتهمة انتهاك الأخلاق العامة. وتطالب النيابة العامة بحذف ١٠ قصائدَ، ست

منها بحجة إهانة الأخلاق العامة: الجواهر، ليثيه، إلى تلك المبتهجة للغاية، ليسبوس، نساء ملعونات، تحولات مصاصة الدماء؛ وأربع بحجة إهانة الأخلاق المسيحية: إنكار سان بيير، هابيل وقابيل، ابتهالات الشيطان، خمر القاتل.

١١ يوليو؛ بودلير يكتب إلى بوليه ـ مالاسي لينبهه إلى المصادرة الوشيكة لنسخ «**أزهار الشر**»: «أسرع، فلتخبئ، لكن فلتخبئ جيدًا، كل الطَّبعة؛ [...] فلتبق فحسب على ٥٠ نسخة لتغذية الحارس الشرس، **العدالة**..»

١٤ يوليو؛ إدوار تييري ينشر مقالاً في «لومونيتور» (Le Moniteur) يخصصه لمديح ديوان بودلير. يلجأ سانت ـ بيف إلى التزام الصمت الكامل، ولا يخط حرفًا لصالح بودلير، على الرغم من مكانته المؤثرة وعلاقته الوطيدة بالشاعر.

١٨ أغسطس؛ للمرة الأولى، يكتب بودلير إلى السيدة ساباتييه رسالة بتوقيعه الشخصي، يرجو فيها تدخلها إلى جانبه بحكم علاقاتها ببعض الشخصيات الهامة: «كانت الإمبراطورة تقف إلى جانب فلوبير. وأنا بحاجة إلى امرأة»؛ ويعترف لها «كل القصائد الواردة بين صفحتي ٨٤ و١٠٥ (في الديوان المصادر) تتعلق بك».

٢٠ أغسطس؛ بعد مرافعة ممثل النائب العام إرنست بينار (الذي سبق أن ترافع ـ كممثل للادعاء ـ ضد «**السيدة بوڤاري**» لفلوبير، في بداية العام نفسه)، ودفاع المحامي شيه ديستانج، تقضي محكمة الجنح بأن بودلير وناشريه «**مذنبون**».. وتغريم بودلير ٣٠٠ فرنك، وكل من الناشرين ١٠٠ فرنك، مع حذف ٦ قصائدَ من تلك المذكورة في عريضة الاتهام (**ليسبوس، نساء ملعونات، ليثيه، إلى تلك المبتهجة للغاية، الجواهر، تحولات مصَّاصة الدماء**).

٢٤ أغسطس؛ بعنوان «**قصائد ليلية**»، تنشر «لو بريزو» (Le Présent) ست «قصائد نثر قصيرة» لبودلير.

٣٠ أغسطس؛ من دي جيرنيسي هوجو يكتب إلى بودلير: «أزهارك تشع

وتتألق كالنجوم.. ولسوف تتلقى أحد الأوسمة النادرة التي يمنحها النظام الحقيقي.. وما يقال من أن القضاء قد أدانك باسم ما يقال إنه الأخلاق لهو إكليل إضافي لك».

٣١ أغسطس؛ في فندق صغير بشارع روسو الضيق، تأتي إليه ساباتييه بلا ورقة توت. ويعجز بودلير عن تحويل العلاقة الخيالية، الأفلاطونية، إلى علاقة جنسية. يكتب لها: «قلتُ لك بالأمس «ستنسينني، ستخونينني؛ فمَن يُمتعُكِ سيضجرُك. [...] فمنذ بضعة أيام، كنت إلهةً، وهو ما كان مريحًا للغاية، ما كان جميلاً للغاية، ما كان منيعًا. وها أنت الآن امرأة...». وستظل علاقته بها ـ فيما بعد ـ في حدود الصداقة.

١ و١٥ أكتوبر؛ تنشر «لو بريزو» مقالات بودلير التي تحمل عنوان «**بعض رسامي الكاريكاتير الفرنسيين والأجانب**».

١٨ أكتوبر؛ ينشر في «لارتيست» دراسته عن فلوبير و«**السيدة بوڤاري**».

٦ نوفمبر؛ بودلير يكتب إلى الإمبراطورة يلتمس منها تخفيض الغرامة التي حكم عليه بها بسبب «**أزهار الشر**».

١٥ نوفمبر؛ «لو بريزو» تنشر قصائد جديدة لبودلير، ستجد مكانها من بعد في الطبعتين الثانية والثالثة من «**أزهار الشر**».

٣١ ديسمبر؛ بودلير يلتمس معونة مالية من وزير المعارف العمومية.

يكتب إلى أمه: «يأس عظيم وإحساس لا يُطاق بالعزلة، وخوف أبدي من كارثة غامضة، وشكٌّ كامل بقواي، وانعدام تام للرغبات، واستحالة العثور على أية تسلية. إن النجاح الغريب الذي لقيه كتابي وما أثاره من أحقاد قد أثارت اهتمامي برهة من الزمن، ثم عدت فسقطت بعد ذلك.. ولا شك أنني عندما أتذكر أني تعرضت من قبل لحالات مماثلة ونهضت منها فإني لا أقلق كثيرًا؛ لكني لا أتذكر أيضًا أني تدهورت أبدًا إلى هذه الدرجة، وتجرجرت مثل هذا الزمن الطويل في الضجر».

جوستاف فلوبير: **السيدة بوڤاري**. ج. كوربيه: لوحة «**الآنسات على شاطئ**

السين». كورو: لوحة «**حفل موسيقي ريفي**». ڤاجنر يؤلف ـ في فينيسيا ـ «**تريستان وإيزولده**».

خضوع منطقة القبائل الجزائرية للقوات الفرنسية. انتفاضة في الهند ضد الإنجليز.

١٨٥٨: يناير؛ آلام في الساقين، يسير بصعوبة، اختناقات، ومتاعب في الهضم.

١٨ يناير؛ وزير المعارف العمومية يوافق على منح بودلير إعانة بمبلغ ١٠٠ فرنك، باعتباره مترجم «**حكايات عجيبة جديدة**».

٢٠ يناير؛ غرفة الجنح السادسة تقوم بتخفيض الغرامة المفروضة على مؤلف «**أزهار الشر**» إلى ٥٠ فرنكا، بعد رسالته إلى الإمبراطورة.

نهاية فبراير، بودلير يحتد على آنسيل، الوصي القضائي عليه، الذي تتصادم رقابته الرعناء مع كبرياء بودلير. أبلغ أمه بنيته إهانة آنسيل.

٢٠ مارس/ ٤ أو ٥ أبريل؛ بودلير يقيم في كوربي، لتصحيح مسودات الجزء الثالث من ترجمته لبو التي يصدرها ميشيل ليڤي في هذه المدينة.

نهاية أبريل؛ صدور ترجمة «**مغامرات آرثر جوردون بيم**» لبُو.

١٩ سبتمبر؛ «لارتيست» تنشر سوناتا «**مبارزة**».

٣٠ سبتمبر؛ «لا روڤي كونتومبرين» (La Revue contemporaine) تنشر دراسته عن الحشيش (الجزء الأول من «**الفراديس الاصطناعية**»).

نهاية أكتوبر، يقيم لدى جين دوڤال، التي لم تنقطع علاقته بها تمامًا، رغم العديد من القرارات بالقطيعة.

يكتب في ١٠ نوفمبر إلى كالون: «**أزهار الشر**» الجديدة بدأت (...). فالمحكمة لا تطلب إلا استبدال ست قصائد. ربما سأضع **عشرين**. والأساتذة المحتجون سيكتشفون بألم أنني كاثوليكيّ غير قابل للتقويم. وسأحاول أن أكون مفهومًا تمامًا: تارةً بالغ الهبوط وتارة بالغ السمُو. وبفضل هذا النهج،



جين دوڤال، حبيبة بودلير، من أعمال مانيه

LES

FLEURS DU MAL

CHARLES BAUDELAIRE



PARIS

POULET-MALASSIS ET DE BROISE

LIBRAIRES-ÉDITEURS

4, rue de Buci.

غلاف الطبعة الأولى من «أزهار الشر»



بوليه ـ مالاسي

سأستطيع الهبوط حتى العواطف المقززة. ولن يكون هناك سوى ذوي سوء النية المطلقة الذين لن يدركوا لاشخصانية شعري المقصودة».

١٨٥٩: في هذه الفترة، فيما يبدو، بدأ بودلير كتابة ملحوظات بهدف إصدار كتاب لن يكتمل، وستنشر شذراته ومقطوعاته، بعد وفاته، تحت عنواني «**صواريخ**» و«**قلبي عاريًا**».

٩ يناير؛ «لارتيست» تنشر مقالاً لبودلير عن مجموعة قصصية لشارل أسيلينو.

٢٠ يناير؛ «لا روڤي فرانسيز» (La Revue Française) تنشر قصيدتين لبودلير («**الممسوس**» و«**مذاق العدم**»).

فبراير؛ وزير المعارف العمومية يوافق على منح بودلير «مكافأة» جديدة على ترجمته «**حكايات عجيبة جديدة**» لبو.

٢٣ فبراير؛ من أونفلير-التي يقيم فيها الآن-يرسل إلى مكسيم دي كام قصيدة «**الرحلة**» التي يهديها إليه، والتي ستظهر في الطبعة الثانية من «**أزهار الشر**».

١٠-١٢ مارس؛ ترجمة جديدة لبو تنشر في «لا روڤي فرانسيز».

١٣ مارس؛ «لارتيست» تنشر دراسته عن **تيوفيل جوتييه**.

١٥ مارس؛ «لا روڤي كونتومبرين» تنشر قصيدته «**رقصة جنائزية**».

٥ أبريل؛ جين دوڤال تصاب بالشلل، وتنقل إلى المصحة. ويتولى بودلير تدبير نفقاتها العلاجية.

١٠ أبريل؛ ثلاث قصائد تنشر في «لا روڤي فرانسيز» (**سيزينيا، الرحلة، طائر القطرس**).

٢٠ أبريل؛ «لا روڤي فرانسيز» تنشر ترجمة أخرى لبو.

١٩ مايو؛ جين دوڤال تخرج من المصحة.

٢٠ مايو؛ «لا روڤي فرانسيز» تنشر قصيدة «**خصلة الشَّعر**».

١٠ يونيو/ ٢٠ يوليو؛ بالمجلة نفسها، بودلير ينشر «**رسالة عن صالون ١٨٥٩**».

سبتمبر؛ «لا روڤي انترناسيونال» (La Revue internationale) تنشر قصيدتي «**الشيوخ السبعة**» و«**العجائز القصيرات**».

أكتوبر؛ «لا روڤي إنترناسيونال» ـ التي تصدر شهريًّا من جنيف ـ تبدأ في نشر ترجمة جديدة قام بها بودلير لأحد أعمال بو: **إيوريكا** (Eureka)، وسيتواصل النشر حتى يناير ١٨٦٠

نوفمبر- يوليو؛ الناشر بوليه ـ مالاسي ينشر، في كتيب، دراسة بودلير عن تيوفيل جوتييه، مسبوقة برسالة من ڤيكتور هوجو أشاد فيها بشاعر «**أزهار الشر**» لأنه خلق «رعشة جديدة» في الشعر الفرنسيّ.

٣٠ نوفمبر؛ ثلاث قصائد لبودلير تنشر في «لا روڤي كونتومبرين» («**القناع**»، و«**أنشودة الخريف**»، و«**سوناتا الخريف**»).

ڤيكتور هوجو: **أسطورة القرون** (الحلقة الأولى). داروين: **أصل الأنواع**. جونو: **فاوست**.

حفر قناة السويس.

١٨٦٠: **١ يناير**؛ بودلير وبوليه ـ مالاسي يوقعان عقدًا بنشر أربعة أعمال (طبعة جديدة من «**أزهار الشر**»، و«**الفراديس الاصطناعية**»، و«**طرائف جمالية**»، وكتاب من الملاحظات الأدبية)، على أن يطبع من كل عمل ١٥٠٠ نسخة مقابل ٣٠٠ فرنك للمؤلف عن كل كتاب، يُدفع نصفها مع تسليم المخطوط إلى الناشر، والنصف الآخر مع التوقيع على أمر الطباعة.

١٥ـ ٣١ يناير؛ «لا روڤي كونتومبرين» تنشر مقال بودلير «**مدمن أفيون**» (الجزء الثاني من «**الفراديس الاصطناعية**»).

٧ فبراير؛ إعانة جديدة لبودلير بمبلغ ٣٠٠ فرنك من وزير المعارف العمومية عن مقالاّته عن الفن.

١٧ فبراير؛ يكتب إلى ڤاجنر ـ بعد حضوره عددًا من حفلاته بباريس قدمت خلالها «تانهاوزر» و«لوينجرين» ـ ليعرب له عن «أعظم متعة موسيقية أحس بها على وجه الإطلاق».

مايو؛ صدور «**الفراديس الاصطناعية**» في ١٢٠٠ نسخة بدلاً من ١٥٠٠ نسخة، المنصوص عليها في العقد مع بوليه ـ مالاسي.

١٥ مايو؛ «لا روڤي كونتومبرين» تنشر ٥ قصائد لبودلير.

١٥ أكتوبر؛ «لارتيست» تنشر ٨ قصائد لبودلير («**كيمياء الألم**»، «**رعب متعاطف**»، «**ساعة الحائط**»، «**العميان**»، «**إلى عابرة**»، «**طيف**»، «**أغنية الأصيل**»، «**ترنيمة إلى الجمال**»).

١٥ نوفمبر؛ وزير المعارف العمومية يوافق لبودلير على «إعانة أدبية» بمبلغ ٢٠٠ فرنك.

هيبوليت تين: **لافونتين وخرافاته**. إ. لابيش: **رحلة السيد بيريشون**. بيرتوليه: **كيمياء عضوية**.

لينكولن رئيسًا للولايات المتحدة.

١٨٦١: **بداية فبراير**؛ صدور الطبعة الثانية من «**أزهار الشر**» في ١٥٠٠ نسخة، بدون القصائد الممنوعة، وبإضافة ٣٥ قصيدة جديدة، وبمبلغ ٣ فرنكات للنسخة.

في مارس، يكتب إلى بوليه ـ مالاسي: «منذ أمد بعيد وأنا أقف على حافة الانتحار. وما يمنعني هو سبب بعيد عن الجُبن وحتى عن الأسف. إنها الكبرياء التي تمنعني من أن أترك قضايا معقدةً لم تُحل بعد. ولسوف أترك ما يكفي لتسديد الديون... وأنت تعرف أني لستُ بَكَّاءً ولا كاذبًا. لكني وقعت منذ شهرين بشكل خاص في بلادة ويأس يبعثان على القلق. أحسست بنفسي مصابًا بنوع من المرض على غرار جيرار (دي نرڤال)، وهو الخوف من عجزي من الآن فصاعدًا عن التفكير أو كتابة سطر واحد. ومنذ أربعة أو خمسة أيام فقط توصلت إلى التحقق من أنني لم أمت من هذه الناحية. وذلك أمر عظيم».

ويكتب إلى أمه: « آه، يا أمي العزيزة، أَثمّةَ وقت بعدُ للسعادة؟ لا أجرؤ على تصديق ذلك؛ أربعون سنة، ومجلس وصاية، وديون ضخمة، وأخيرًا ـ وذلك أسوأ شيء ـ إرادة ضائعة مفسدة. من يدري ما إذا كان الفكر نفسه قد فسد؟ لا أدري شيئًا، ولا أستطيع أن أدري بعد الآن، ما دمت قد فقدت حتى القدرة على الجهد (...) إذا ما كان ثمة رجل قد عرف، وهو شاب، السأم وروح التشاؤم، فذلك الرجل هو أنا بالتأكيد. ومع ذلك فلديَّ رغبة في الحياة، وأريد أن أعرف الأمان قليلاً، والمجد، والرِّضَا الذاتي. لكن ثمة شيئًا رهيبًا يقول لي: أبدًا؛ ومع ذلك، فثمة شيء آخر يقول لي: جَرِّب». لكنه لم يجد الجرأة الكافية على إرسال الرسالة، لتبقى في أوراقه.

١ أبريل؛ «لا روڤي أوروبيين» (La Revue européenne) تنشر دراسة هامة لبودلير عن **ڤاجنر**، ثم تنشر ـ في مايو ـ له «**ريتشارد ڤاجنر** و«**تانهاوزر**» **في باريس**».

٣ أبريل؛ الكونت والڤسكي، وزير الدولة، يوافق لبودلير على إعانة بمبلغ ٣٠٠ فرنك.

أبريل ـ مايو؛ الوضع المالي لبودلير في غاية الصعوبة، وحالته النفسية في الحضيض، وتفكير في الانتحار.

يكتب إلى أمه، في ٦ مايو: «أنا موجودٌ أبدًا، دون أن تشُكِّي في ذلك، على حافة الانتحار (...) نحن مقدر علينا بكل تأكيد أن يحب بعضنا بعضًا، أن نعيش الواحد للآخر.. ومع ذلك، ففي ظل هذه الظروف الرهيبة التي أقع حاليا تحت وطأتها، تواتيني القناعة بأن أحدنا سيقتل الآخر، وأننا سنقتل بعضنا بعضًا في نهاية المطاف.. إني وحيد، دون أصدقاء، ودون عشيقة، ودون كلب أو قط. فلمن أشكو أمري؟ ليست لديَّ سوى صورة أبي الأخرس أبدًا»

١٥ يونيو؛ «لا روڤي فانتايزيست» (La Revue fantaisiste) تبدأ في نشر سلسلة من ملاحظات بودلير التي تستهدف تكوين أنطولوجيا شعرية، تحت

عنوان «**تأملات في بعض المعاصرين لي**»، تخصص الحلقة الأولى لڤيكتور هوجو.

يوليو؛ بودلير يقرر ترشيح نفسه للأكاديمية الفرنسية.

يوليو - أغسطس؛ «لا روڤي فانتايزيست» تنشر مقالات بودلير عن ثمانية شعراء معاصرين، من بينهم جوتييه وهوجو ولوكونت دي ليل وبانڤيل.

١٥ سبتمبر؛ «لا روڤي أوروبيين» تنشر ٤ قصائد لبودلير، و«لا روڤي فانتايزيست» تنشر مقاله عن الرسوم الجدارية لديلاكروا.

١٥ أكتوبر، «لا روڤي فانتايزيست» تنشر مقالاً له عن «الشهداء الحمقى» لليون كلاديل.

١ نوفمبر؛ «لا روڤي فانتايزيست» تنشر ٩ قصائد نثر لبودلير.

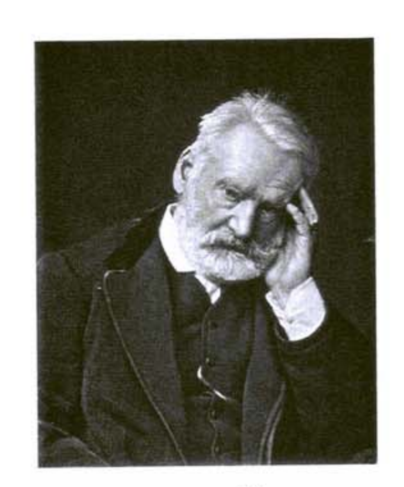
١١ ديسمبر؛ بودلير يخبر السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية بترشحه لشغل أحد المقاعد الشاغرة، طمعًا في احتلال كرسي لاكوردير المتوفى حديثا. حاول سانت - بيف وموسيه إقناعه بالعدول عن الفكرة. ويقوم بزيارات تقليدية قبل نهاية العام إلى ڤيني ولامارتين وفيينيه وفيلمان وباتان.

الأخوان جونكور: **الأخت فيلومين**. تنازلات محدودة من نابليون الثالث للمجلس التشريعي.

١٨٦٢ : **النصف الثاني من يناير**؛ بودلير ينشر مقالاً بدون توقيع في «روڤي أنيكدوتيك» (Revue anecdotique) بعنوان «إصلاح الأكاديمية».

في الفترة نفسها تقريبًا، بودلير يكتشف «واقعة بشعة»، لا يريد البوح بها لأحد. والاحتمال الأقرب إلى الواقع أنه اكتشف أن الشقيق المزعوم الذي يعيش مع جين دوڤال ليس سوى «حبيب القلب».

٢٣ يناير؛ بودلير يكتب في مذكراته: «لقد غذيت هيستيريتي بالبهجة والرعب. واليوم، خضعت لإنذار فريد، أحسست بريح جناح الحماقة تمر عليَّ».



فيكتور هوجو



فيرلين

١ مارس؛ «لارتيست» تنشر العديد من قصائد بودلير.

٢٠ أبريل؛ بودلير ينشر في «لو بولڤار» (Le boulevard) مقالاً عن «البؤساء» لڤيكتور هوجو.

بداية أغسطس؛ صدور الجزء الرابع من «شعراء فرنسيون» ليوجين كريبيه، وفيه سبع مقالات قصيرة لبودلير وسبع قصائد له مصحوبة بمقال لجوتييه.

١٢ سبتمبر: يتم القبض على بوليه ـ مالاسي، ناشر «أزهار الشر» لعجزه عن تسديد ديونه، فيلجأ فيما بعد إلى بلجيكا.

٢٦ أغسطس ـ ٢٤ سبتمبر؛ «لابريس» (La presse) تنشر عشرين «قصيدة نثر قصيرة» لبودلير (من بينها ١٤ قصيدة جديدة).

لوكونت دي ليل: **قصائد بربرية**. ڤيكتور هوجو: **البؤساء**. دورانتي: **قضية جيوم الجميل**. ڤيِّي دي ليل ـ آدام: **إيزيس**. فوكو يقيس سرعة الضوء.

حملة المكسيك. محاولة غاريبالدي ضد روما. بسمارك يصبح رئيس الحكومة.

١٨٦٣: **١٣ يناير**؛ بودلير يمنح الناشر هيتزيل الحق الحصري- ولمدة خمس سنوات ـ لكتاب شعري (طبعة ثالثة، مزيدة أيضًا، من «**أزهار الشر**»)، وديوان من قصائد النثر (**سأم باريس**). يقضي العقد بأن يتم طبع ألفي نسخة من كل منهما؛ على أن ينال المؤلف ـ عن كل كتاب ـ ٦٠٠ فرنك يتسلمها لدى توقيع العقد (لكن هيتزل لا يتسلم أبدًا العملين).

١ نوفمبر؛ ميشيل ليڤي يحصل ـ مقابل ألفي فرنك ـ على الحقوق الكاملة لترجمات بودلير لأعمال إدجار آلان بو (ثلاثة أجزاء منشورة، وجزءان على وشك الصدور).

قصائد النثر تُنشر في عدد من الصحف والمجلات على مدى العام.

يكتب إلى أمه، بخصوص «**قلبي عاريًا**» الذي ما يزال مشروعًا تحت التنفيذ: «إيه حسنًا! نعم، هذا الكتاب الذي حلمتُ كثيرًا به سيكون كتابًا من الأحقاد. (...) إنني أريد أن أدفع إلى الإحساس بلا هوادة بأني أشعر كغريب على

العالم ومعتقداته. سأوجه ضد **فرنسا كلها** موهبتي الحقيقية في التضارب. إنني بحاجة إلى الانتقام مثلما يكون الرجل المُرهق بحاجة إلى استحمام».

١٨٦٤: ٧ ـ ١٤ فبراير؛ الفيجارو تبدأ نشر «**سأم باريس**»، لكنها تقطع النشر بعد ٦ قصائد. كتبرير لذلك، مدير الصحيفة يخبر بودلير أن قصائده قد «أصابت العالم كله بالسأم».

٢٤ أبريل؛ يتوجه بودلير إلى بروكسيل، لإلقاء سلسلة من المحاضرات.

٢ ـ ٢٣ مايو؛ يقدم ٥ محاضرات للوسط الأدبي والفنيِّ عن ديلاكروا وجوتييه والمنبهات. لا حضور في المحاضرات الثلاث الأولى، بما يدفع إدارة «حلقة الفنون»، صاحبة الدعوة، إلى وقف السلسلة وإرسال مائة فرنك إليه بدلاً من ثلاثمائة.

١٢ مايو؛ «عزيزي مانيه، أشكرك على رسالتك الودودة. فلتقدم محبتي إلى أمك وزوجتك، وإذا ما كان لك أن تبلغَني بأشياء طيبة عن مصير لوحاتك، فلتكتب لي. إنني أرد على تهانيك. البلجيكيون أغبياء، كذَبَة ولصوص. لقد كنتُ ضحيةً للخداع الأكثر وقاحة. هنا، الغِش هو قاعدة ولا يُشِينُ أبدًا. إنني لم أتصدَّ بعدُ للمسألة الكبيرة التي جئتُ من أجلها، لكن كل ما يحدث لي هو شؤمٌ تمامًا، ـ [...] لا تصدق أبدًا ما سيُقال لك عن طيبة القلب البلجيكية. مكيدة، ريبة، حفاوة زائفة، فظاظة، احتيال، نعم...»

نهاية مايو؛ رحلة خاطفة إلى نامور البلجيكية، لمقابلة فنان الحفر فيليسيان روب.

٢٣ يونيو؛ الناشران لاكروا وفيربويشهوفين ـ المقيمان في بروكسيل ـ يرفضان الأعمال التي اقترحها عليهما بودلير.

أغسطس؛ يقوم بجولة لزيارة المدن الكبرى البلجيكية لتوثيق كتابه «**بلجيكا البائسة!**».

بداية ديسمبر؛ يقيم لدى روب في مدينة نامور.

ألفريد دي ڤيني: **الأقدار** (بعد الوفاة). أ.رودان: **الرجل ذو الأنف المكسورة**.

ماكسيميليان إمبراطورا على المكسيك. تأسيس الأممية. حرب بروسية ضد الدانمرك.

١٨٦٥: **يناير؛** «لو موند الليستريه» (Le Monde illustré) تنشر ترجمة بودلير لعمل بو «**نظام الدكتور جودرون والأستاذ بليم**»، لكن الحقوق المالية تئول إلى ميشيل ليڤي الذي سبق أن اشترى جميع حقوق ترجماته لبو.

٣ يناير؛ «أمي العزيزة، لستُ بحاجة إلى أُبهة هذا اليوم، بالغ الكآبة وسط كل أيام السنة، كي أفكر فيك، وأفكر في واجباتي وكل المسئوليات التي راكمتُها على نفسي منذ أعوام كثيرة. واجبي الرئيس، بل الوحيد، سيكون أن أجعلك سعيدة. إنني أفكر في ذلك بلا انتهاء. ألن يكون ذلك مسموحًا لي؟ أُفكر أحيانًا، برعشة، أن الله يمكنه أن يسترد مني فجأةً هذه الإمكانية. إنني أعدُكِ أولاً بأن هذه السنة... إنني أتضرج خجلاً عندما أفكر في كل المُخصصات التي فرضتُها عليك. أعدكِ أيضًا أنه لن يمر يوم في السنة بلا عمل. بالتأكيد، لا بد للمكافأة أن تكون في النهاية. فلديَّ العقل المفعم بأفكار كئيبة. وكم هو صعب أن يقوم المرء بواجبه طول الوقت، بلا أي انقطاع! كم هو صعب، لا التفكير في كتاب، بل الكتابة بلا إعياء؛ وفي النهاية، امتلاك الشجاعة، طول الوقت! لقد حسبتُ أن كل ما كان لديَّ في رأسي ـ منذ وقت طويل ـ لن يكبدني سوى خمسة عشر شهرًا من العمل، فيما لو عملتُ بدأب. كم مرة قلتُ لنفسي، على الرغم من أعصابي، على الرغم من الأوقات السيئة، على الرغم من الدائنين، على الرغم من الضجر والوحدة؛ فلنَرَ، فلأتشجع...! والنتيجة المثمرة ربما ستأتي... كم مرة منحني الله بالفعل رصيد خمسة عشر شهرًا! وعلى الرغم من ذلك، فكثيرًا ما قطعتُ، كثيرًا جدًّا، حتى الآن، تنفيذ كل مشروعاتي. فهل سيكون لديَّ الوقت (بافتراض أنني سأمتلك الشجاعة) لإصلاح كل ما ينبغي عليَّ إصلاحه! لو كنتُ متأكدًا، على الأقل، من امتلاكي لخمس أو ست سنوات أمامي! لكن مَن على يقين من ذلك؟ هناك، بالنسبة لي الآن، فكرة ثابتة، هي فكرة الموت، غير المصحوبة برعب ساذج، ـ لقد عانيتُ كثيرًا حتى الآن، وتم عقابي كثيرًا إلى حد أني أعتقد أن كثيرًا من

الأشياء يمكنها أن تكون غفرانًا لي، لكنه على الرغم من ذلك مقيت، لأنه سيحيل كل مشروعاتي إلى عدم، ولأنني لم أُنفذ بعد ثُلث ما عليَّ أن أفعله في هذا العالم. لقد تنبأت بلا شك برعبي من عبور باريس بلا نقود، من البقاء في باريس، جحيمي، ستة أو سبعة أيام وحيدًا، دون تقديم ضمانات معينة إلى بعض الدائنين. لقد علمني منفاي عبور كل الأخطاء الممكنة. تنقصني الطاقة الضرورية للعمل غير المنقطع. وعندما أتوفر عليها، سأكون فخورًا وأكثر سكينة. عندي أمل طيب. وتعرفين كل ما سأنشر. وا أسفاه! كم من أشياء متأخرة!...»

١ فبراير؛ شاعر شاب، ستيفان مالارميه، ينشر في «لارتيست» «سيمفونية أدبية» تكرس ـ في جانب منها ـ لبودلير.

منتصف مارس، ميشيل ليڤي يصدر الجزء الخامس من أعمال بو، من ترجمة بودلير: «**حكايات ساخرة وجادة**».

٤ ـ ١٥ يوليو؛ العودة إلى باريس من بروكسيل، بعد عام من الغياب عن باريس.

أكتوبر؛ بودلير يرثي لحالته «الخاملة» التي تدفعه إلى التشكك في قدراته. فمنذ ١٤ شهرًا، لم يستطع إنجاز أي عمل مما كان قد وعد بتسليمه.

نوفمبر ـ ديسمبر؛ بول ڤيرلين ينشر في «لار» (L'Art) مديحا لبودلير.

ديسمبر؛ آلام عصبية عنيفة، أفيون، وغيره.

١٨٦٦: يناير؛ حالات دوار، وآلام عصبية، وغثيان. وكيله الأدبي ـ المسئول عن التفاوض بخصوص أعماله ـ لا يحقق أي شيء. بودلير يطلب من الوصي القضائي آنسيل أن يتصل باسمه بناشرين مختلفين.

٥ مارس؛ بعد معرفته متأخرًا بالمدائح التي وجهها إليه الشبان غير المعروفين، مالارميه وڤيرلين، يكتب بودلير إلى جول تروبا، سكرتير سانت ـ بيف: «هؤلاء الشبان يبثون فيَّ الخوف من الكلاب. لا أحب سوى البقاء وحيدًا».

١٥ مارس؛ يتوجه إلى نامور بصحبة روب وبوليه ـ مالاسي. في اليوم التالي،

تظهر عليه متاعب في المخ. يصطحبه صديقاه إلى بروكسيل؛ يصاب جانبه الأيمن بالشلل، ويصبح حديثه صعبا ومشتتا.

٢٠ مارس؛ الرسالة الأخيرة بخط يد بودلير.

٣١ مارس؛ تحت عنوان «**أزهار الشر** الجديدة»، تنشر «بارناس كونتومبوران» (Parnasse contemporain) ١٦ قصيدة جديدة لبودلير، تالية للطبعة الثانية من «**أزهار الشر**».

٣ ـ ١٩ أبريل؛ العجز عن الكلام والتعبير يتزايد. بودلير يعالج في مصحة ببروكسيل. يقوم بزيارته الوصي القضائي آنسيل وأمه التي تبلغ الثانية والسبعين.

نهاية أبريل ـ يونيو؛ ينتقل إلى فندق جراند ميروار، ويداوم على زيارته بوليه ـ مالاسي والرسام جوزيف ستيفنس. بوليه ـ مالاسي يقوم بنشر كتيب شعري لبودلير في بروكسيل، تحت عنوان «**البقايا**» في ٢٦٠ نسخة، فيما كان بودلير ما يزال قادرا على تصحيح مسودات الطباعة. الكتيب يضم ٢٣ قصيدة، من بينها القصائد الست المدانة عام ١٨٥٧ الغلاف من رسم روب، وبودلير «تتملكه فرحة الأطفال لرؤيته الكتيب».

٢ يوليو؛ بودلير يغادر بروكسيل إلى باريس في صحبة أمه وخادمتها والرسام جوزيف ستيفنس.

٤ يوليو؛ بعد قضاء يومين في الفندق، يتم نقل بودلير إلى مصحة الدكتور إيميل دوڤال للعلاج بالماء.

الصيف؛ بناء على عريضة بادر بها أسيلينيو ووقعها بانڤيل وشامفلوري ولوكونت دي ليل وميريميه وسانت ـ بيف وساندو، يوافق وزير المعارف العمومية على المشاركة في نفقات إقامة بودلير في مصحة دوڤال. زوجتا بول موريس وإدوار مانيه تأتيان لتعزفا له ألحان ڤاجنر على البيانو.

العدد الأول من «**البارناسي المعاصر**». ڤيرلين: **قصائد زحلية**. ڤيكتور هوجو: **عمال البحر**. دستويفسكي: **الجريمة والعقاب**.

هزيمة النمسا في موقعة سادوفا من بروسيا المتحالفة مع إيطاليا.

١٨٦٧: **٣١ أغسطس**؛ يتوفى بودلير في الحادية عشرة صباحًا، بعد عذاب طويل. في اليوم نفسه، تبدأ «روڤي ناسيونال» (Revue nationale) في نشر المجموعة الأخيرة من **قصائد نثر قصيرة**.

٣ سبتمبر؛ إقامة الطقوس الدينية، ودفنه في مقبرة مونبارناس. بانڤيل وآسيلينيو يلقيان كلمتين أمام قبره.

إميل زولا: **تيريز راكان**. كارل ماركس: **رأس المال**.

١٨٦٨: **٦ مايو**؛ محكمة الجنح بمدينة ليل تحكم على بوليه-مالاسي-ناشر «**البقايا**»- بالسجن عامًا، وغرامة ٥٠٠ فرنك، وتأمر بإتلاف النسخ المضبوطة من الكتيب المنشور في بلجيكا منذ عامين.

ديسمبر؛ ميشيل ليڤي يصدر الطبعة الأولى من «**طرائف جمالية**» والطبعة الثالثة من «**أزهار الشر**»، بمقدمة لتيوفيل جوتييه، وتضم ١٥١ قصيدة.

١٨٦٩: ميشيل ليڤي ينشر الطبعات الأولى من «**الفن الرومانتيكي**» و«**قصائد نثر قصيرة**». شارل آسيلينيو ينشر دراسة ممتازة في السيرة الذاتية والنقد: **شارل بودلير، حياته وعمله**.

١٩٤٩: **٣١ مايو**؛ إلغاء حكم الإدانة على «**أزهار الشر**» بصورة رسمية من محكمة فرنسية.

Ch. Baudelaire

توقيع بودلير

موقف بودليـر

بقلم بول ڤاليـري

بودلير في قمة مجده.

إن الكتاب الصغير، «أزهار الشر»، الذي لا يزيد عن ثلاثمائة صفحة، يفوق في القيمة، بالمعيار الأدبي، أكثر الأعمال ضخامةً وشُهرة. لقد تُرجم إلى غالبية اللغات الأوروبية. وهي حقيقة سأتوقف عندها برهةً، لأنها ـ فيما أعتقد ـ بلا سابقة في تاريخ الأدب الفرنسي.

فالشعراء الفرنسيون عمومًا محدودون في الشهرة والتقدير في الخارج. فنحن ـ بسهولة أكبر ـ رواد في النثر بالإجماع؛ لكن التفوق الشعري لا يُمنح لنا إلاَّ على مضض. إن النظام والتصلب اللذين هَيْمَنا على لغتنا منذ القرن السابع عشر، ونَبرَنا الفريد، وعَروضنا الصارم، ونزعتنا للبساطة والوضوح المباشر، وخوفنا من المغالاة والعبثية، كنوع من التواضع في تعبيرنا والنزعة المجردة لفكرنا، قد أفضت إلى شعر يختلف بصورة كبيرة عن شعر الأمم الأخرى، ويجعله صعبَ المنال بالنسبة لهم. فلافونتين يبدو بلا طَعم بالنسبة للأجانب. وراسين كتابٌ مغلق. وتناغماته مفرطة في البراعة، وحبكته مفرطة في النقاء، ولغته مفرطة في الأناقة، مفرطة في الامتلاء بالضوء والظل، حتى لتبدو بلا حيوية لمن لا يمتلك معرفةً حميمةً بلغتنا. بل إن ڤيكتور هوجو نفسه ليس معروفًا بالكاد في الخارج إلاَّ برواياته.

لكن مع بودلير، فإن الشعر الفرنسي يجتاز أخيرًا حدودنا. إنه يُقرأ عبر العالم؛

يحتل مكانه باعتباره الشعر المميِّز للحداثة؛ يشجع على التقليد، ويُثري أذهانًا فوق الحصر. فأشخاص مثل سوينبرن، وجابرييل دانونزو، وستيفان جورج ينطوون على شهادة رائعة على التأثير البودليري في البلدان الأجنبية.

ولهذا فيمكنني القولُ إنه بالرغم من احتمال وجود شعراء فرنسيين أعظم وأقوى موهبةً من بودلير، فلا أحد أهم منه.

فمِن أين تأتي هذه الأهمية الاستثنائية؟ كيف كان لرجل بالغ الفرادة، انفصل عن العادي إلى هذا الحد، أن يكون قادرًا على توليد مثل هذه الحركة واسعة الانتشار؟

هذه الشعبية العظيمة بعد الوفاة، هذا الثراء الروحي، هذا المجد الأسمَى، لا بد أنه لا يعتمد فحسب على قيمته الخاصة كشاعر، لكن أيضًا على ظروف استثنائية. فالذكاء النقدي المرتبط بالكفاءة الشعرية هي هذا الظرف. فبودلير مدينٌ لهذا التحالف النادر باكتشاف رئيسي. لقد وُلِد حسيًّا ومُدققًا؛ كان يتمتع بحساسية قادته ضروراتها إلى تحقيق أرهف التجارب الشكلية؛ لكن هذه المواهب كان لها أن تجعله غريمًا لجوتييه أو فنانًا باريسيًّا ممتازًا، إن لم يقُده فضوله العقلي إلى اكتشاف عالم ثقافيّ جديد في أعمال إدجار آلان بو. شيطان الاستبصار، عبقري التحليل ومبدع الأجَد، تلك التوليفات الأكثر إغواءً بين المنطق والخيال، بين الصوفية والحساب، والمحلل النفسي للاستثنائي، المهندس الأدبي الذي درس واستفاد من كل ينابيع الفن ـ لهذا تجلَّى بو له، وأفعمه بالإعجاب. رؤًى كثيرة أصيلة ووعود خارقة سحرته؛ بها تشكلت موهبته، وتغير بصورة رائعة مصيره.

وسأعود بعد قليل إلى تأثيرات هذا التماس السحريِّ بين عقلين. لكني الآن لا بد أن أتأمل الظرف الثاني اللافت للانتباه في تشكيل بودلير.

لقد بلغ الرجولةَ فيما كانت الرومانتيكية في ذروتها؛ جيل مبهر يهيمن على إمبراطورية الأدب. لامارتين، هوجو، موسِّيه، فيني كانوا سادة الوقت.

فلتضع نفسك في موقف شاب بلغ سِن الكتابة في ١٨٤٠ لقد تربَّى على الكُتاب الذين كانت غريزته تأمره ـ بصورة مستبدة ـ بأن يُزيلهم. ووجوده الأدبيّ الذي استُثِير

وتغذَّى عليهم، وارتعش من شهرتهم، وتحدد بأعمالهم، محكوم بالضرورة ـ على الرغم من ذلك ـ بنفيهم، بالإطاحة بهم، وإزاحة هؤلاء الأشخاص الذين بدوا له محتلين لكل المواقع الملائمة للشهرة ومنكرين له: الأول: عالم الأشكال. الثاني: عالم المشاعر. الثالث: التصويرية. الرابع، العُمق.

كانت القضية تكمن في تمييز نفسه بأي ثمن عن مجموعة من شعراء عظام جمَّعتهم ضربةُ مصادفةٍ ما ـ بصورة استثنائية ـ بكامل الفاعلية في الفترة نفسها.

لعل مشكلة بودلير آنئذ، ربما كان لا بد لها أن تتحدد هكذَا: «حتى تكون شاعرًا عظيمًا فينبغي ألاَّ تكون لامارتين ولا هوجو ولا موسِّيه». ولا أقول إن هذه الكلمات قد قيلت بصورة واعية، لكن الفكرة لا بد أنها وُجدت داخل بودلير. بل إنها بالضرورة هي بودلير. كانت «المصلحةَ العُليا» له. ففي مجالات الإبداع، وهي أيضًا مجالات الكبرياء، فإن الحاجة إلى تمايز المرء لا يمكن أن تنفصل عن الوجود ذاته. لقد كتب بودلير في مشروع مقدمته لأزهار الشر: «إن شعراء مشهورين تقاسموا منذ أمدٍ بعيد أكثر الأقاليم ازدهارًا في المجال الشعري. لقد بدا لي ذلك سارًّا، بل ممتعًا أكثر لأن المهمة كانت أصعب...»[1]

باختصار، فقد انقاد مجبرًا، بفعل حالته الروحية ومحيطها، بصورة متزايدة الوضوح، إلى معارضة النسق، أو غياب النسق، المسمَّى بالرومانتيكية.

ولن أحدد هذا المصطلح. فلمحاولة فعل ذلك سيكون من الضروري فقدان كل معنى للدقة. ومهمتي الحالية تكمن فحسب في إعادة صياغة ردود الفعل والحدوس الأكثر احتمالاً لدى شاعرنا «في حالة الميلاد»، عندما جُوبه بأدب عصره. ومنه تلقَّى بودلير انطباعًا معينًا يمكن لنا إعادة صياغته بلا عناءٍ كبير. حقًّا، فبفضل سياق الزمن والتطورات الأدبية الأخيرة ـ بل بفضل بودلير، بفضل عمله ونجاحه- فإننا نمتلك أدوات مؤكدة وبسيطة لتقديم تحديد صغير لفكرتنا الضبابية بالضرورة، المقبولة أحيانًا، والاعتباطية تمامًا أحيانًا أخرى، عن الرومانتيكية. يكمن هذا النهج في ملاحظة ما تلَى الرومانتيكية، وفيم اختلف، وصحح وتناقض معها، وفي النهاية احتل مكانها. ويكفي أن نتأمل الحركات والأعمال التي نتجت بعدها وضدها، وأيًّا

---

(١) راجعِ النُّصوص الكاملةَ لمشروعاتِ مقدمة «أزهار الشر» في قسم «الملاحق»، في نهاية هذا الكتاب.

منها كان استجابةً دقيقةً، آليةً، حتمية لما كانته. ولهذا، فقد اعتُبرت الرومانتيكية، آنئذٍ، ما ناقضته الطبيعية، وما جمَّعت البارناسية قواها ضده؛ كانت ما حدد نزعة بودلير الخاصة. لقد كانت هي التي حفزت ضد نفسها ـ في آنٍ واحدٍ غالبًا ـ إرادة الكمال، وصوفية «الفن للفن» ـ تلك الحاجة إلى الملاحظة والرصد غير الشخصي للأشياء؛ باختصار، **الرغبة في مادة أكثر صلادةً وشكل أكثر نقاءً ورهافة**. ولا شيء يلقي الضوء على الرومانتيكية أكثر من مجموع برامج ونزعات خلفائها.

أيمكن أن تكون مثالب الرومانتيكية هي فحسب التساهلات غير المنفصلة عن الثقة بالنفس؟... إن مراهقة الأشياء الجديدة هي دائمًا ـ إلى حدٍّ ما ـ مُدَّعِية. ولا تتبدَّى الحكمة، والدقة، وباختصار الكمال، إلاَّ عندما يتم الاقتصاد في القوة.

وأيًّا ما قد يكون ذلك، فقد بدأت مرحلة الشك مع شباب بودلير. كان جوتييه قد احتج فعلاً واتخذ رد فعل ضد رخاوة الشروط الشكلية، وفقر أو هلامية اللغة. وسرعان ما كان كل واحد بطريقته، سانت ـ بيف وفلوبير ولوكونت دي ليل، يشهر السلاح ضد السهولة مشبوبة العاطفة، والتنافر الأسلوبي، والإفراط في السذاجة والغرابة... لقد قَبِل البارناسيون والواقعيون بخسارة ما كسبوه في العمق، وفي الحقيقة، وفي القيمة التقنية والثقافية، من خلال الكثافة الظاهرية، والوفرة، والآلية الخطابية.

والخلاصة، فإنني سأقول إن حلول «مدارس» متنوعة محل الرومانتيكية يمكن اعتباره حلولاً للفعل التأملي محل العفوي.

إن النتاج الرومانتيكي ـ بصورة عامة ـ لا يساعد على قراءة بطيئة غير متعاطفة من قِبَل قارئ صعب ومثقف.

وبودلير كان هذا القارئ. كانت لبودلير المصلحة العظمَى ـ مصلحة حيوية ـ في التقاط، ولفت الانتباه، والمبالغة في نقاط ضعف وزَلاَّت الرومانتيكية التي تم رصدها عن كثب في أعمال وشخصيات رجالها العظام. **الرومانتيكية في أوجها**، كان يمكن أن يقول، **ولذا فهي قاتلة**؛ وكان قادرًا على اعتبارهم آلهة وأنصاف آلهة ذلك اليوم، على نحو ما كانت تنظر عيون تاليران وميترنيخ المتشككة، حوالي ١٨٩٧، إلى سادة العالم...

هكذا نظر بودلير إلى ڤيكتور هوجو، وليس من المستحيل أن نحدس ماذا كان يفكر فيه. كان هوجو مهيمنًا؛ لقد امتلك ـ فوق لامارتين ـ مزية مواد عمل أكثر قوة وتحديدًا

بصورة لانهائية. فالمدى الشاسع لمعجمه، وتنوع إيقاعاته، والغزارة المفرطة لصُوره، قد سحقت كل شعر غريم. لكن عمله أحيانًا ما قدم تنازلات إلى السوقي، وفقد نفسه في بلاغة نبوية ومناجيات لانهائية. تَعابث مع الجمهور، وانغمس في حوارات مع الله. وبساطة فلسفته، وتفاوت وتنافر السياقات، والتباينات الكثيرة بين أعاجيب التفصيلة وهشاشة الموضوع، وتنافر الكل ـ كل شيء، باختصار، الذي يمكن أن يصدم فيعلِّم بالتالي ويوجه مراقبًا شابًّا عديم الرحمة نحو فنه الشخصي المستقبلي ـ كل هذه الأشياء كان لبودلير أن يرصدها داخله، ويفصلها عن الإعجاب المفروض عليه بفعل مواهب هوجو السحرية، البذاءات، والوقاحات، والنقاط القابلة للطعن في عمله ـ أي إمكانات الحياة وفُرص الشهرة التي خلَّفها فنان عظيم ليتم التقاطها.

وببعض المكر وبراعة أكثر قليلاً من اللازم، فسوف يكون مغريًا أن نقارن شعر هوجو بشعر بودلير، بهدف تبيان كيف كان الأخير استكمالاً للأول. ولن أقول أكثر من ذلك. فمن الواضح أن بودلير كان يسعى إلى تحقيق ما لم يحققه هوجو؛ وأنه أحجم عن كل الفعاليات التي كان هوجو منيعًا فيها؛ وأنه عاد إلى عَروض أقل حريةً ومنقول بصورة مدققة من النثر؛ وأنه سعى، ودائمًا ما توصل في الغالب إلى سحر لا ينكسر، تلك القيمة عصية المنال وشبه المتعالية لبعض القصائد ـ لكنها القيمة التي لا نلقاها إلاَّ نادرًا، وقلَّما في حالتها الصافية، في العمل الضخم لهوجو.

وفضلاً عن ذلك، فلم يُدرك بودلير، أو أدرك بالكاد، ڤيكتور هوجو الأخير، مبدع الأخطاء القصوى والروائع الرفيعة. لقد صدرت «أسطورة القرون» بعد عامين من صدور «أزهار الشر». أما بالنسبة لأعمال هوجو الأخيرة، فلم تُنشر إلاَّ بعد وفاة بودلير بوقت طويل. وفيها تكمن أهميةٌ تقنيةٌ أرفع بصورة لانهائية من كل قصائد هوجو الأخرى. وليس ذلك هو الموضع، كما أني لا أملك الوقت، لتوضيح هذه الفكرة. فلن أقدم إلاَّ مُسودةً لاستطراد مُحتَمل. فما يدهشني ـ لدى ڤيكتور هوجو ـ هو طاقته الحيوية التي لا نظير لها. والطاقة الحيوية هي طول العُمر والقدرة على العمل متحدتين ـ طول العُمر مضاعفًا بالقدرة على العمل. فخلال أكثر من ستين عامًا، كان هذا الرجل الاستثنائيّ يجلس إلى مكتبه من الخامسة صباحًا حتى الظهيرة يوميًّا! كان يسعى بلا هوادة إلى تحقيق تركيبات لغوية جديدة، وأن يفرضها، ويلح عليها ويحس بالرضَا لدى سماعه لاستجابتها. لقد كتب مائة أو مائتي ألف بيت

من الشعر، واكتسب بذلك المراس غير المنقطع نهجًا غريبًا في التفكير قدَّره النقاد السطحيون بأفضل ما استطاعوا. لكنه هوجو، خلال عمله الطويل هذا، لم يكِل قَطّ عن تحقيق وتدعيم نفسه في فنه؛ ولا شك أنه أخطأ أكثر فأكثر في الانتقاء، وفقد أكثر فأكثر الإحساس بالتناسبات، وأعاق شعره بألفاظ هُلامية، غامضة ومتقلبة، رصَّعها بسهولة وغزارة كبيرتين بـ«الهاوية» و«اللانهائي» و«المطلق»، إلى أن فقدت هذه الكلمات الرهيبة حتى مظهر العُمق الذي أسبغها عليها الاستخدام. ومع ذلك، فيا لها من قصائد مذهلة كتبها في الفترة الأخيرة من حياته ـ قصائد بلا نظير في الامتداد، في التنظيم الخارجي، في الجَرْس، في الكَمال! في «وتر الفولاذ»، و«الله»، و«نهاية إبليس»، وقصيدته عن وفاة جوتييه، فإن الفنان ذا السبعين عامًا ـ الذي شهد كل غرمائه يموتون، ورأى جيلاً كاملاً من الشعراء يُولد منه، بل إنه سيستفيد من الدروس عصية المنال التي يلقنها التلميذ للأستاذ إذا ما عاش الأستاذ ـ بلغ ذروة القوة الشعرية ونبالة معرفة نظم الشعر.

لم يكُف هوجو أبدًا عن التعلُّم بالممارسة؛ لكن بودلير ـ الذي يتجاوز مدى حياته بالكاد نصف عُمر هوجو ـ تطور بطريقة أخرى تمامًا. ويمكن القول إنه كان عليه تعويض قِصَر والقصور المنتظَر للمدى الزمني المحدود الذي كان عليه أن يعيشه، بتوظيف ذلك الذكاء النقدي الذي سبق أن تحدثتُ عنه. إن حساب السنين قد سمح له ببلوغ قمة كماله، وأن يكتشف مجاله الشخصي، ويحدد شكلاً وتوجهًا معينين سيحملان ويحفظان اسمه. كان ثمة افتقار للوقت ليحقق طموحاته الأدبية بتجارب متعددة ونتاج كثيف من أعماله. وكان عليه أن يختار الطريق الأقصر، وأن يحدَّ من نفسه في تلمس طريقه، وأن يكون مقتصدًا في التكرارات والتشعبات. ولهذا، كان عليه أن يبحث بأدوات التحليل عن نفسه، وعمَّا يستطيع أن يفعل، وعمَّا يريد أن يفعل؛ وأن يتوحد ـ داخله ـ مع الفضائل العفوية للشاعر، الشكوكية، والانتباه، والقدرة الاستنباطية للناقد.

ذلك هو السبب في أن بودلير، على الرغم من أنه رومانتيكي في الأصل، بل رومانتيكي حتى في الذوق، يبدو أحيانًا كلاسيكيًّا. وثمة طرق لانهائية لتحديد مفهوم الكلاسيكي، أو محاولة تحديده. لكننا سنتبنَّى اليوم هذا المفهوم: **الكلاسيكي هو كاتب يحمل داخله ناقدًا ويوحده بصورة عميقة بعمله.** فثمة بُوَاللو داخل راسين.

ومع ذلك، فما الذي كان يمكن اختياره من الرومانتيكية، وكيف كان يمكن التمييز فيها بين خير وشر، زائف وحقيقي، مثالب وفضائل، إن لم يكن على المرء أن يتعامل مع كُتاب النصف الأول من القرن التاسع عشر على نحو ما تعامل رجال لويس الرابع عشر مع كُتاب القرن السادس عشر؟ إن كل كلاسيكية تنتحل رومانسيةً مُسبقة. وكل المميزات التي أُسبِغت على الفن «الكلاسيكي»، وكل الاعتراضات التي وُجهت إليه، مرتبطة بهذه البديهية. فـجوهر الكلاسيكية يكمن في أنه يأتي لاحقًا. نظام ينتحل الفوضَى ليهزمها. تكوين، هو البراعة، يعتمد هيولَى بدائيةً معينةً من الحدوس والتجليات الطبيعية. والنقاء هو نتاج عمليات لانهائية في اللغة، والسعي وراء الشكل ليس سوى إعادة تنظيم تأملية لأدوات التعبير. فالكلاسيكي ينطوي بالتالي على القصدي، تلك الأفعال المُدبَّرة التي تُحور النتاج «الطبيعي» وفقًا لمفهوم واضح وعقلاني للإنسان والفن. لكننا، كما علمتنا العلوم، لا يمكننا إنجاز عمل عقلاني ومركب بطريقة منظمة إلا من خلال مجموعة من التقاليد. ويتم إدراك الفن الكلاسيكي بوجود، ووضوح، وإطلاقية هذه التقاليد. وسواء ما إذا كان الأمر متعلقًا بالوحدات الثلاث، أم بالمبادئ العَروضية، أم القيود اللفظية، فإن هذه القواعد الاعتباطية فيما يبدو هي ما تشكل قوته وضعفه. فالقليل الذي تم إدراكه اليوم ويصعب الآن الدفاع عنه، ومن المستحيل تقريبًا رصده، إنما يَصدر ـ مع ذلك ـ عن إدراك قديم، ومرهف، وعميق لشروط المتعة الثقافية الخالصة.

ويُذكرنا بودلير، في منتصف الرومانتيكية، بالكلاسيكي، لكنه يُذكرنا فحسب لا أكثر. لقد توفي شابًّا، وعاش ـ فضلاً عن ذلك ـ في ظل الانطباع المقيت الذي أعطاه لأناس زمنه البقاءُ البائسُ على قيد الحياة للكلاسيكية القديمة للإمبراطورية. لم تكن أبدًا مسألة نفخ الحياة فيما هو ميت بوضوح، بل ربما مسألة التوصل ـ بوسائل أخرى ـ إلى الروح التي لم تعد تسكن الجسد.

لقد تجاهل الرومانتيكيون ـ بصورة عملية ـ كل شيء يطالب بالفكر المركَّز. لقد بحثوا عن تأثيرات الصدمة، والحماسة، والتباين. فلا المعيار، ولا الدقة، ولا العمق قد أرقهم كثيرًا. كانوا يمقتون تجريد الفكر والاستنباط ـ لا في أعمالهم فحسب، بل أيضًا في إعداد أعمالهم، وهو ما كان أكثر خطورة بصورة لانهائية. وبدا الفرنسيون

كأنهم قد نسوا مواهبهم التحليلية. وجدير بالذكر أن نلاحظ أن الرومانتيكيين قد ثاروا ضد القرن الثامن عشر بأكثر مما ضد السابع عشر، وكالوا الاتهامات بالسطحية لأناس كانوا أكثر ثقافةً بكثير منهم هُم أنفسهم ـ أكثر حرصًا على معرفة الحقائق والأفكار، أكثر اهتمامًا بالدقة وبالفكر بالمعنى الأوسع.

ووقت أن كان العلم على وشك إنجاز تطورات استثنائية، أبدت الرومانتيكية حالةً عقليةً مضادةً للعلم. فالعاطفة والإلهام اقتنعا بأنهما مكتفيان ذاتيًّا.

لكن، تحت سماء مغايرة تمامًا، وسط أناس مشغولين بكليتهم بتطورهم المادي، وما يزالون لامبالين بالماضي، فيما يرتبون مستقبلهم ويمنحون الحرية الأكمل للتجارب من كل نوع، هناك ظهر ـ في الوقت نفسه تقريبًا ـ رجل كان له أن يتأمل أشياء العقل بوضوح، بتعقل، باستبصار لم نصادفه قَطّ إلى هذه الدرجة في عقلٍ موقوف على الإبداع الشعري. ومن بين هذه الأشياء الإنتاج الأدبي. فقبل بُو، لم يتم أبدًا بحث مشكلة الأدب في مقدماتها المنطقية، وإرجاعها إلى مشكلة سيكلوجية، والتعامل معها بأدوات تحليلية يتم خلالها توظيف منطق وآليات الوقائع بصورة مدروسة. فللمرة الأولى تتضح العلاقات بين العمل والقارئ، وتُقدَّم باعتبارها أسس الفن الإيجابية. وهذا التحليل ـ وهذا الظرف يؤكد لنا قيمته ـ ينطبق ويتم إثباته بوضوح في كل مجالات الإنتاج الأدبيّ. والملاحظات نفسها، التحديدات نفسها، الرصد الكمي نفسه، الأفكار الموجِّهة نفسها تكيف نفسها بالتساوي مع الأعمال المقرر أن تؤثر بقوة وقسوة على العواطف ـ لتتغلب على جمهور يحب العواطف القوية والمغامرات الغريبة ـ وأرهف أنماط الأدب والتنظيم الدقيق لإبداعات الشاعر.

والقول بأن هذا التحليل يصلح للقصة القصيرة، شأن القصيدة، وأنه قابل للتطبيق على بنية التصوري والخيالي، شأن تقديم وإعادة تشكيل الممكن، إنما يعني أن عموميته جديرة بالملاحظة حقًّا. وخصيصة ما هو عام هي خصوبته. فلبلوغ نقطة يسيطر المرء منها على مجال نشاط بكامله، فمن الضروري إدراك مجموعة من الاحتمالات والمجالات غير المستكشفة، والطرق الواجب اتباعها، والأراضي الواجب استغلالها، والمدن الواجب بناؤها، والعلاقات الواجب إقامتها، والمناهج

الواجب توسيعها. ولهذا، فلا يدهشنا أن يكون بو ـ وقد امتلك مثل هذا المنهج الفعال والراسخ ـ مبدعًا لمنوعات مختلفة عديدة، وأن يكون قد قدم المثال الأول والأكثر إدهاشًا للقصة العلمية، وللقصيدة الحديثة عن نشوء الكون، ورواية التحقيق الجنائي، ومقدمة لأدب الحالات النفسية المَرَضية، وأن يَنِم كل هذا العمل ـ في كل صفحة ـ عن ذكاء تتم ملاحظته إلى درجة بلا مثيل في أي عمل أدبي آخر. وكان لهذا الرجل العظيم أن يُنسَى اليوم تمامًا، لو لم يقدمه بودلير إلى الأدب الأوروبي. فلنلاحظ أن مجد بو العالمي ضعيف، أو ليس موضع نقاش إلاَّ في بلده الأصلي وإنجلترا. فهذا الشاعر الأنجلوساكسوني قد أهمله بنُو جنسه.

وثمة ملاحظة أخرى: إن بودلير وبو قد تبادلا القِيَم. فكل منهما منح الآخر ما لديه، وتلقَّى منه ما ليس لديه. لقد أوصل الأخير (بُو) إلى الأول (بودلير) نسقًا كاملاً من الفكر الجديد والعميق. لقد أناره، وأثراه، وحدد أفكاره عن جملة موضوعات: فلسفة التأليف، نظرية المُصطنَع، إدراك وإدانة الحديث، أهمية الاستثنائي والغرابة، النزعة الأرستقراطية، الصوفية، النزوع إلى الأناقة والدقة، حتى السياسة.. لقد تخصَّب بها بودلير، وأُلهِم، وتعمَّق.

لكن، في مقابل ما أخذ، منح بودلير لفكر بُو اتساعًا لانهائيًّا. لقد قدمه إلى المستقبل. وقد كان سلوك بودلير، وترجمته، ومقدماته هي ما فتح ذلك الاتساع الذي ـ بكلمات مالارميه العظيمة ـ يغير الشاعر في ذاته، ويضمنه لعُزلة الشاعر التعيس.

ولن أبحث ما يدين به كل هذا الأدب لهذا المبدع الرائع. فسواء ما إذا أخذنا جول فيرن وذريته، أو جابوريو ونظراءه، أو تأملنا ـ ضمن أساليب أرقى بكثير ـ إنتاج ديستويفسكي، فمن السهل أن نرى أن «مغامرات ج. جوردون بيرن» و«سر شارع مورج» و«ليجيا» و«القلب الواشي» كانت بالنسبة لهم نماذج تم تقليدها كثيرًا، ودُرست بصورة شاملة، ولم يتم تجاوزها قَط.

وأتساءل فحسب عمَّا قد يدين به شعر بودلير، والشعر الفرنسي عامةً، لاكتشاف أعمال بو. فبعض قصائد «أزهار الشر» تستمد إحساسها ومادتها من قصائد بُو. وبعضها يتضمن أبياتًا تمثل نقلاً دقيقًا؛ لكني سأتجاهل هذه الاستعارات الخاصة التي لا تعدو أهميتها أن تكون ـ بمعنًى ما ـ محلية. وأستبقي فحسب الاستعارات

الجوهرية التي تمثل الفكرة الحقيقية التي كَوَّنها بُو عن الشعر. فمفهومه، الذي أعلنه في مقالات متعددة، كان العامل الرئيس في تغيير أفكار بودلير وفنه. إن اختمار نظرية التأليف في عقل بودلير، والدروس التي استخلصها منها، والتطويرات التي تلقتها من أسلافه الثقافيين ـ وخاصةً قيمتها الجوهرية العظيمة ـ تفرض علينا التوقف برهةً لتمحيصها.

ولن أخفي حقيقة أن أساس فِكر بُو مرتبط بنسق ميتافيزيقي شخصي معين. لكن هذا النسق، إذا ما كان يوجه ويهيمن ويوحي بهذه النظريات، فإنه لا محالة يخترقها.

وقد تم التعبير عن أفكار بُو عن الشعر في مقالات متعددة، أهمها (لكنها تتعلق ـ على الأقل ـ بتقنية النَّظم الإنجليزي) تحمل عنوان «المبدأ الشعري». وقد فُتِن بودلير بعمق بهذه المقالة، وتلقى منها انطباعًا بالغ الكثافة، إلى حد أنه اعتبر محتواها ـ ليس المحتوى فحسب، بل الشكل نفسه ـ **ملكيةً خاصةً به**.

ولا يستطيع المرء أن يحول دون استحلال ما يبدو أنه بالضبط قد صُنع من **أجله**، رغمًا عن نفسه، فيعتبره قد صُنع **بواسطته**... إنه يميل ـ بصورة لا تُقاوَم ـ إلى اقتباس ما يوافق شخصيته الخاصة بصورة حميمة؛ واللغة نفسها تنشر ـ باسم **الملكية** ـ فكرةَ ما قد تَكيَّف مع شخصٍ ما ويُشبعه تمامًا، مع فكرة ملكية هذا الشخص...

وعلى الرغم من أن بودلير قد استنار بنظرية «المبدأ الجمالي» واستحوذت عليه ـ أو بالأحرى لأنه استنار بها وتملكته ـ فلم يُضمِّن ترجمته لهذه المقالة في أعمال بُو، لكنه قدم الجزء الأهم منها ـ بلا تغيير تقريبًا ـ في مقدمة ترجمته لـ«حكايات عجيبة». وكان لهذه النزعة الانتحالية أن تكون محل نقاش، لو لم يلفت الكاتب نفسه ـ كما سنرى ـ الانتباه إليها: ففي مقالة عن تيوفيل جوتييه، أعاد بودلير إنتاج كل الجزء الذي نتحدث عنه، ليسبقه بهذه السطور المدهشة بالغة الوضوح: «من المسموح به أحيانًا، فيما أعتقد، أن نقتبس من شخصٍ ما لنتحاشى إعادة صياغة الشخص نفسه. وبالتالي سأكرر...». ثم يلي الجزء المستعار.

فماذا كانت إذن آراء بُو عن الشعر؟

سألخص باختصار آراءه. فهو يحلل الشروط السيكلوجية للقصيدة. ومن بينها، يضع في المقام الأول القصائد التي تعتمد على **أبعاد** الأعمال الشعرية. ويمنح أهميةً

استثنائيةً لاعتبار طُولها. ويتقصَّى ـ فضلاً عن ذلك ـ المفهوم الحقيقيَّ لهذه الأعمال. ويثبت بسهولة أن هناك عددًا كبيرًا من القصائد تتعلق بأفكار كان يمكن للنثر أن يكون أداةً كافيةً لها. فلن يكسب التاريخ، ولا العلم، ولا الأخلاق من جراء نشرها في لغة الروح. وعلى الرغم من أن أعظم الشعراء قد بجلوا وكرسوا الشعر التعليمي، والشعر التاريخي أو الأخلاقي، إلاَّ أنه يوحِّد بغرابة مادةَ المعرفة المنطقية أو التجريبية بإبداعات الكينونة الداخلية والقوى الانفعالية.

لقد أدرك بودلير أن علَى الشعر الحديث أن يتوافق مع نزوع عصرٍ يقيم تمايزًا حادًّا متزايدًا بين الأشكال ومجالات النشاط. أدرك أنه يمكن أن يطالب بتحقيق هدفه وإنتاج ذاته، في **حالة نقية**، إلى حدٍّ ما.

وهكذا، بتحليل شروط المتعة الشعرية، وتحديد «الشعر المطلق» بـ«الاستنزاف»، أوضح بُو طريقةً وعلَّم مذهبًا صارمًا وفاتنًا، وحَّد فيه نوعًا من الرياضيات بنوع من الصوفية.

وإذا ما نظرنا الآن إلى «**أزهار الشر**»، وتكبدنا عناء مقارنة هذا الكتاب بأعمال شعرية أخرى من نفس المرحلة، فلن يدهشنا أن نجد عمل بودلير متسقًا ـ بصورة ملحوظة ـ مع مفاهيم بُو، ومختلفًا بالتالي عن منتجات الرومانتيكية. فأزهار الشر لا يتضمن قصائد تاريخية ولا أسطورية؛ ولا شيء ينبني على قصة. لا تحليق إلى الفلسفة. ولا ظهور هنا للسياسة. والوصف نادر ودائمًا وثيق الصلة بالموضوع. لكن كل شيء فاتن، الموسيقى والحسية القوية المجردة... «نِظَامٌ وَجَمَالٌ، تَرَفٌ، وَسَكِينَةٌ وَشَهْوَة»[1]

في أفضل أشعار بودلير، ثمة توحيد بين الجسد والعقل، ومزيج من الفخامة والحرارة والمرارة، من الأبدية والحميمية، وتضافرٌ نادر للغاية بين الإرادة والتناغم، وهو ما يميزها بوضوح على الشعر الرومانتيكي بقدر ما يمايزها بوضوح عن الشعر البارناسي. ولم يكن بارناسوس عطوفًا إلى حدٍّ بعيد على بودلير. وأنَّبه لوكونت دي

(١) من قصيدة «**الدعوة إلى السفر**»، لبودلير. راجع ترجمتها الكاملة فيما يلي.

ليل على العُقم. لقد نسي أن الخصوبة الحقيقية للشاعر لا تكمن في عدد قصائده، بل في مدى تأثيراتها. ولا يمكن الحكم عليها إلاَّ في سياق الزمن. فنحن نرى اليوم ـ بعد أكثر من ستين عامًا ـ صدى عمل بودلير الفريد والبعيد عن النسخ ما يزال يملأ العالم الشعريّ، وما يزال مؤثرًا، مستعصيًا على التجاهل، مدعَّمًا بعدد كبير من الأعمال التي تُستمد منه، دون أن تكون محاكاة، بل كثمار له. وبالتالي، وحتى نكون منصفين، فمن الضروريّ أن نضم إلى المجموعة النحيلة ـ «أزهار الشر» ـ أعمالاً عديدةً من المستوى الرفيع، وعددًا من أعمق وأرهف التجارب التي قام بها الشعر. إن تأثير «قصائد عتيقة» و«قصائد بربرية»[1] لهو أقل تنوعًا وأقل إدهاشًا.

ومع ذلك، فلا بد من إدراك أن هذا التأثير نفسه، لو كان قد مُورِس على بودلير، لربما أثناه عن الكتابة، أو الاحتفاظ ببعض القصائد بالغة الضعف التي يمكن العثور عليها في ديوانه. فمن بين الأبيات الأربعة عشر لسوناتا «خشوع»، وهي إحدى القصائد الأكثر سحرًا، ثمة خمسة أو ستة أبيات، بالنسبة لدهشتي التي لا تنتهي، ضعيفة بصورة لا تُنكَر. لكن البيت الأول والأخير من هذه القصيدة بَلَغَا من السحر حد أننا لا نشعر بسخافة الجزء الأوسط، ومستعدون تمامًا لاعتباره عدمًا أو فراغًا. فلا يستطيع أن يحقق معجزةً من هذا النوع إلا شاعر عظيم.

منذ برهة، تحدثت عن إنتاج «سحر»، والآن نطقت بكلمة «معجزة». فلا شك أن ثمة مصطلحات ينبغي استخدامها بصورة مقتصدة بسبب تشديدات معانيها والسهولة التي يمكن بها استخدامها؛ لكني لا أدري كيف يمكن استبدالهما إلاَّ بمرادفين طويلين وجِدَاليين... وسأظل مبهمًا، مقتصرًا على اقتراح ما يجب أن يكون. فلا بد من توضيح أن اللغة تنطوي على منابع شعورية ممتزجةً بخصائصها العملية، الدَّالة بصورة مباشرة. ومسئولية، وعمل، ووظيفة الشاعر تكمن في استخراج وتفعيل قوى السحر تلك، منبهات الحياة الشعورية والحساسية العقلية تلك، التي تمتزج معًا في اللغة الاستعمالية بإشارات وأدوات اتصال الحياة السطحية العادية. بذلك، يكرِّس الشاعر نفسَه ويستهلك ذاته في مهمة تحديد بناء لغة داخل اللغة؛ وهذه العملية، الطويلة والمرهفة، التي تتطلب تنوعًا في القدرات العقلية لا ينتهي، تنحو إلى تأسيس خطاب

(١) من أعمال لوكونت دي ليل، الشاعر الرومانتيكيّ الفرنسيّ (١٨٦٢).

الشخصية بصورة أكثر نقاءً، وأقوى وأعمق في أفكارها، وأكثر كثافةً في حياتها، وأكثر أناقةً ولباقةً في الحديث من أي شخص واقعي. وهذا الخطاب الاستثنائيّ يتجلَّى ذاتيًّا ويتم التعرف عليه بالإيقاع والتناغمات التي تغذيه، والتي لا بد أن ترتبط ـ بعمق وحتى بغموض ـ بأصلها، إلى حد ألاَّ يعود ممكنًا أن ينفصل الصوت عن المعنى، متجاوبَين مع بعضهما البعض بصورة لانهائية في الذاكرة.

ويدين شعر بودلير بديمومته والرقي الذي ما يزال يمتلكه إلى الكمال والصفاء غير العادي لجَرْسه. أحيانًا ما يتراجع هذا الصوت إلى البلاغة، على نحو ما تكرر ـ إلى حدٍّ ما ـ كثيرًا في حالة شعراء تلك الحقبة؛ لكنه يحتفظ ويُنمِّي ـ بصورة تدعو إلى الإعجاب ـ خطًّا نغميًّا صافيًا وجَرْسًا راسخًا بصورة خالصة تُمايزه عن كل نثر.

وفي ذلك، فقد اتخذ بودلير ـ سعيدًا ـ ردَّ فعله ضد الاتجاه إلى الأسلوب النثريّ، الذي كان ملحوظًا في الشعر الفرنسي منذ منتصف القرن السابع عشر. ويلفت الانتباه أن الرجل– الذي ندين له بعودة الشعر إلى جوهره ـ هو أيضًا أحد الكُتاب الفرنسيين الأوائل المهتمين بشغفٍ بالموسيقَى. إنني أذكر هذا التوجه، الذي تجلَّى بالمقالات الشهيرة عن «تانهاوزر» و«لوينجرين»، بسبب التطور الأخير لتأثير الموسيقى على الشعر... «فما عمَّد الرمزية يتلخص ببساطة تامة في النية الشائعة لدى العديد من عائلات الشعراء لاسترداد ما ينتمي إليهم من الموسيقى».

ولأجعل محاولتي تفسير أهمية بودلير اليوم أقل تعميمًا وأقل نقصًا، فلا بد أن أستدعي الآن ما كانه كناقد فني. لقد عرف ديلاكروا ومانيه. وسعَى إلى تقييم مزايا أنجر وغريمه، مثلما قارن بين واقعيتَي كوربيه ومانيه بالغتي الاختلاف. أما بالنسبة لدوميه العظيم، فقد أكنَّ له إعجابًا شاركته فيه الأجيال التالية. ربما بالغ في قيمة قنسطنطين جيز. لكن أحكامه، على العموم، التي يحفزها ويرافقها أكثر الاعتبارات رهافةً وجوهريةً في الرسم، تظل نماذج في مجالها، سهلةً بصورة بالغة، ولهذا فهي بالغة الصعوبة.

لكن المجد الأعظم لبودلير، على نحو ما أوضحتُ في البداية، يكمن في أنه ألهم ـ بلا شك ـ شعراء عظامًا كثيرين. فلا ڤيرلين، ولا مالارميه، ولا رامبو كان لهم أن يكونوا ما كانوه لو لم يقرءوا «أزهار الشر» في السِّن الفاصل. وسيكون من السهل

الإشارة ـ في هذه المجموعة ـ إلى قصائد ألقى شكلُها ووحيُها ظلاً على قصائد معينة لڤيرلين ومالارميه ورامبو. ولكن ذلك بالغ الوضوح إلى حد ألاّ أدخل في التفاصيل. وسأقتصر على الإشارة إلى دلالة المزيج القلق، الحميم والقوي، للعاطفة الصوفية والتوقد الحسي الذي تنامَى لدَى ڤيرلين؛ وسُعار الهروب، ونفاد الصبر الذي استثاره الكون، والوعي العميق بالأحاسيس ورنينها المتناغم الذي يجعل إنتاج رامبو، المختصَر والعنيف، مُفعمًا بالطاقة والحيوية، حاضرًا ويمكن تمييزه بوضوح لدى بودلير.

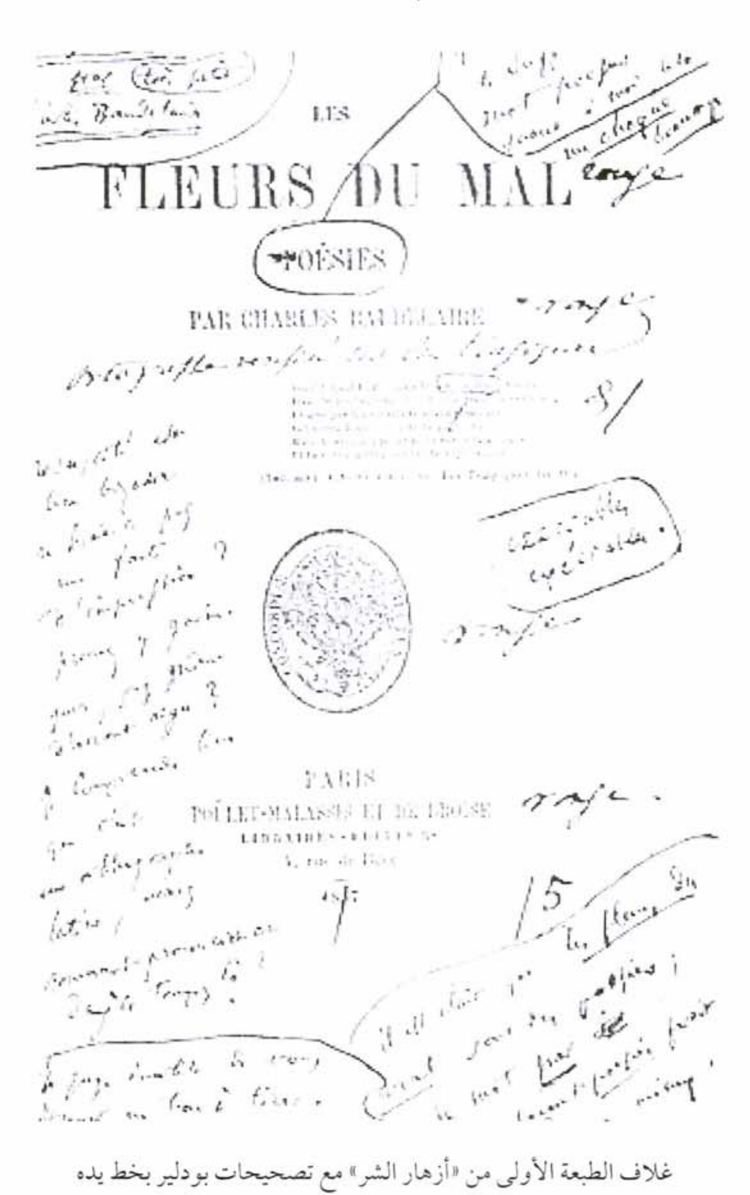
أما بالنسبة لستيفان مالارميه، الذي يمكن لقصائده الأولى أن تُعتبر أكثر **أزهار الشر** جمالاً وإحكامًا، فقد اتبع في أرهف خلاصاتها التجارب الشكلية والتقنية التي قام بو بتحليلها، وأوصلت إليه مقالات بودلير وتعليقاته عليها حبها وعلمته أهميتها. ففيما اتبع ڤيرلين ورامبو بودلير في نظام الشعور والأحاسيس، دفع مالارميه أعماله قُدُمًا في إقليم الكَمال والصفاء الشعري.

بول ڤاليرى

Variétés, II, 1930.

أزهــار الشّــر

(طبعة ١٨٦١)


LES

FLEURS DU MAL

POÉSIES

PAR CHARLES BAUDELAIRE

PARIS

POULET-MALASSIS ET DE BROISE

LIBRAIRES-ÉDITEURS

غلاف الطبعة الأولى من «أزهار الشر» مع تصحيحات بودلير بخط يده

Je me semble d'abord qu'il vaudrait mieux baisser un peu toute la dédicace, de manière qu'elle se trouvât au milieu de la page ; je laisse d'ailleurs cela à votre goût. — Ensuite, je crois qu'il serait bien de mettre Fleurs en italiques, — en capitales penchées, puisque c'est un titre-calembour. Enfin, bien que chacune des lignes et de ces lettres soit dans de bonnes proportions (chacune relativement aux autres), je les trouve toutes trop grosses ;

AU POËTE IMPECCABLE

AU PARFAIT MAGICIEN ÈS LANGUE FRANÇAISE

A MON TRÈS-CHER ET TRÈS-VÉNÉRÉ

MAITRE ET AMI

THÉOPHILE GAUTIER

AVEC LES SENTIMENTS

DE LA PLUS PROFONDE HUMILITÉ

JE DÉDIE

CES FLEURS MALADIVES

C. B.

l'ë — l'f incline. — l's a l'air de danser, outre trop près de l'E — le j n'est pas du corps

Je crois que l'ensemble gagnerait en élégance si vous preniez un œil un peu plus petit pour chaque ligne, toujours en gardant l'importance proportionnelle. Le C.B. seul me paraît un peu petit. —

— J'ai remarqué que votre pagination n'impliquait pas le titre et le faux titre. C'est encore une chose laissée à votre goût — vous aurez l'obligeance de me renvoyer la bonne feuille — je vous donne d'ailleurs le

Bon à tirer

Ch. Baudelaire.

إهـــداء

إلى الشَّاعر المعصوم

إلى السّاحر الرفيع في الأدب الفرنسي
إلى مُعلِّمي وصديقي الأعز والأجل

تيوفيل جوتييه

مع مشاعر

التواضع الأعمق

أهدي

هذه الأزهار العليلة

ش ب

إلى القَارئ

الْحَمَاقَةُ، وَالْخَطَأُ، وَالْفُجُورُ، وَالشُّح
تَحْتَلُّ أَرْوَاحَنَا وَتَسْتَوْلِي عَلَى أَجْسَادِنَا،
وَنُغَذِّي نَدَامَاتِنَا الْمَحْبُوبَة،
مِثْلَمَا يُغَذِّي الشَّحَّاذُونَ هَوَامَّهُم.

خَطَايَانَا عَنِيدَةٌ، وَنَدَمُنَا بَلِيد؛
وَنَدْفَعُ ثَمَنًا بَاهِظًا لاعْتِرَافَاتِنَا
وَنَعُودُ مُبْتَهِجِينَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُوحِل،
مُعْتَقِدِينَ أَنَّ دُمُوعًا زَهِيدَةً تَغْسِلُ أَوْسَاخَنَا.

عَلَى وِسَادَةِ الشَّرِّ إِبْلِيسُ الْمُعَظَّم
الَّذِي يُهَدْهِدُ طَوِيلاً أَرْوَاحَنَا الْمَسْحُورَة،
وَمعْدِنُ إِرَادَتِنَا النَّفِيس
تَبَخَّرَ تَمَامًا عَلَى يَدِ هَذَا الْكِيمِيَائِيِّ الْعَلِيم.

هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُمْسِكُ بِالْخُيُوطِ الَّتِي تُحَرِّكُنَا!
فَنَجِدُ الْفِتْنَةَ فِي الأَشْيَاءِ الْمَقِيتَة؛
وَنَنْحَدِرُ كُلَّ يَوْمٍ خُطْوَةً إِلَى الْجَحِيم،
بِلاَ هَلَعٍ، عَبْرَ الظُّلُمَاتِ الآسِنَة.

هَكَذَا كَفَاجِرٍ بَائِسٍ يُقَبِّلُ وَيَلْتَهِم
الثَّدْيَ الشَّهِيدَ لِعَاهِرَةٍ عَتِيقَة،
نَخْتَلِسُ - فِي الطَّرِيقِ - لَذَّةً مُحَرَّمَةً،
نَعْتَصِرُهَا بِقُوَّةٍ كَبُرْتُقَالَةٍ قَدِيمَة.

مُتَرَاصِّينَ، مُتَزَاحِمِينَ، كَمِلْيُونِ دُودَةٍ مَعَوِيَّة،
يُعَرْبِدُ فِي عُقُولِنَا حَشْدٌ مِنَ الْجِنِّ،
وَعِنْدَمَا نَتَنَفَّسُ، يَنْحَدِرُ الْمَوْتُ إِلَى رِئَاتِنَا،
نَهْرًا خَفِيًّا مَعَ الأَنَّاتِ الصَّمَّاء.

وَإِذَا مَا كَانَ الاغْتِصَابُ، وَالسُّمُّ، وَالْخِنْجَرُ، وَالْحَرِيق،
لَمْ تُوَشِّ بَعْدُ بِرُسُومِهَا الْهَازِئَة
اللَّوْحَةَ التَّافِهَةَ لِمَصَائِرِنَا الْبَائِسَة،
فَلأَنَّ أَرْوَاحَنَا - لِلأَسَفِ - لاَ تَمْلِكُ الْجُرْأَةَ الْكَافِيَة.

لَكِن بَيْنَ أَبْنَاءِ آوَى، وَالْفُهُودِ، وَكِلاَبِ الصَّيْدِ،
وَالْقُرُودِ، وَالْعَقَارِبِ، وَالْعُقَابِ، وَالأَفَاعِي،
وَالْوُحُوشِ العَاوِيَةِ، وَالنَّابِحَةِ، وَالْمُزَمْجِرَةِ وَالزَّاحِفَة،
فِي مَعْرضِ الْوُحُوشِ الشَّائِنِ لِخَطَايَانَا،

هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْثَرُ بَشَاعَةً، وَفَظَاظَةً، وَقَذَارَة!
على الرغم من أَنَّهُ لاَ يُصْدِرُ حَرَكَاتٍ وَاضِحَةً وَلاَ صَرَخَاتٍ فَادِحَة،
وَيُمْكِنُهُ أَنْ يُحِيلَ الأَرْضَ إِلَى أَطْلاَل
وَيَبْتَلِعَ فِي إِحْدَى تَثَاؤُبَاتِهِ الْعَالَم؛

إِنَّه الضَّجَر! ـ تِلْكَ الْعَيْنُ الْمَغْرَوْرِقَةُ بِدَمْعٍ لاَ إِرَادِي،
تَحْلُمُ بِالْمَشَانِقِ وَهيَ تُدَخِّنُ النَّارجِيلَة.
تَعْرِفُه، أَيُّهَا الْقَارِئُ، هَذَا الْوَحْشَ الرَّهِيف،
ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْمُنَافِقُ، ـ يَا شَبِيهِي، ـ يَا شَقِيقِي!

سـأم ومِثَـال

١

بَركَة

عِنْدَمَا تَجَلَّى الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الضَّجِر،
بِقَرَارٍ مِنَ الْقُوَى الْعُلْيَا،
أَشْهَرَت أُمُّه المَذْعُورَةُ الطَّافِحَةُ بِالتَّجْدِيف
قَبْضَتَيْهَا نَحْوَ الرَّبِّ، الَّذِي يُشْفِقُ عَلَيْهَا:

ـ «آه! لِمَ لَمْ أَضَعْ حَشْدًا مِنَ الْحَيَّات
أَفْضَلَ مِنْ إِرْضَاعِ هَذَا الْمَسْخ!
فَاللَّعْنَةُ عَلَى لَيْلَةِ الْمَلَذَّاتِ الْعَابِرَة
الَّتِي حَمَلَت فِيهَا بَطْنِي كَفَّارَتِي!

«وَطَالَمَا أَنَّكَ اخْتَرْتَنِي مِنْ بَيْنِ كُلِّ النِّسَاء
لأَكُونَ مَوْضِعَ اشْمِئْزَازِ زَوْجِي الْحَزِين،
وَلأَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ رَمْيَ هَذَا الْمَسْخِ الضَّامِر
فِي النَّارِ، مِثْلَ رِسَالَةِ حُب،

«سَأَصُبُّ كَرَاهِيَتَكَ الَّتِي تُثْقِلُنِي
عَلَى الأَدَاةِ اللَّعِينَةِ لِشُرُورِك،
وَسَأَقْطَعُ تَمَامًا هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْبَائِسَة،
فَلاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْمُوَ بَرَاعِمُهَا الْمَوْبُوءَة!»

هَكَذَا تَبْتَلِعُ زَبَدَ كَرَاهِيَتِهَا،
وَإِذْ لاَ تَعِي الأَقْدَارَ الأَبَدِيَّةَ الْمَرْسُومَة،
تَرُوحُ تُعِدُّ بِنَفْسِهَا فِي قَاعِ الْجَحِيم
الْمِحْرَقَةَ الْخَاصَّةَ بِالْجَرَائِمِ الأُمُومِيَّة.

لَكِن، تَحْتَ حِمَايَةِ مَلاَكٍ خَفِيَّة،
يَسْكَرُ الطِّفْلُ الْمَحرُومُ بِالشَّمْس،
وَفِي كُلِّ مَا يَشْرَبُ وَيَأْكُل
يَجِدُ الرَّحِيقَ وَمَاءَ الْحَيَاةِ الْوَرْدِي.

يَلْعَبُ مَعَ الرِّيحِ، يَتكَلَّمُ مَعَ الْغَيْم،
يَنْتَشِي بِالإِنْشَادِ لِطَرِيقِ الصَّلِيب؛
وَالرُّوحُ الَّتِي تَتْبَعُه فِي طَوَافِه
تَبْكِي مِنْ رُؤْيَتِهِ سَعِيدًا مِثْلَ عُصْفُورِ الْغَابَة.

أَمَّا مَنْ كَانَ يَهْفُو إِلَى حُبِّهِم فَيُرَاقِبُونَه بِوَجَل،

أو مُجْتَرِئينَ عَلَى سَكِينَتِه،
يَبْحَثُونَ عَمَّا يَدْفَعُه إِلَى الْعَوِيل،
وَيُمَارِسُونَ عَلَيْهِ وَحْشِيَّتَهُم.

وَفِي الْخُبْزِ وَالْخَمْرِ الْمَرْصُودِ لِفَمِه
يَمْزِجُونَ الرَّمَادَ وَالْبُصَاقَ الْقَذِر؛
وَبِنِفَاقٍ يَرْمُونَ كُلَّ مَا يَلْمَس،
وَيَلُومُونَ أَنْفُسَهُم عَلَى وَضْعِ أَقْدَامِهِم عَلَى خُطَاه.

وَتَصْرُخُ زَوْجَتُه فِي السَّاحَاتِ الْعَامَّة:
«طَالَمَا يَرَانِي جَمِيلَةً إِلَى حَدِّ الْجَدَارَةِ بِالْعِبَادَة،
فَسَأَتَّخِذُ مِهْنَةَ الْمَعْبُودَاتِ الْقَدِيمَة،
وَمِثْلَهُنَّ، أُرِيدُ أَنْ أَتَحَلَّى بِالذَّهَب؛

«وَسَأَسْكَرُ بِالنَّارِدِينِ وَالْبخورِ وَالْمُر،
بِالرُّكُوعِ، بِاللُّحُومِ وَالْخُمُور،
لأَعْرِفَ قُدْرَتِي ـ وَأَنَا ضَاحِكَةٌ ـ عَلَى اغْتِصَاب
الْقَرَابِينِ السَّمَاوِيَّةِ مِنَ الْقَلبِ الْمُعْجَبِ بِي!

«وَعِنْدَمَا أَضْجَرُ مِنْ هَذِهِ الْهَزْلِيَّاتِ الْكَافِرَة،
سَأَضَعُ عَلَيْهِ يَدِيَ الْهَشَّةَ الْقَوِيَّة؛

وَأَظَافِرِي الشَّبِيهَةُ بِأَظَافِرِ الْخَفَافِيش،
سَتَشُقُّ طَرِيقَهَا حَتَّى قَلْبِه.

«وَمِثْلَ عُصْفُورٍ صَغِيرٍ يَرْتَعِشُ وَيَرْتَجِف
سَأَنْتَزِعُ هَذَا الْقَلْبَ الأَحْمَرَ مِنْ صَدْرِه،
وَلأُشْفِيَ غَلِيلِيَ الْغَبِي،
سَأَرْمِيه لَه عَلَى الأَرْضِ بِازْدِرَاء!»

إِلَى السَّمَاءِ، حَيْثُ تَرَى عَيْنُه عَرْشًا رَائِعًا،
يَرْفَعُ الشَّاعِرُ الْوَادِعُ ذِرَاعَيْهِ فِي وَرَع،
وَالْبُرُوقُ الشَّاسِعَةُ لِرُوحِهِ الصَّافِيَة
تَحْجُبُ عَنْهُ مَرْأَى الْحُشُودِ الْهَائِجَة:

ـ «مُبَارَكٌ أَنْتَ، يَا رَبُّ، يَا مَنْ تَمْنَحُ الأَلَم
كَتِرِيَاقٍ سَمَاوِيٍّ لِقَذَارَاتِنَا
وَكَالْجَوْهَرِ الأَنْقَى وَالأَرْقَى
الَّذِي يُهَيِّئُ الأَقْوِيَاءَ لِلْمَلَذَّاتِ الْقُدْسِيَّة!

«أَعْرِفُ أَنَّكَ تَحْتَفِظُ بِمَكَانٍ لِلشَّاعِر
فِي صُفُوفِ الأَبْرَارِ مِنَ الأَفْوَاجِ الْمُقَدَّسَة،
وَأَنَّكَ تَدعُوه إِلَى الْحَفْلِ الأَبَدِي

لِلْمَلاَئِكَةِ، وَالْفضَائِلِ، وَالسِّيَادَة.

«أَعْرِفُ أَنَّ الْعَذَابَ هُوَ النُّبْلُ الْفَرِيد
الَّذِي لَنْ يَأكُلَه أَبَدًا التُّرَابُ وَلاَ الْجَحِيم،
وَلِكَي أَضْفُرَ إِكْلِيلِيَ الرُّوحِي
لاَ بُدَّ مِنْ تَغْرِيمِ الأَزْمَانِ وَالأَكْوَان.

«لَكِنَّ الْمُجَوْهَرَاتِ الضَّائِعَةَ لِبَالمِيرَا[1] الْقَدِيمَة،
وَالْمَعَادِنَ الْمَجْهُولَةَ، وَلآلِئَ الْبِحَار،
الَّتِي أَعَدَّتْهَا يَدُكَ، لَنْ تَسْتَطِيعَ الْوَفَاء
بِهَذَا التَّاجِ الْجَمِيلِ، الْبَاهِرِ الْوَهَّاج؛

«لأَنَّه لَنْ يُصْنَعَ إِلاَّ مِنْ نُورٍ صَافٍ،
مُسْتَقىً مِنْ نَارٍ مُقَدَّسةٍ لِلأَشِعَّةِ الأُولَى،
وَإِزَاءَهَا لَن تَكُونَ الْعُيُونُ الْفَانِيَةُ، عَلَى رَوْعَتِهَا الْكَامِلَة،
سِوَى مَرَايَا مُعْتِمَةٍ نَائِحَة!»

(١) بالميرا (مدينة النخيل): مدينة سورية قديمة، تحمل اسم «تدمر». كانت قوية وبالغة الثراء، حيث أَسّست فيها الملكة «زنوبيا» مملكةً قوية وشهيرة.

٢

طَائر القَطرَس

كَثِيرًا مَا يَصِيدُ الْبَحَّارَةُ، لِلتَّسْلِيَة،
طُيُّورَ الْقَطْرَس، الطُّيُورَ الْبَحْرِيَّةَ الْهَائِلَة،
الَّتِي تَتْبَعُ، كَرِفَاقِ سَفَرٍ كَسَالَى،
السَّفِينَةَ الْمُنْسَابَةَ عَلَى اللُّجَجِ الْمَرِيرَة.

وَمَا إِنْ يَرْمُوا بِهِم عَلَى سَطْحِ السَّفِينَة،
حَتَّى يُجَرْجِرَ مُلُوكُ السَّمَاءِ هَؤُلاَء، الْحَمْقَى الْخَائِبُون،
أَجْنِحَتَهُم الْكَبِيرَةَ الْبَيْضَاءَ إِلَى جَانِبِهِم
بِشَكْلٍ يُرْثَى لَه، مِثْلَ الْمَجَاذِيف.

هَذَا الْمُسَافِرُ الْمُجَنَّحُ، كَم هُوَ أَخْرَقُ وَضَعِيف!
هُوَ، الْجَمِيلُ مُنذُ قَلِيلٍ، كَم هُوَ مُضْحِكٌ وَقَبِيح!
أَحَدُهُم يُشَاكِسُ مِنْقَارَه بِغلْيُون،
وَالآخَرُ يُقَلِّدُ، وَهوَ يَعْرُجُ، الْعَاجِزَ الَّذِي كَانَ يَطِير!

وَالشَّاعِرُ شَبِيهٌ بِأَمِيرِ الْغُيُوم

يَغْشَى الْعَاصِفَةَ وَيَهْزَأُ بِالسِّهَام؛

مَنْفِيًّا عَلَى الأَرْضِ وَسْطَ صَيْحَاتِ السُّخْرِيَة،

تَعُوقُه أَجْنِحَتُه الْعِمْلاَقَةُ عَن الْمَسِير.

٣

سُمُوّ

فَوْقَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ، فَوْقَ الْوِدْيَان،
وَالْجِبَالِ، وَالْغَابَاتِ، وَالْغُيُومِ، وَالْبِحَار،
فِيمَا وَرَاءَ الشَّمْسِ، فِيمَا وَرَاءَ الأَثِير،
فِيمَا وَرَاءَ حُدُودِ الأَفْلاَكِ الْمُرَصَّعَةِ بِالنُّجُوم،

تَنْسَابِينَ، يَا رُوحِي، بِرَشَاقَة،
وَمِثْلَ سَبَّاحٍ بَارِعٍ يَنْتَشِي بِالْمَوْج،
تَشُقِّينَ بِبَهْجَةٍ أَغْوَارَ الْفَضَاء
بِشَهْوَةٍ رُجُولِيَّةٍ فَوْقَ الْوَصْف.

فَلْتُحَلِّقِي بَعِيدًا عَن هَذَا الْعَفَنِ السَّقِيم،
وَلْتَتَطَهَّرِي فِي الأَثِيرِ الأَعْلَى،
وَلْتَشْرَبِي ـ مِثْلَ شَرَابٍ صَافٍ وَسَمَاوِي ـ
النَّارَ الْمُنِيرَةَ الَّتِي تَغْمُرُ الْفَضَاءَاتِ النَّقِيَّة.

وَرَاءَ الضَّجَرِ وَالأَحْزَانِ الْكَبِيرَة
الَّتِي تَنُوءُ بِوَطْأَتِهَا عَلَى الْوُجُودِ الضَّبَابِي،
سَعِيدٌ مَنْ يَسْتَطِيعُ، بِجَنَاحٍ قَوِي،
الانْطِلاَقَ إِلَى الْحُقُولِ الْمُضِيئَةِ السَّاكِنَة!

مَنْ تَقُومُ أَفْكَارُه، مِثْلَ الْقُبَّرَات،
بِانْطِلاَقٍ حُرٍّ فِي الصَّبَاحِ إِلَى السَّمَاوَات،
ـ مَنْ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْحَيَاةِ، وَيَعِي بِلاَ عَنَاء
لُغَةَ الزُّهُورِ وَالأَشْيَاءِ الصَّامِتَة!

٤

تَجَاوبَات

الطَّبِيعَةُ مَعْبَدٌ فِيهِ أَعْمِدَةٌ حَيَّة
تُصْدِرُ أَحْيَانًا كَلِمَاتٍ مُبْهَمَة؛
هُنَاكَ يَمْضِي الإِنْسَانُ خِلاَلَ غَابَاتٍ مِنْ رُمُوز
تَرْقُبُه بِنَظَرَاتٍ وَادِعَة.

وَكَأَصْدَاءٍ مَدِيدَةٍ تَمْتَزِجُ فِي الْبَعِيد
فِي وَحْدَةٍ مُعْتِمَةٍ وَعَمِيقَة،
شَاسِعَةٍ مِثْلَ اللَّيْلِ وَالضِّيَاء،
تَتَجَاوَبُ الْعُطُورُ، وَالأَلْوَانُ، وَالأَصْوَات.

هُنَاكَ عُطُورٌ نَدِيَّةٌ مِثْلَ أَجْسَادِ الأَطْفَال،
رَهِيفَةٌ كَالْمَزَامِير، وَخَضْرَاءُ كَالْبَرَارِي،
ـ وَأُخْرَى مُتَهَتِّكَةٌ، خِصْبَةٌ وَمُفْحِمَة،

لَهَا أَرِيجُ الأَشْيَاءِ اللاَّنِهَائِيَّة،
كَالْعَنْبَرِ، وَالْمِسْكِ، وَاللّبَانِ وَالْبخور،
الَّتِي تُغَنِّي فورَاتِ الرُّوحِ وَالْحَوَاس.

٥

العصـور العَاريـة(*)

أُحِبُّ ذِكْرَى تِلْكَ الْعُصُورِ الْعَارِيَة،

عِنْدَمَا كَانَ يَحْلُو لِفُويبُوس[١] أَنْ يَطْلِيَ التَّمَاثِيلَ بِالذَّهَب.

آنَذَاكَ كَانَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فِي حَيَوِيَّةٍ

يَسْتَمْتِعَانِ بِلاَ زَيْفٍ وَلاَ قَلَق،

وَفِيمَا السَّمَاءُ الْعَاشِقَةُ تُرَبِّتُ عَلَى ظَهْرَيْهِمَا،

كَانَا يَخْتَبِرَانِ صِحَّةَ آلَتِهِمَا النَّبِيلَة.

وَسِيبِيل[٢] حِينَئِذٍ، الْخِصْبَةُ فِي كَرَمِ الإِنْتَاج،

لَمْ تَكُن تَجِدُ أَبْنَاءَهَا عِبْئًا بَاهِظًا أَبَدًا،

لَكِنَّهَا، كَذِئْبَةٍ قَلْبُهَا مُفْعَمٌ بِالْحَنَانِ الْعَمِيم،

كَانَت تُرْضِعُ الْكَوْنَ مِنْ ثَدْيَيْهَا الأَسْمَرَيْن.

وَالرَّجُلُ، رَشِيقًا، مَفْتُولاً وَقَوِيًّا، كَانَ يَحِقُّ لَه

(*) القصيدة أصلاً بدون عنوان والعنوان من اختيارنا (المترجم).

(١) اسم آخر للإله «أبوللو»، إله الشعر والفنون.

(٢) زوجة ساتيرن، وأم جوبيتر، إلَهة الأرض والخصوبة..

أَنْ يَفْخَرَ بِأَلْوَانِ الْجَمَالِ الَّتِي نَصَّبَتْه مَلِكًا عَلَيْهَا؛
فَوَاكِهُ صَافِيَةٌ بِلاَ شَائِبَةٍ وَنَقِيَّةٌ بِلاَ خَدْش،
وَلُبُّهَا الأَمْلَسُ الْجَامِدُ يَدْعُو إِلَى الْقَضْم!

وَالشَّاعِرُ الْيَوْمَ، عِندَمَا يُرِيدُ تَصَوُّرَ
هَذِهِ الْعَظَمَةِ الْفِطْرِيَّةِ، فِي الأَمَاكِن
الَّتِي يَرَى فِيهَا عُرْيَ الرَّجُلِ وَعُرْيَ الْمَرْأَة،
يُحِسُّ بِبُرُودَةٍ مُعْتِمَةٍ تَغْشَى رُوحَه
إِزَاءَ هَذِهِ اللَّوْحَةِ السَّوْدَاءِ الْمُفْعَمَةِ بِالرُّعْب.
أَيَّتُهَا الْمُسُوخُ النَّائِحَةُ عَلَى ثِيَابِهَا!
أَيَّتُهَا الْخُصُورُ الْمُضْحِكَةُ! وَالْجُذُوعُ الْجَدِيرَةُ بِالأَقْنِعَة!
أَيَّتُهَا الأَجْسَادُ الْبَائِسَةُ الْمُلْتَوِيَةُ، الضَّامِرَةُ، الرِّخْوَةُ أَو ذَاتُ الْكُرُوش،
الَّتِي لَفَّهَا إِلَهُ الْمَنْفَعَةِ، الصَّارِمُ الْهَادِئ،
كَأَطْفَالٍ، فِي أَقْمِطَتِهِ الْفُولاَذِيَّة!
وَأَنْتُنَّ، أَيَّتُهَا النِّسَاءُ، وَا أَسَفَاه! شَاحِبَاتٌ كَالشُّمُوع،
يَنْخُرُكُنَّ وَيَغْتَذِي بِكُنَّ الْفُجُورُ، وَأَنْتُنَّ، أَيَّتُهَا الْعَذَارَى،
تُجَرْجِرْنَ مِيرَاثَ الرَّذِيلَةِ الأُمُومِيَّة
وَكُلَّ بَشَاعَاتِ الْخُصُوبَة!

نَحْنُ الأُمَمَ الْفَاسِدَةَ نَمْلِكُ، حَقًّا،

أَنْوَاعًا مِنَ الْجَمَالِ مَجْهُولَةً لِلشُّعُوبِ الْقَدِيمَة:
وُجُوهٌ نَخَرَتْهَا قُرُوحُ الْقَلْب،
وَمَا يُسَمِّيه الْمَرْءُ جَمَالِيَّاتِ الْفُتُور؛
لَكِنَّ هَذِهِ الْمُخْتَرَعَاتِ لِرَبَّاتِ شِعْرِنَا الْمُتَأَخِّرَة
لَنْ تَمْنَعَ أَبَدًا الأَجْنَاسَ الْمَرِيضَة
مِنَ الاعْتِرَافِ الْعَمِيقِ بِفَضْلِ الشَّبَاب،
ـ الشَّبَابِ الْمُقَدَّسِ، بِسِيمَائِهِ الْبَسِيطَةِ، بِجَبِينِهِ الْعَذْب،
وَعَيْنِهِ الرَّائِقَةِ الصَّافِيَةِ كَمَاءٍ مُنْسَاب،
وَالَّذِي يَنْشُرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، خَلِيِّ الْبَال
مِثْلَ زُرْقَةِ السَّمَاء، وَالطُّيُورِ وَالزُّهُور،
عُطُورَه، وأَغَانِيهِ وَحَرَارَتَه الرَّهِيفَة!

٦

الفَنـارات

رُوبنز[١]، نَهْرُ نِسْيَانٍ، حَدِيقَةٌ لِلْكَسَل،
وِسَادَةُ لَحْمٍ طَرِيٍّ لاَ يُمْكِنُ الْحُبُّ عَلَيْهَا،
لَكِنَّ الْحَيَاةَ تَنْسَابُ فِيهَا وَتَخْتَلِجُ بِلاَ انْتِهَاء،
مِثْلَمَا الْهَوَاءُ فِي السَّمَاءِ وَالْبَحْرُ فِي الْبَحْر؛

لِيُونَارد دِي ڤِينشِي[٢]، مِرْآةٌ عَمِيقَةٌ مُعْتِمَة،
فِيهَا مَلاَئِكَةٌ سَاحِرُون، بِابْتِسَامَةٍ عَذْبَة
مُفْعَمَةٍ بِالْغُمُوضِ، يَتَجَلُّونَ فِي ظِل
رُكَامِ الْجَلِيدِ وَالصُّنُوبَرِ الَّتِي تُحِيطُ بِبِلاَدِهِم؛

رُمبرَانت[٣]، مُسْتَشْفَى كَئِيبَةٌ مَلِيئَةٌ بِالْهَمْهَمَات،

---

(١) روبنز: فنان فلمنكيّ (١٥٧٧ ـ ١٦٤٠).
(٢) ليونارد دي ڤينشي: فنان إيطاليّ (١٤٥٢ـ١٥١٩).
(٣) رمبرانت: فنان هولنديّ (١٦٠٦ـ١٦٦٩).

لاَ يُزَيِّنُهَا سِوَى صَلِيبٍ كَبِير،
حَيْثُ الصَّلَوَاتُ الدَّامِعَةُ تَصَّاعَدُ مِنَ الْقَاذُورَات،
وَيَخْتَرِقُهَا فَجْأَةً شُعَاعٌ شِتْوِي؛

مَايكِل أنْجِلُو[1]، مَكَانٌ ضَبَابِيٌّ نَرَى فِيهِ شُخُوص هِرقَل
تَمْتَزِجُ بِشُخُوصِ الْمَسِيح، وَأَشْبَاحًا قَوِيَّةً
تَنْبَثِقُ مُنْتَصِبَةً فِي الْغَسَق
فَتُمَزِّقُ أَكْفَانَهَا وَهِيَ تَفْرِدُ أَصَابِعَهَا؛

فَيَا غَضْبَةَ الْمُلاَكِم، يَا سَفَاهَةَ الطُّغْمَة،
لَقَد نَجَحْتِ فِي الْتِقَاطِ جَمَالِ الأَنْذَال،
قَلْبٌ كَبِيرٌ مُفْعَمٌ بِالكِبْرِيَاء، وَإِنْسَانٌ وَاهِنٌ مُصْفَر،
هُوَ بُوجِيه[2]، الإمْبَرَاطُورُ الْكَئِيبُ لِلْمَحْكُومِينَ بِالأَشْغَالِ الشَّاقَّة؛

وَاتُّو[3]، هَذَا الْمِهْرَجَانُ الَّذِي تَهِيمُ فِيهِ مُتَوَهِّجَةً
قُلُوبٌ مُبَرْقَشَةٌ، مِثْلَ الْفَرَاشَات،
زَخَارِفُ نَدِيَّةٌ رَشِيقَةٌ تُضِيئُهَا الثُّرَيَّات
الَّتِي تَصُبُّ الْجُنُونَ عَلَى هَذَا المَرْقَصِ الدَّائِر؛

---

(١) مايكل أنجلو: رسام ونحات إيطاليّ (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤).
(٢) بوجيه: نحات فرنسيّ (١٦٢٠ ـ ١٦٩٤).
(٣) واتو: رسام فرنسيّ (١٦٨٤ ـ ١٧٢١).

جُويَا[1]، كَابُوسٌ مَلِيءٌ بِالأَشْيَاءِ الْمَجْهُولَة،
بِأَجِنَّةٍ تُطْهَى فِي مَحَافِلِ السَّحَرَة،
بِعَجَائِزَ أَمَامَ الْمَرَايَا وَأَطْفَالٍ عُرَاة،
لإِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ الَّتِي تُحْكِمُ جَوَارِبَهَا؛

دِيلاكْرُوَا[2]، بُحَيْرَةُ دِمَاءٍ تَغْشَاهَا مَلَائِكَةٌ شِرِّيرَة،
تُظِلُّهَا غَابَةُ صُنُوبَر دَائِمَةُ الاخْضِرَار،
حَيْثُ تَمُرُّ فِرَقٌ مُوسِيقِيَّةٌ غَرِيبَةٌ، تَحْتَ سَمَاء كَئِيبَة،
مِثْلَ تَنْهِيدَةٍ مَكْتُومَةٍ لِڤِيبَر[3]؛

هَذِهِ اللَّعَنَاتُ، وَهَذَا التَّجْدِيفُ، وَهَذِهِ الأَنَّات،
هَذِهِ النَّشَوَاتُ، وَالصَّرَخَاتُ، وَالدُّمُوعُ، وَصَلَوَاتُ *الْحَمْدُ لَك*،
هِيَ صَدًى يَتَرَدَّدُ فِي أَلْفِ مَتَاهَة؛
هِيَ أَفْيُونٌ إِلَهِيٌّ لِلْقُلُوبِ الْفَانِيَة!

هِيَ صَرْخَةٌ يُرَدِّدُهَا أَلْفُ حَارِسٍ لَيْلِي،
أَمْرٌ يُبَلِّغُه أَلْفُ بُوق؛
فَنَارَةٌ مُضَاءَةٌ فَوْقَ أَلْفِ قَلْعَة،

---

(١) جويا: رسام إسبانيّ (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨).
(٢) ديلاكروا: رسام فرنسيّ (١٧٩٨ ـ ١٨٦٣)، كان بودلير شديد الإعجاب بأعماله.
(٣) ڤيبر: موسيقار ألمانيّ (١٧٨٦ ـ ١٨٢٦).

وَاسْتِغَاثَةُ صَيَّادِينَ ضَالِّينَ فِي الْغَابَاتِ الْكُبْرَى!

لأَنَّ أَفْضَلَ شَهَادَةٍ حقًّا، يَا رَبّ،
نَسْتَطِيعُ تَقْدِيمَهَا عَلَى كَرَامَتِنَا
هِيَ هَذَا الزَّفِيرُ الْمُتَّقِدُ الْمُنْسَابُ مِنْ عَصْرٍ إِلَى عَصْر
لِيَأْتِـيَ فَيَمُوتَ عَلَى شَاطِئِ أَبَدِيَّتِك!

٧

رَبَّةُ الشِّعرِ العَلِيلَة

يَا رَبَّةَ شِعْرِيَ العَلِيلَةَ، وَا أسَفَاه! مَاذَا جَرَى لَكِ هَذَا الصَّبَاح؟

عَيْنَاكِ الْغَائِرَتَانِ مُفْعَمَتَانِ بِالرُّؤَى اللَّيْلِيَّة،

وَعَلَى سِحْنَتِكِ يَنْتَشِرُ، وَاحِدًا وَرَاء الآخَر،

الْجُنُونُ وَالرُّعْبُ، وَالْبُرُودَةُ وَالسُّكُوت.

فَهَل صَبَّت الشَّيْطَانَةُ الْخَضْرَاءُ وَالْعِفْرِيتُ الْوَرْدِي

عَلَيْكِ الْخَوْفَ وَالْحُبَّ مِنْ جِرَارِهِمَا؟

هَل أَغْرَقَكِ الْكَابُوسُ، بِقَبْضَةٍ مُسْتَبِدَّةٍ عَاصِيَة،

فِي أَعْمَاقِ «مِينتُورن»[1] خُرَافِيَّة؟

كَم أَوَدُّ أَنْ تَغْشَى الأَفْكَارُ الْقَوِيَّة دَائِمًا

صَدْرَكِ الَّذِي يَفُوحُ بِأَرِيجِ الْعَافِيَة،

---

(١) مُستنقَع بجنوب روما.

وَأَنْ يَنْسَابَ دَمُكِ الْمَسِيحِيُّ فِي دَفْقَاتٍ إِيقَاعِيَّة

مِثْلَ الأَصْوَاتِ الْمُوَقَّعَةِ لِلْمَقَاطِعِ الْقَدِيمَة،
الَّتِي يُهَيْمِنُ عَلَيْهَا بِالتَّنَاوُبِ أَبُ الأَغَانِي
فُويبُوس، وَبَان الْعَظِيمُ[1] سَيِّدُ الْحَصَاد.

(١) هو الإله «بان»، إله الرّيف والموسيقى.

٨

ربّةُ الشّعرِ الدَّنيئَة

يَا رَبَّةَ قَلْبِي، يَا عَاشِقَةَ الْقُصُور،
عِنْدَمَا يُطْلِقُ يَنَايرُ الْعِنَانَ لِرِيَاحِهِ الشَّمَالِيَّة،
خِلاَلَ الضَّجَرِ الأَسْوَد للأُمْسِيَاتِ الثَّلْجِيَّة،
هَل سَتَمْلِكِينَ جَمْرَةً لِتُدْفِئِي قَدَمَيْكِ الْبَنَفْسَجِيَّتَيْن؟

هَل سَتَبْعَثِينَ إِلَى الْحَيَاةِ كَتِفَيْكِ الرُّخَامِيَّتَيْن
فِي الأَشِعَّةِ اللَّيْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَرِقُ الْمَصَارِيع؟
وَإِذ تُحِسِّينَ بِكِيسِ نُقُودِكِ خَاوِيًا شَأنَ قَصْرِك،
هَلْ سَتَحْصُدِينَ الذَّهَبَ مِنَ الْقِبَابِ اللاَّزِوْرَدِيَّة؟

فَعَلَيْكِ، لِتَكْسَبِي قُوتَ يَوْمِكِ كُلَّ مَسَاء،
مِثْلَ طِفْلٍ فِي الْجُوقَةِ، يَلْعَبُ بِالْمبْخَرَة،
أَنْ تُنْشِدِي لَكَ **الْحَمْدُ** الَّتِي لاَ تُؤْمِنِينَ بِهَا أَبَدا،

أَو، كَبَهْلَوَانٍ جَائِعٍ، تَعْرِضِينَ مفَاتِنَكِ
وَضِحْكَتَكِ الْمُبَلَّلَةَ بِالدُّمُوعِ الَّتِي لاَ يَرَاهَا أَحَد،
مِنْ أَجْلِ تَسْلِيَةِ الرَّعَاع.

٩

الرَّاهبُ الفَاسد

كَانَتِ الأَدْيِرَةُ الْقَدِيمَةُ تَعْرِض فِي لَوْحَات
عَلَى الأسْوَارِ الْهَائِلَة، الْحَقِيقَةَ الْمُقَدَّسَة
الَّتِي كَانَ تَأْثِيرُهَا، الْمُلْهِبُ لِلْقُلُوبِ الْوَرِعَة،
يُخَفِّفُ مِنْ بُرُودَةِ زُهْدِهَا.

فِي تِلْكَ الأَزْمَانِ حِينَ كَانَ مَسِيحٌ يُزْهِرُ مَوَاسِمَ الزَّرْع،
كَانَ أَكْثَرُ مِن رَاهِبٍ شَهِيرٍ، قَلِيلاً مَا يَرِدُ لَه الآنَ ذِكْر،
يُمَجِّدُ الْمَوْتَ بِبَسَاطَة،
مُتَّخِذًا مِن مَجَالِ الْجنَازَاتِ وَرْشَةَ عَمَلٍ لَه.

ـ رُوحِي مَقْبَرَةٌ، أَسْكُنُ فِيهَا وَأَطُوف،
كَرَاهِبٍ فَاسِدٍ، مُنْذُ الأَزَل؛
وَلاَ شَيْءَ يُزَيِّنُ جُدْرَانَ هَذَا الدِّيرِ الْبَشِع.

أَيُّهَا الرَّاهِبُ الْكَسُول! مَتَى سَأَسْتَطِيعُ إِذَن
القِيَامَ بِعَرْضٍ حَيٍّ لِبُؤْسِي الْكَئِيب،
مَا تَفْعَلُه يَدَايَ وَتُحِبُّه عَيْنَاي؟

١٠

العَـدُوّ

لَم يَكُن شَبَابِي سِوَى عَاصِفَةٍ مُظْلِمَة،
تَقْطَعُهَا هُنَا وَهُنَاكَ شُمُوسٌ بَاهِرَة؛
تَسَبَّبَ الرَّعْدُ وَالْمَطَرُ فِي ذَلِكَ الْخَرَاب
الَّذِي لَم يُبْقِ فِي حَدِيقَتِي إِلاَّ عَلَى الْقَلِيلِ مِنَ الثِّمَارِ الْمُتَوَرِّدَة.

وَهَا أَنَذَا الآنَ قَد لاَمَسْتُ خَرِيفَ الأَفْكَار،
وَلاَ بُدَّ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْجَارُوفِ وَالْجَرَّافَات
لإِعَادَةِ تَوْحِيدِ الأَرْضِ الْمَغْمُورَةِ بِالْمِيَاهِ مِنْ جَدِيد،
الَّتِي يَحْفُرُ الْمَاءُ فِيهَا فَجَوَاتٍ كَبِيرَةً كَالْقُبُور.

وَمَن يَدْرِي، مَا إِذَا كَانَت الزُّهُورُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي أَحْلُمُ بِهَا
سَتَجِدُ فِي هَذِهِ الأَرْضِ الْمَغْسُولَةِ مِثْلَ رِمَالِ السَّاحِل
الْغِذَاءَ الرُّوحِيَّ الَّذِي يَمْنَحُهَا الْحَيَوِيَّة؟

أَيُّهَا الأَلَم! أَيُّهَا الأَلَم! الزَّمَنُ يَلْتَهِمُ الْحَيَاة،
وَالْعَدُوُّ الْغَامِض الَّذِي يَقْضُمُ مِنَّا الْقَلْب،
يَنْمُو وَيَقْوَى بِمَا نَفْقِدُ مِنْ دِمَاء!

١١
الشُّؤم

لِرَفْعِ عِبْءٍ ثَقِيلٍ، يَا سِيزِيف[١]،
يَحْتَاجُ الْمَرْءُ إِلَى شَجَاعَتِك!
وَحَتَّى لَو امْتَلَكَ الْجَسَارَةَ فِي الْعَمَل،
فَالْفَنُّ طَوِيلٌ وَالزَّمَنُ قَصِير.

بَعِيدًا عَنِ الْجَبَّانَاتِ الشَّهِيرَة،
وَإِلَى مَقْبَرَةٍ مَعْزُولَة،
فَلْتَمْضِ، يَا قَلْبُ، مِثْلَ طَبْلٍ مَبْحُوح،
وَأَنْتَ تَدُقُّ الأَلْحَانَ الْجِنَائِزِيَّة.

ـ جَوَاهِرُ كَثِيرَةٌ تَرْقُدُ مَدْفُونَة
فِي الظُّلُمَاتِ وَالنِّسْيَان،

---

(١) شخصيّة أسطورّية يونانيّة، حُكم عليها بدفع حجر دائماً إلى قمة جبل. وما إن يبلغ القمة حتى ينحدر الحجر إلى الأسفل، فيعود إلى دفعه إلى القمّة من جديد.

بَعِيدًا عَنِ الْمَعَاوِلِ وَآلاَتِ الْحَفْرِ؛

وَزُهُورٌ كَثِيرَةٌ تُرِيقُ عَلَى مَضَض
أَرِيجَهَا الْعَذْبَ مِثْلَ سِرٍّ
فِي الْعُزْلَةِ الْعَمِيقَة.

١٢

الحيَاةُ السَّابقة

أَقَمْتُ طَوِيلاً تَحْتَ أَرْوِقَةٍ شَاسِعَة
كَانَت الشُّمُوسُ الْبَحْرِيَّةُ تُلَوِّنُهَا بِأَلْفِ نَار،
وَأَعْمِدَتُهَا الضَّخْمَةُ، الْمُسْتَقِيمَةُ الْمهِيبَة،
تَجْعَلُهَا، فِي الْمَسَاءِ، شَبِيهَةً بِالْكُهُوفِ الْبَازَلْتِيَّة.

وَالأَمْوَاجُ، الَّتِي تَتَدَحْرَجُ عَلَيْهَا صُوَرُ السَّمَاوَات،
كَانَت تَمْزِجُ بِطَرِيقَةٍ جَلِيلَةٍ وَرُوحِيَّة
التَّنَاغُمَاتِ الْهَائِلَةَ لِمُوسِيقَاهَا الْغَنِيَّة
بِأَلْوَانِ الْغُرُوبِ الْمُنْعَكِسَةِ فِي عَيْنَي.

هُنَاكَ عِشْتُ فِي الشَّهَوَاتِ الْهَادِئَة،
وَسْطَ اللاَّزَوْرَدِ، وَالأَمْوَاجِ، وَالرَّوَائِع
وَعَبِيدٍ عُرَاةٍ مُشْبَعِينَ بِالْعُطُور،

كَانُوا يُرَطِّبُونَ جَبِينِي بِمَرَاوِحَ السَّعَف،

وَلاَ هَمَّ لَهُم سِوَى اكْتِشَاف

السِّرِّ الأَلِيمِ الَّذِي يَدْفَعُنِي إِلَى الْفُتُور.

١٣
ارْتِحالُ الْفَجر

الْقَبِيلَةُ الْمُتَنَبِّئَةُ ذَاتُ الْعُيُونِ الْمُتَّقِدَة
انْطَلَقَت بِالأَمْسِ، حَامِلَةً أَطْفَالَهَا
عَلَى ظُهُورِهَا، أَو مُسْلِمِينَ لِشَهِيَّتِهِم الْمُتَمَنِّعَة
الذَّخِيرَةَ الْجَاهِزَةَ دَائِمًا لِلأَثْدَاءِ الْمُتَهَدِّلَة.

يَمْضِي الرِّجَالُ مُتَرَجِّلِينَ تَحْتَ أَسْلِحَتِهِم اللاَّمِعَة
بِحِذَاءِ الْعَرَبَاتِ الَّتِي تَكَدَّسَت عَائِلاَتُهُم فِيهَا،
وَهُم يَجُولُونَ بِأَبْصَارِهِم الْمُرْهَقَةِ فِي السَّمَاوَات
بِأَسًى كَئِيبٍ عَلَى الأَوْهَامِ الضَّائِعَة.

وَمِنْ أَعْمَاقِ مَكْمَنِهِ الرَّمْلِيِّ، يُضَاعِفُ الصُّرْصَار،
حِينَ يُشَاهِدُهُم يَمُرُّون، مِنْ أُنْشُودَتِه؛
وَسِيبِيل، الَّتِي تُحِبُّهُم، تُزِيدُ مِن خُضْرَتِهَا،

تَجْعَلُ الْحَجَرَ يَتَفَجَّرُ بِالْمَاء، وَتُزْهِرُ الصَّحرَاء
أَمَامَ هَؤُلاَءِ الرُّحَّلِ، الَّذِينَ انْفَتَحَت لَهُمُ
الْمَمْلَكَةُ الْمَعْهُودَةُ لِلظُّلُمَاتِ الْقَادِمَة.



١٤

الإنسانُ والبَحر

أَيُّهَا الإِنْسَانُ الْحُر، دَائِمًا مَا سَتَعْشَقُ الْبَحْر!
الْبَحْرُ مِرْآتُك؛ وَأَنْتَ تَتَأَمَّلُ نَفْسَك
فِي تَعَاقُبِ أَمْوَاجِهِ اللاَّنِهَائِي،
وَرُوحُكَ لَيْسَت هَاوِيَةً أَقَلَّ مَرَارَة.

تَسْتَمْتِعُ بِالْغَوْصِ فِي قَلْبِ صُورَتِك؛
تُعَانِقُهَا بِعَيْنَيْكَ، وَذِرَاعَيْكَ. وَقَلْبُك
يَسْهُو أَحْيَانًا عَنْ دَقَّاتِهِ الْمُنْتَظِمَة
فِي صَخَبِ هَذَا الأَنِينِ الْجَامِحِ الْوَحْشِي.

أَنْتُمَا مُظْلِمَانِ وَكَتُومَان:
فَأَيُّهَا الإِنْسَانُ، مَا مِنْ أَحَدٍ سَبَرَ أَغْوَارَ هَاوِيَاتِك؛
وَأَيُّهَا الْبَحْرُ، مَا مِنْ أَحَدٍ يَعْرِفُ كُنُوزَكَ الْحَمِيمَة،
وَمَا أَشَدَّ غِيرَتَكُمَا عَلَى الاحْتِفَاظِ بِالأَسْرَار!

وَمَعَ هَذَا، فَهَا هِيَ قُرُونٌ بِلاَ حَصْر
وَأَنْتُمَا تَتَصَارَعَانِ بِلاَ رَحْمَةٍ وَلاَ نَدَم،
لِفَرْطِ مَا تَعْشَقَانِ الْمَذْبَحَةَ وَالْمَوْت،
أَيُّهَا الْمُقَاتِلاَنِ الأَبَدِيَّانِ، أَيُّهَا الشَّقِيقَانِ اللَّدُودَان!

١٥

دُون جُوان في الجحيم

عِنْدَمَا نَزَلَ دُون جُوَان إِلَى بَحْرِ الأَعْمَاق
وَبَعْدَمَا أَعْطَى عُمْلَتَه النَّقْدِيَّةَ إِلَى شَارُون[١]،
قَبَضَ عَلَى الْمَجَاذِيفِ شَحَّاذٌ كَئِيبٌ، ذو نَظْرَةٍ مُتَعَالِيَة،
مِثْلَ أَنْتِسْتِين[٢]، بِذِرَاعٍ قَوِيَّةٍ مُنْتَقِمَة.

كَانَت نِسَاءٌ أَثْدَاؤُهُنَّ الْمُتَهَدِّلَةُ مَكْشُوفَةٌ وَثِيَابُهُنَّ مَفْتُوحَة،
يَتَلَوَّينَ تَحْتَ السَّمَاءِ السَّوْدَاء،
وَمِثْلَ قَطِيعٍ كَبِيرٍ مِنَ ضَحَايَا الْقَرَابِين،
كُنَّ يُجَرْجِرْنَ وَرَاءَه عَوِيلاً طَوِيلا.

---

(١) «شارون»: الملاّح الذي يسمح لأرواح الموتى بعبور نهر «ستيكس»، أحد أنهار الجحيم، في الأساطير اليونانيّة، مقابل قطعة نقديّة.

(٢) فيلسوف يونانيّ (٤٤٤ ـ ٣٦٥ ق.م)، مُؤَسِّس مدرسة تحتقر النقود والخيرات الماديّة. وقد التزم بالعيش حياة فقيرة ليتوافق مع مبادئه.

رَاحَ سجَانَارِيل[1] يُطَالِبُه بِأَجْرِهِ ضَاحِكا،
فِيمَا كَانَ دُون لِوِي[2] يُرِي بِإِصْبَعٍ مُرْتَعِش
الابْنَ الْوَقِحَ الَّذِي هَزَأَ بِشَيْبِه
لِكُلِّ الْمَوْتَى الْهَائِمِينَ عَلَى الشَّوَاطِئ.

وَمُرْتَعِشَةً فِي حِدَادِهَا، كَانَت إلقِير[3] الطَّاهِرَةُ النَّحِيلَة،
إِلَى جِوَارِ الزَّوْجِ الْخَائِنِ الَّذِي كَانَ عَشِيقَهَا،
تَبْدُو مُسْتَجْدِيَةً مِنْه لابْتِسَامَةٍ أَخِيرَة
تَوَهَّجَت فِيهَا عُذُوبَةُ قَسَمِهِ الأَوَّل.

مُنْتَصِبًا فِي دُرُوعِهِ، كَانَ رَجَلٌ حَجَرِيٌّ عِمْلاَق[4]
يُمْسِكُ بِالدَّفَّةِ وَيَقْطَعُ الْمَوْجَ الأَسْوَد؛
لَكِنَّ الْبَطَلَ الْهَادِئَ، مُنْحَنِيًا عَلَى سَيْفِه،
كَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَثَرِ الْقَارِبِ دُونَ اكْتِرَاثٍ بِأَنْ يَرَى.

---

(١) خادم «دون جوان» في مسرحية موليير.
(٢) والد «دون جوان».
(٣) الزوجة الأخيرة لدون جوان.
(٤) إشارة إلى تمثال حجريّ لفارس كان «دون جوان» قد قتله قبل شهور، وأقامته له ابنته عند قبره.

١٦

عقابُ الغَطْرَسة

فِي تِلْكَ الأَزْمَانِ الرَّائِعَةِ الَّتِي ازْدَهَرَ فِيهَا اللاَّهُوت

بِأَقْصَى طَاقَةٍ وَحَيَوِيَّة،

يُحْكَى أَنَّ أَحَدَ الأَحْبَارِ الْعُظَمَاء

ـ بَعْدَ أَنْ نَفَذَ إِلَى الْقُلُوبِ اللاَّمُبَالِيَة،

وَهَزَّ أَعْمَاقَهُم الْحَالِكَة؛

وَبَعْدَ أَن اجْتَازَ إِلَى الأَمْجَادِ السَّمَاوِيَّة

طُرُقًا فَرِيدَةً لَم تَخْطُر له عَلَى بَال،

وَرُبَّمَا لَم تَطَأهَا قَبْلَه سِوَى الأَرْوَاحِ الْخَالِصَة،

وَمِثْلَمَا يَرْتَقِي الإِنْسَانُ إِلَى ذُرًى شَامِخَةٍ، فَيَتَمَلَّكه الرُّعْب،

صَرَخَ، مُهْتَاجًا بِغَطْرَسَةٍ شَيْطَانِيَّة:

«يَا يسُوع، يَسُوعَ الصَّغِير! لَقَد رَفَعْتُكَ إِلَى الأَعَالِي!

لَكِنِّي، لَو أَرَدْتُ مُهَاجَمَتَك عَارِيًا مِنَ الدُّرُوع،

فَسَوْفَ يَتَسَاوَى عَارُكَ مَعَ مَجْدِك،

وَلَن تُصْبِحَ أَكْثَرَ مِنْ شَخْصٍ مُثِيرٍ لِلسُّخْرِيَة!»

فِي الْحَالِ فَقَد عَقْلَه.

وَضوءُ تِلْكَ الشَّمْسِ احْتَجَبَ بِسِتَارَةٍ سَوْدَاء؛

وَاجْتَاحَ هَذَا الْعَقْلَ الْعَماء،

بَعْدَ أَن كَانَ مَعْبَدًا حَيًّا، عَامِرًا بِالنِّظَامِ وَالرَّخَاء،

وَتَحْتَ سُقُوفِهِ تَتَوَهَّجُ الْعَظَمَة.

حَلَّ عَلَيْهِ الصَّمْتُ وَالظَّلاَم،

مِثْلَ قَبْوٍ ضَاعَ مِفْتَاحُه.

مُذ ذَاكَ أَصْبَحَ شَبِيهًا بِحَيَوانَاتِ الشَّوَارِع،

وَعِنْدَمَا كَانَ يَهِيمُ عَلَى وَجْهِه، دُونَ أَنْ يَرَى،

عَبْرَ الْحُقُولِ، دُونَ تَمْيِيزِ الصَّيْفِ مِنَ الشِّتَاء،

قَذِرًا، بِلاَ نَفْعٍ وَقَبِيحًا مِثْلَ شَيْءٍ مُسْتَهْلَك،

كَانَ يُحَقِّقُ لِلأَطْفَالِ الْبَهْجَةَ وَالسُّخْرِيَة.

١٧

الجمَـال

أَنَا جَمِيلَةٌ، أَيُّهَا الْفَانُون! مِثْلَ حُلْمٍ مِن حَجَر،
وَصَدْرِي، الَّذِي تَهَالَكَ عَلَيْهِ الْجَمِيعُ وَاحِدًا وَاحِدًا،
مَخْلُوقٌ لإِلْهَامِ الشَّاعِر
بِحُبٍّ أَبَدِيٍّ صَامِتٍ مِثْلَ الْمَادَّة.

أَتَبَوَّأُ عَرْشَ اللاَّزَوَرْدِ مِثْلَ أَبِي هَوْلٍ غَامِض؛
وَأُوَحِّدُ بَيْنَ قَلْبٍ مِنْ ثَلْجٍ وَبَيَاضِ الْبَجَع؛
أَكْرَهُ الْحَرَكَةَ الَّتِي تُزِيحُ الْخُطُوط،
وَأَبَدًا لاَ أَبْكِي وَلاَ أَضْحَكُ أَبَدا.

وَأَمَامَ أَوْضَاعِي الْعَظِيمَة،
الَّتي اسْتَعَرْتُهَا فِيمَا يَبْدُو مِنَ الصُّرُوحِ الشَّامِخَة،
سَيُنْفِقُ الشُّعَرَاءُ أَيَّامَهُم فِي دِرَاسَاتٍ صَارِمَة؛

لأَنَّ لِي ـ كَي أَفْتِنَ هَؤُلاَءِ الْعُشَّاقَ الطَّائِعِين ـ
مِرْآتَيْنِ صَافِيَتَيْنِ تَجْعَلاَنِ كُلَّ شَيْءٍ أَجْمَل،
عَيْنَايَ، عَيْنَايَ الْوَاسِعَتَانِ الْمُفْعَمَتَانِ بِالنَّضَارَةِ الأَبَدِيَّة!

١٨

المِثال

لَنْ تكُونَ أَبَدًا جَمالِيَّاتُ الزَّخْرَفَه،
تِلْكَ الْمُنْتَجاتُ الْفَاسِدَةُ، وَلِيدَةُ قَرْنٍ تَافِه،
وَتِلْكَ الأَقْدَامُ ذَاتُ الأَخْفَافِ، وَالأَصَابِعُ ذَاتُ الصُّنُوج،
هِيَ مَا تُشْبِعُ قَلْبًا مِثْلَ قَلْبِي.

أَتْرُكُ لِجَاڤَارْنِي[1]، شَاعِرِ الأَنِيمِيَا،
قُطْعَانَه الْمُغَرِّدَةَ مِنْ جَمَالِيَّاتِ الْمُسْتَشْفَى،
لأَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ العُثُورَ فِي هَذِهِ الْوُرُودِ الشَّاحِبَة
عَلَى زَهْرَةٍ تُمَاثِلُ لَوْنِيَ الأَحْمَرَ الْمِثَالِي.

فَمَا يَحْتَاجُه هَذَا الْقَلْبُ الْعَمِيقُ كَهَاوِيَة،
هُوَ أَنْتِ، يَا لِيدِي مَاكبث[2]، النَّفْسُ الْقَادِرَةُ عَلَى الْجَرِيمَة،

---

(١) وسام فرنسيّ (١٨٠٤ـ١٨٦٦).
(٢) بطلة مسرحية «ماكبث» لشيكسبير.

يَا حُلْمَ إِيسْخِيل[1] الْبَاذِخَ فِي مَنَاخِ الرِّيَاحِ الْجَنُوبِيَّة؛

أَو بِالأَحْرَى أَنْتِ، أَيَّتُهَا **اللَّيْلَةُ**[2] الْعَظِيمَةُ، ابْنَةَ مَايكِل أنجِلُو،
الَّتِي تَلْوِينَ بِسَكِينَةٍ، فِي وَضْعٍ غَرِيب،
مَفَاتِنَكِ الْمَجْبُولَةَ مِنْ أَجْلِ أَفْوَاهِ الْعَمَالِيق!

(١) أعظم مؤلفي الدراما في اليونان القديمة.
(٢) إشارةً لتمثال «الليلة» الذي أنجزه مايكل أنجلو بقبر جوليان بكنيسة آل مديتشي بفلورنسا.

١٩

العملاقة

وَقْتَ أَنْ كَانَت الطَّبِيعَةُ فِي ذرْوَةِ عُنْفُوَانِهَا
تَحْبَلُ كُلَّ يَوْمٍ بِأَطْفَالٍ خَارِقِين،
كَانَ لِي أَنْ أُحِبَّ الْعَيْشَ إِلَى جَانِبِ فَتَاةٍ عِمْلاَقَة،
كَقِطَّةٍ شَهْوَانِيَّةٍ عِنْدَ أَقْدَامِ مَلِكَة.

وَكَانَ لِي أَنْ أُحِبَّ رُؤْيَةَ جَسَدِهَا يَتَفَتَّحُ مَع رُوحِهَا
وَيَنْمُو حُرًّا فِي أَلْعَابِهَا الرَّهِيبَة؛
وَأُخَمِّنُ مَا إِذَا كَانَ قَلْبُهَا يَنْطَوِي عَلَى لَهِيبٍ قَاتِمٍ
مِنَ الضَّبَابِ الْبَلِيلِ الَّذِي يَعُومُ فِي عَيْنَيْهَا؛

وَأَجُولُ وَقْتَ الْفَرَاغِ فِي أَشْكَالِهَا الرَّائِعَة؛
أَزْحَفُ عَلَى مُنْحَدَرِ ركْبَتَيْهَا الْهَائِلَتَيْنِ،
وَأَحْيَانًا ـ فِي الصَّيْفِ ـ عِنْدَمَا تَكُونُ الشُّمُوسُ مُؤْذِيَة،

أُمَدِّدُهَا ـ وَهيَ مُرْهَقَةٌ ـ عَبْرَ الرِّيف،

وَأَنَامُ بِلاَ مُبَالاَةٍ فِي ظِلِّ ثَدْيَيْهَا،

مِثْلَ نَجْعٍ هَادِئٍ عِنْدَ سَفْحِ جَبَل.

٢٠

القنَـاع

تمثال رمزي بأسلوب عصر النهضة

إلـى المثّال إرنست كريستوف



فَلْنَتَأَمَّل هَذَا الْكَنْـزَ مِنَ الْمَفَاتِنِ الْفُلُورِنسِيَّة؛
فَفِي تَضَارِيسِ هَذَا الْجَسَدِ مَفْتُولِ الْعَضَلاَت
تَتَوَفَّرُ الرَّشَاقَةُ وَالْقُوَّةُ، الشَّقِيقَتَانِ الإِلَهِيَّتَان.
هَذِهِ الْمَرْأَةُ، الْعَمَلُ الْمُعْجِزُ حَقًّا،
الْقَوِيَّةُ بِصُورَةٍ إِلَهِيَّةٍ، وَالنَّحِيلَةُ بِصُورَةٍ رَائِعَة،
مَخْلُوقَةٌ لاعْتِلاَءِ أَسِرَّةٍ بَاذِخَة،
وَفِتْنَةِ كَاهِنٍ أَوْ أَمِيرٍ فِي أَوْقَاتِ الْفَرَاغ.

ـ وَلْتَرَوْا أَيْضًا هَذِهِ الْبَسْمَةَ الرَّهِيفَةَ الشَّهْوَانِيَّة
حَيْثُ الْغُرُورُ يَجُولُ فِي نَشْوَتِهَا؛
وَهَذِهِ النَّظْرَةَ الطَّوِيلَةَ الْمَاكِرَةَ، الْفَاتِرَةَ السَّاحِرَة؛
وَهَذَا الْوَجْهَ الْمُدَلَّلَ، الْمُحَاطَ بِغُلاَلَةٍ شَفَّافَة،
وَكُلُّ مَلْمَحٍ فِيهِ يَقُولُ بِسِيمَاءَ ظَافِرَة:

«الشَّهْوَةُ تَدْعُونِي وَالْحُبُّ يُتَوِّجُنِي!»
وَلْتَرَوْا أَيَّةَ فِتْنَةٍ مُثِيرَةٍ تَمْنَحُهَا اللَّطَافَة!
فَلْنَقْتَرِب وَلْنَدُر حَوْلَ جَمَالِه.

يَا لَتَجْدِيفِ الْفَن! أَيَّتُهَا الْمُفَاجَأَةُ الْقَاتِلَة!
فَالْمَرْأَةُ ذَاتُ الْجَسَدِ الرَّبَّانِي، الْوَاعِدِ بِالسَّعَادَة،
تَنْتَهِي فِي الأَعْلَى إِلَى وَحْشٍ بِرَأسَيْن!

ـ كَلاَّ! فَذَلِكَ لَيْسَ إِلاَّ قِنَاعًا، زَخْرَفَةً خَادِعَة،
ذَلِكَ الْوَجْهُ الَّذِي تُضِيئُه تَكْشِيرَةٌ سَاحِرَة،
وَانْظُر، هَا هِيَ، مُتَشَنِّجَةً بِوَحْشِيَّة،
الرَّأسُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَالْوَجْهُ الصَّادِق
مَقْلُوبٌ بَعِيدًا عَنِ الْوَجْهِ الكَاذِب.
أَيُّهَا الْجَمَالُ الْعَظِيمُ الْبَائِس! فَالنَّهْرُ الرَّائِع
لِدُمُوعِكَ يَنْسَابُ إِلَى قَلْبِيَ الْمَهْمُوم؛
كِذْبُكَ يُسْكِرُنِي، وَرُوحِيَ تَرْتَوِي
مِنَ الأَمْوَاجِ الَّتِي يُفَجِّرُهَا الأَلَمُ مِنْ عَيْنَيْك!

ـ لَكِنْ لِمَاذَا تَبْكِي؟ هِيَ، الْجَمَالُ الْكَامِل،
الَّتِي كَانَ لَهَا أَنْ تَضَعَ عِنْدَ قَدَمَيْهَا الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ مَهْزُومًا،
أَيُّ شَرٍّ غَامِضٍ يَنْخُرُ فِي خَصْرِهَا الرِّيَاضِي؟

ـ تَبْكِي، أَيُّهَا الأَحْمَقُ، لأَنَّهَا عَاشَت!
وَلأَنَّهَا تَعِيش! لَكِنَّ أَكْثَرَ مَا تَأسَى لَه،
وَمَا يَدْفَعُهَا إِلَى الارْتِعَادِ حَتَّى الرُّكْبَتَيْن،
هُوَ أَنَّهَا فِي الْغَدِ، وَا أَسَفَاه! عَلَيْهَا أَيْضًا أَنْ تَعِيش!
غَدًا، وَبَعْدَ غَدٍ، وَأَبَدًا! ـ مِثْلَنَا!

٢١

تَرْنِيمَةٌ إِلَى الجَمَال

أَتَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ الْغَائِرَةِ أَم تَصْعَدُ مِنَ الْهَاوِيَة،
أَيُّهَا **الْجَمَال**؟ نَظْرَتُكَ، الشَّيْطَانِيَّةُ وَالإِلَهِيَّة،
تَنْشُرُ - فِي فَوْضَى - الْخَيْرَ وَالْجَرِيمَة،
وَلِهَذَا يُمْكِنُ تَشْبِيهُكَ بِالْخَمْر.

تَحْتَوِي فِي عَيْنَيْكَ الْغُرُوبَ وَالْفَجْر؛
وَتُبَعْثِرُ الْعُطُورَ مِثْلَ مَسَاءٍ عَاصِف؛
قُبُلاَتُكَ شَرَابُ الْمَحَبَّةِ وَفَمُكَ قَارُورَة
تَدْفَعُ الْبَطَلَ إِلَى الْجُبْنِ وَالطِّفْلَ إِلَى الشَّجَاعَة.

أَتَصْعَدُ مِن لُجَّةٍ سَوْدَاءَ أَم تَهْبِطُ مِنَ النُّجُوم؟
وَ**الْقَدَرُ** الْمَفْتُونُ يَتْبَعُ أَذْيَالَ ثَوْبِكَ مِثْلَ كَلْب؛
تَبْذُرُ كَيْفَمَا اتُّفِقَ الْبَهْجَةَ وَالْكَوَارِث،
وَتُهَيْمِنُ عَلَى الْكُلِّ بِلاَ مَسْئُولِيَّةٍ عَن شَيْء.

تَخْطُو فَوْقَ الْمَوْتَى، أَيُّهَا الْجَمَالُ، الَّذِينَ تَهْزَأُ بِهِم؛
وَمِن بَيْنِ مُجَوْهَرَاتِك لَيْسَ الرُّعْبُ أَقَلَّهَا فِتْنَة،
وَالْقَتْلُ، إِحْدَى حُلِيِّكَ الصَّغِيرَةِ الأَثِيرَة،
يَتَرَاقَصُ بِوَلَهٍ فَوْقَ بِطْنِكَ الْمُتَعَجْرِفَة.

الْفَرَاشَةُ الْمَبْهُورَةُ تَطِيرُ نَحْوَك، أَيَّتُهَا الشَّمْعَة،
تُفَرْقِعُ، تَحْتَرِقُ وَتَقُول: مُبَارَكٌ هَذَا اللَّهَب!
وَالْعَاشِقُ اللاَّهِثُ الْمُنْحَنِي عَلَى حَبِيبَتِه
لَهُ سِيمَاءُ مُحْتَضِرٍ يُرَبِّتُ عَلَى ضَرِيحِه.

مَا أَهَمِّيَّةُ أَنْ تَأْتِيَ مِنَ السَّمَاءِ أَم الْجَحِيم،
أَيُّهَا الْجَمَال! أَيُّهَا الْوَحْشُ الْهَائِلُ، الْمُرْعِبُ، الْبَرِيء!
إِذَا مَا فَتَحَت لِي عَيْنُكَ وَابْتِسَامَتُكَ وَقَدَمُكَ الْبَاب
إِلَى لانِهَائِيٍّ أُحِبُّه وَلَم أَعْرِفه أَبَدًا؟

مِنَ الشَّيْطَانِ أَمِ اللَّهِ، مَاذَا يَهم؟ مَلاَكٌ أَم حُورِيَّةُ بَحْر،
مَاذَا يَهم، لَو ـ كَجِنِّيَّةٍ ذَاتِ عَيْنَيْنِ مِن مَخْمَل،
وَإِيقَاعٍ وَعِطْرٍ وَإِشْرَاقٍ، آهِ مَلِيكَتِي الْفَرِيدَة!
جَعَلْتَ الْكَوْنَ أَقَلَّ دَمَامَةً وَاللَّحَظَاتِ أَقَلَّ وَطْأَة؟

٢٢
عِطْرُ غَرَائِبِي

عِنْدَمَا أَنْشَقُ عَبِيرَ ثَدْيِكِ السَّاخِن،
مُغْمَضَ الْعَيْنَيْنِ، فِي أُمْسِيَةٍ خَرِيفِيَّةٍ حَارَّة،
أَرَى مَبْسُوطَةً أَمَامِي شَوَاطِئَ سَعِيدَة
مَبْهُورَةً بِنِيرَانِ شَمْسٍ ثَابِتَة؛

جَزِيرَةٌ كَسُولَةٌ تَمْنَحُهَا الطَّبِيعَة
أَشْجَارًا فَرِيدَةً وَثِمَارًا شَهِيَّة؛
وَرِجَالاً أَجْسَادُهُم نَحِيلَةٌ وَقَوِيَّة،
وَنِسَاءً عُيُونُهُنَّ مُذْهِلَةٌ بِصَرَاحَتِهَا.

مُنْقَادًا بِعَبِيرِكِ نَحْوَ مَنَاخَاتٍ سَاحِرَة،
أَرَى مِينَاءً مُزْدَحِمًا بِالأَشْرِعَةِ وَالصَّوَارِي
الْمُرْهَقَةِ مَا تَزَالُ مِنَ الْمَوْجِ الْبَحْرِي،

فِيمَا أَرِيجُ شَجَرِ التَّمْرِ الْهِنْدِيِّ الأَخْضَر،
الَّذِي يَنْتَشِرُ فِي الْهَوَاءِ وَيُفْعِمُ أَنْفِي،
يَمْتَزِجُ فِي رُوحِيَ بِغِنَاءِ الْبَحَّارَة.

٢٣

خُصْلَةُ الشَّعـر

أَيَّتُهَا الْخُصْلَةُ، الْمُجَعَّدَةُ حَتَّى الْعُنُق!
أَيَّتُهَا التَّجْعِيدَات! أَيُّهَا الْعَبِيرُ الْمُفْعَمُ بِالْفُتُور!
أَيَّتُهَا النَّشْوَة! كَيْ أَعْمُرَ الْمِخْدَعَ الْمُعْتِمَ هَذَا الْمَسَاء
بِذِكْرَيَاتٍ نَائِمَةٍ فِي هَذِهِ الْخُصْلَة،
أُرِيدُ أَن أُلَوِّحَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ كَمِنْدِيل!

فَـآسْيَا الْكَسْلَى وَإِفْرِيقيَا الْمُتَّقِدَة،
عَالَمٌ كَامِلٌ بَعِيدٌ، وَغَائِبٌ، شِبْهَ مَيِّت،
يَحْيَا فِي أَعْمَاقِك، أَيَّتُهَا الْغَابَةُ الْعَطِرَة!
وَمِثْلَمَا تُبْحِرُ أَرْوَاحٌ أُخْرَى فِي الْمُوسِيقَى،
فَرُوحِيَ، يَا حُبِّي! تَسْبَحُ فِي عَبِيرِك.

سَأَمْضِي إِلَى هُنَاكَ، حَيْثُ الشَّجَرُ وَالإِنْسَانُ، الْمُتْرعَانِ بِالنَّسْغ،
مُخَدَّرَانِ طَوِيلاً تَحْتَ وَقْدَةِ الْمَنَاخ؛

فَلْتَكُونِي - أَيَّتُهَا الضَّفَائِرُ الْقَوِيَّةُ - الْمَوْجَةَ الَّتِي تَحْمِلُنِي!
فَأَنْتِ تَنْطَوِينَ - يَا بَحْرَ الأَبَنُوس - عَلَى حُلْمٍ بَاهِر
بِالأَشْرِعَةِ، وَالْمُجَذِّفِين، وَالنِّيرَانِ وَالصَّوَارِي:

مِينَاءٌ بَاهِرٌ يُمْكِنُ فِيهِ لِرُوحِي أَنْ تَعُبّ
فِي دَفْقَاتٍ هَائِلَةٍ الْعَبِيرَ وَالصَّوْتَ وَاللَّوْن؛
حَيْثُ السُّفُنُ، الْمُنْسَابَةُ فِي الذَّهَبِ وَالنَّسِيجِ الْمُتَمَاوِج،
تَفْتَحُ أَذْرِعَتَهَا الشَّاسِعَةَ لِتُعَانِقَ مَجْدَ سَمَاءٍ صَافِيَة
يَنْبِضُ فِيهَا الدِّفْءُ الأَبَدِي.

سَأَغْمُرُ رَأْسِيَ الشَّغُوفَةَ بِالسُّكر
فِي هَذَا الْمُحِيطِ الأَسْوَدِ الَّذِي يَسْجِنُ مُحِيطًا آخر؛
وَفِكْرِيَ الثَّاقِبُ الَّذِي يُدَغْدِغُه الْمَوْج
سَيَعْثُرُ عَلَيكَ مِنْ جَدِيدٍ، أَيُّهَا الْكَسَلُ الْخَصِيب!
أَيَّتُهَا الْهَدْهَدَاتُ اللاَّنِهَائِيَّةُ لِوَقْتِ الْفَرَاغِ الْمُعَطَّر!

أَيُّهَا الشَّعْرُ الأَزْرَقُ، الْخَيْمَةُ الْمَمْدُودَةُ مِنْ ظُلُمَات،
تَجْعَلُ لِي زُرْقَةَ السَّمَاءِ هَائِلَةً وَمُسْتَدِيرَة؛
وَعَلَى الْحَوَافِّ الزَّغَبِيَّةِ لِخُصْلاَتِكِ الْمُلْتَوِيَة
أَنْتَشِي بِشَوْقٍ بِالرَّوَائِحِ الْمَمْزُوجَة
لِزَيتِ جُوزِ الْهِنْدِ وَالْمِسْكِ وَالْقَطْرَان.

طَوِيلاً! دَائِمًا! سَتَبْذُرُ يَدِي فِي شَعْرِكِ الْغَزِيرِ الثَّقِيل
الْيَاقُوتَ وَاللُّؤْلُؤَ وَاللاَّزِوْرَد،
حَتَّى لاَ تَكُونِي صَمَّاءَ أَبَدًا أَمَامَ رَغْبَتِي!
أَلَسْتِ الْوَاحَةَ الَّتِي أَحْلُمُ بِهَا،
وَالْقَدَحَ الَّذِي أَحْتَسِي مِنْه فِي رَشْفَاتٍ طَوِيلَةٍ خَمْرَ الذِّكْرَى؟

٢٤

مثْلَ حَشْد منَ الدِّيْدَان[1]

أَعْشَقُكِ مِثْلَ قُبَّةِ السَّمَاءِ اللَّيْلِيَّة،
يَا زُهْرِيَّةَ الأَسَى، أَيَّتُهَا الصَّامِتَةُ الْعَظِيمَة،
وَأُحِبُّكِ أَكْثَرَ ـ أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ ـ عِنْدَمَا تَهْرُبِينَ مِنِّي،
وَعِنْدَمَا تَبْدِينَ لِي، يَا زِينَةَ لَيَالِيَّ،
وَأَنْتِ تَزِيدِينَ بِصُورَةٍ سَاخِرَةٍ مِنَ الْمَسَافَات
الْفَاصِلَةِ بَيْنَ ذِرَاعَيَّ وَالرَّحَابَةِ الزَّرْقَاء.

أَتَقَدَّمُ إِلَى الْهُجُومِ، وَأَتَسَلَّقُ إِلَى الاقْتِحَام،
مِثْلَ حَشْدٍ مِنَ الدِّيدَانِ عَلَى جُثَّة،
وَأَعْبُدُ، أَيُّهَا الْحَيَوَانُ الْقَاسِي الْعَنِيد!
حَتَّى هَذِهِ الْبُرُودَةَ الَّتِي تَجْعَلُكِ عِنْدِيَ أَجْمَل!

(١) القصيدة ـ أصلاً ـ بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

٢٥

أَيُّهَا الخزيُ السَّامي (١)

سَتَضَعِينَ الْعَالَمَ كُلَّه إِلَى جَنبِ سَرِيرِك،

أَيَّتُهَا الْمُدَنَّسَة! لَكِنَّ الضَّجرَ يَجْعَلُ رُوحَكِ قَاسِيَة.

وَكَي تُدَرِّبِي أَسْنَانَكِ عَلَى هَذِهِ اللُّعْبَةِ الْفَرِيدَة،

لاَ بُدُّ لَكِ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ قَلْبٍ فِي الْمِزْوَد.

عَيْنَاكِ، الْمُضَاءَتَانِ كَالْحَوَانِيت

وَأَعْمِدَةِ الإِنَارَة الْمُتَوَهِّجَةِ فِي الاحْتِفَالاَتِ الْعَامَّة،

تَسْتَخْدِمَانِ بِوَقَاحَةٍ قُوَّةً مُسْتَعَارَة،

دُونَ مَعْرِفَةٍ أَبَدًا بِقَانُونِهَا الْجَمَالِي.

أَيَّتُهَا الآلَةُ الْعَمْيَاءُ الصَّمَّاءُ، الْخِصْبَةُ بِالْقَسْوَة!

الأَدَاةُ الشَّافِيَةُ، الشَّارِبَةُ لِدَمِ الْعَالَم،

كَيْفَ لَم تُحِسِّي بِالْعَارِ وَلَم تَرَيْ

---

(١) القصيدة ـ أصلاً ـ بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

مَفَاتِنَكِ تَذْوِي فِي جَمِيعِ الْمَرَايَا؟

وَعَظَمَةُ هَذَا الشَّرِّ الَّذِي تَظُنِّينَ نَفْسَكِ خَبِيرَةً بِه

أَلاَ تَدْفَعُكِ أَبَدًا إِلَى التَّرَاجُعِ هَلَعًا،

عِنْدَمَا تَسْتَخْدِمُكِ الطَّبِيعَةُ، الْعَظِيمَةُ فِي أَهْدَافِهَا الْخَفِيَّة،

أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، يَا مَلِكَةَ الرَّذَائِل،

- **أَيَّتُهَا** الْحَيَوَانُ الدَّنِيءُ - فِي شَكْلِ جِنِّيّ؟

أَيَّتُهَا الْعَظَمَةُ الْمُوحِلَة! أَيُّهَا الْخِزْيُ السَّامِي!

٢٦

بِلاَ إِشبَاع[١]

أَيَّتُهَا الرَّبَّةُ الْغَرِيبَةُ، السَّمْرَاءُ مِثْلَ اللَّيَالِي،
ذَاتِ الْعِطْرِ الْمَزِيجِ مِنَ الْمِسْكِ وَالطِّبَاق،
يَا عَمَلَ سَاحِرٍ إِفْرِيقِيٍّ، يَا فَاوسْت السُّهُولِ الْمُعْشِبَة،
أَيَّتُهَا الْمُشَعْوِذَةُ ذَات الْخَصْرِ الأَبَنُوسِيّ، يَا ابْنَةَ مُنْتَصَفِ اللَّيَالِي السَّوْدَاء،

بَدَلاً مِنَ الْخَمْرِ الإِفْرِيقِيَّةِ، وَالأَفْيُونِ، وَخَمْرِ بِيرجنْدِي،
أُفَضِّلُ إِكْسِيرَ فَمِكِ الَّذِي يَتَبَخْتَرُ فِيهِ الْحُب؛
وَعِنْدَمَا تَرْحَلُ إِلَيْكِ شَهَوَاتِي فِي قَافِلَة،
تُصْبِحُ عَيْنَاكِ الْحَوْضَ الَّذِي يَرْتَوِي مِنْه ضَجَرِي.

مِنْ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ الوَاسِعَتَيْنِ السَّوْدَاوَيْن، نَافِذَتَي رُوحِك،

---

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (SED NON SATIATA). والجملة مستمدة من مسرحية للشّاعر اللاتيني «جوڤينال»، وتتعلق «بميسالين»، زوجة الإمبراطور كلود: «**وحين ضَجِرَت من الرجال ـ لكن بلا إشباع ـ اعتزَلَت**».

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ بِلاَ رَحْمَة! فَلْتُقَلِّلِي مِنْ لَهِيبِكِ الْمَنْثُورِ عَلَيّ؛
لَسْتُ نَهْرَ ستِيكْس[1] لأُعَانِقَكِ لِتَاسِعِ مَرَّة،

وَا أَسَفَاه! وَلاَ أَسْتَطِيعُ - أَيَّتُهَا السِّعْلاَةُ الْفَاجِرَة،
حَتَّى أَكْسِرَ إِرَادَتَكِ وَأَضَعَكِ فِي مَأزَق -
أَنْ أُصْبِحَ برُوسبِرِين فِي جَحِيمِ سَرِيرِك!

(1) نهر الجحيم، في الأساطير اليونانية. وكان لا بد من عبوره تسع مرات لبلوغ الضفة الأخرى. «بروسبرين»: زوجة «بلوتون»، ملك الجحيم.

٢٧

امْـرَأَةٌ عَقيـم(١)

فِي ثِيَابِهَا الْمُتَمَاوِجَةِ الْمُلْتَمِعَة،
حَتَّى عِنْدَمَا تَمْشِي تَحْسَبُهَا تَرْقُص،
مِثْلَ تِلْكَ الأَفَاعِي الطَّوِيلَةِ الَّتِي يُرَقِّصُهَا الْمُشَعْوِذونَ الْمُقَدَّسُون
عَلَى أَطْرَافِ عِصِيِّهِم مَعَ الإِيقَاع.

مِثْلَ الرِّمَالِ الْكَئِيبَةِ وَزُرْقَةِ سَمَاءِ الصَّحَارِي،
الَّتِي لاَ تُحِسُّ بِالْمُعَانَاةِ الإِنْسَانِيَّة،
مِثْلَ الشَّبَكَاتِ الطَّوِيلَةِ لِمَوْجِ الْبِحَار،
تَعْرِض نَفْسَهَا بِلاَ مُبَالاَة.

عَيْنَاهَا اللاَّمِعَتَانِ مَجْبُولَتَانِ مِنْ مَعَادِنَ فَاتِنَة،
وَفِي هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْغَرِيبَةِ وَالرَّمْزِيَّة

(١) القصيدة ـ أصلاً ـ بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

حَيْثُ الْمَلاَكُ الْمَصُونُ يَمْتَزِجُ بِأَبِي الْهَوْلِ الْعَتِيق،

حَيْثُ لاَ شَيْءَ سِوَى ذَهَبٍ وَصُلْبٍ وَضَوْءٍ وَمَاس،
تَتَأَلَّقُ أَبَدًا ـ مِثْلَ نَجْمٍ بِلاَ جَدْوَى ـ
الْعَظَمَةُ الْبَارِدَةُ لامْرَأَةٍ عَقِيم.

٢٨

الأَفْعَى الرَّاقصَة

كَم أُحِبُّ، أَيَّتُهَا الْكَسُولَةُ، أَنْ أَرَى،

مِنْ جَسَدِكِ الْجَمِيل،

مِثْلَ نَسِيجٍ مُتَمَاوِج،

بَشْرَتَكِ الْمُلْتَمِعَة!

عَلَى خُصْلَةِ شَعْرِكِ الحَالِكَة،

ذَاتَ الْعُطُورِ اللاَّذِعَة،

بَحْرٌ عَطِرٌ شَارِد

ذُو أَمْوَاجٍ زَرْقَاءَ وَدَاكِنَة،

وَمِثْلَ سَفِينَةٍ تَصْحُو

فِي رِيَاحِ الصَّبَاح،

تُقْلِعُ رُوحِي الْحَالِمَة

إِلَى سَمَاءٍ بَعِيدَة.

عَيْنَاكِ ـ اللَّتَانِ لاَ يَتَجَلَّى فِيهِمَا أَبَدًا
لاَ الْعَذْبُ وَلاَ الْمَرِير ـ
جَوْهَرَتَانِ بَارِدَتَانِ فِيهِمَا يَمْتَزِج
الذَّهَبُ بِالْحَدِيد.

وَلَدَى رُؤْيَتِكِ تَمْشِينَ بِخُطًى مُوَقَّعَه،
جَمِيلَةً بِالْعَفْوِيَّه،
يَرَاكِ الْمَرْءُ أَفْعَى تَرْقُص
عَلَى طَرَفِ عَصَا.

وَتَحْتَ وَطْأَةِ كَسَلِك
تَتَمَايَلُ رَأْسُكِ الطُّفُولِيَّة
فِي رَخَاوَةِ
فِيلٍ صَغِير،

وَجَسَدُكِ يَمِيلُ وَيَطُول
مِثْلَ سَفِينَةٍ رَشِيقَة
تَدُورُ مِن ضِفَّةٍ لأُخْرَى
وَتَغْمُرُ صَوَارِيهَا فِي الْمَاء.

وَمِثْلَ مَوْجَةٍ تَكْبُرُ بِذَوَبَان
الثُّلُوجِ الْهَادِرَة،

عِنْدَمَا يَصْعَدُ الْمَاءُ مِنْ فَمِك
إِلَى حَافَّةِ أَسْنَانِك،

يُخَيَّلُ لِي أَنِّي أَحْتَسِي خَمْرَ بُوهِيميَا،
الْمَرِيرَ الْقَاهِر،
كَسَمَاءٍ سَائِلَةٍ تَنْثُرُ
النُّجُومَ عَلَى قَلْبِي!

٢٩
جُثَّــة

فَلْتَسْتَعِيدِي ـ يَا نَفْسُ ـ مَا شَهِدْنَاه
ذَلِكَ الصَّبَاحَ الْجَمِيلَ مِنْ صَيْفٍ عَذْب:
فَعِنْدَ انْعِطَافَةِ دَرْبٍ ضَيِّقٍ كَانَت جُثَّةٌ شَائِهَة
عَلَى سَرِيرٍ مَلِيءٍ بِالْحَصَى،

وَالسَّاقَانِ فِي الْهَوَاءِ، مِثْلَ امرَأَةٍ شَبِقَة،
تَكْتَوِي وَتَنِزُّ السُّمُوم،
كَانَت تَفْتَحُ ـ بِطَرِيقَةٍ لاَمُبَالِيَةٍ وَقِحَة ـ
بَطْنَهَا الْمَلِيءَ بِالرَّوَائِحِ الْكَرِيهَة.

كَانَت الشَّمْسُ تَسْطَعُ عَلَى هَذَا الْعَفَن،
كَأَنَّمَا مِنْ أَجْلِ طَهْيِهَا تَمَامًا،
وَلِتُقَدِّمَ إِلَى الطَّبِيعَةِ الْعَظِيمَةِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً
مِمَّا كَانَ كُلاًّ مُتَرَابِطَ الأَوْصَال؛

كَانَت السَّمَاءُ تَشْهَدُ هَذَا الْهَيْكَلَ العَظْمِيَّ الرَّائِع
مِثْلَ زَهْرَةٍ تَتَفَتَّح.
وَكَانَ النَّتَنُ قَوِيًّا، حَتَّى لَتظُنّ
أَنَّ الإِغْمَاءَ سَيَنْتَابُكَ عَلَى الْعُشْب.

الذُّبَابُ يَطِنُّ عَلَى هَذِهِ الْبَطْنِ الْمُتَحَلِّلَة،
الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهَا أَفْوَاجٌ سَوْدَاء
مِن يَرَقَاتٍ، تَنْسَابُ مِثْلَ سَائِلٍ كَثِيف
عَلَى امْتِدَادِ هَذِهِ الأَسْمَالِ الْحَيَّة.

كُلُّ ذَلِكَ يَهْبِطُ، يَصْعَدُ مِثْلَ مَوْجَة،
أَو يَنْطَلِقُ مُحْتَدِمًا؛
يَبْدُو أَنَّ الْجُثَّةَ، الْمُنْتَفِخَةَ بِرِيحٍ غَامِضَةٍ،
كَانَت تَعِيش حَيَاةً مُضَاعَفَة.

وَكَانَ هَذَا الْعَالَمُ يُصْدِرُ مُوسِيقَى غَرِيبَة،
مِثْلَ الْمَاءِ الجَارِي وَالرِّيح،
أَو الْحُبُوبِ الَّتِي يَهُزُّهَا الْمُغَرْبِلُ بِحَرَكَةٍ إِيقَاعِيَّة
وَيُدِيرُهَا فِي غُرْبَالِه.

امَّحَتِ الأَشْكَالُ وَلَم يَبْقَ سِوَى حُلْم،
رَسْمٌ أَوَّلِيٌّ بَطِيءٌ فِي الْمَجِيء،
إِلَى اللَّوْحَةِ الْمَنْسِيَّةِ، وَلاَ يُنْجِزُهَا الْفَنَّان
إِلاَّ مِنَ الذِّكْرَى وَحْدَهَا.

وَوَرَاءَ الصُّخُورِ، كَلْبَةٌ قَلِقَةٌ
تَنْظُرُ إِلَيْنَا بِعَيْنٍ غَاضِبَة،
فِي انْتِظَارِ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَنْهَشُ فِيهَا مِنَ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِي
الْقِطْعَةَ الَّتِي تَرَكَتْهَا.

وَمَعَ ذَلِكَ فَستَكُونِينَ شَبِيهَةً بِهَذَا الْوَسَخ،
بِهَذَا الْعَفَنِ الْمُفْزِع،
يَا نَجْمَةَ عُيُونِي، يَا شَمْس طَبِيعَتِي،
أَنْتِ، يَا مَلاَكِي وَنَزْوَتِي!

حَقًّا! هَكَذَا سَتكُونِينَ، يَا مَلِكَةَ الْمَحَاسِن،
بَعْدَ الْقَرَابِينِ الأَخِيرَة،
عِنْدَمَا تَمْضِينَ، تَحْتَ الْعُشْبِ وَالازْدِهَارِ الْعَمِيم،
فِي التَّحَلُّلِ وَسْطَ الْعِظَام.

هَكَذَا، يَا فَاتِنَتِي! فَلْتَقُولِي لِلدُّودِ

الَّذِي سَيَنْهَشُكِ بِالْقُبُلاَتِ،

إِنَّنِي حَفِظْتُ الشَّكْلَ وَالْجَوْهَرَ الرَّبَّانِيَّ

لِحَبِيبَاتِيَ الْمُتَحَلِّلاَتِ!

٣٠

مِنَ الأعمَاقِ صَرَخْتُ[١]

أَتَوَسَّلُ رَحْمَتَكِ، أَنْتِ، الْوَحِيدَةُ الَّتِي أُحِبُّهَا،
مِنْ أَعْمَاقِ الْهُوَّةِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي هَوَى فِيهَا قَلْبِي.
هُوَ كَوْنٌ كَئِيبٌ أُفقُهُ رَصَاصِيّ،
حَيْثُ يَسْبَحُ فِي اللَّيْلِ الرُّعْبُ وَالتَّجْدِيف؛

شَمْسٌ بِلاَ حَرَارَةٍ تَسْطَعُ فِي الأَعْلَى سِتَّةَ شُهُور،
وَفِي الشُّهُورِ السِّتَّةِ الأُخْرَى يُغَطِّي اللَّيْلُ الأَرْض؛
بَلَدٌ أَكْثَرُ عُرْيًا مِنَ الأَرْضِ الْقُطْبِيَّة؛
لاَ حَيَوَانَاتٍ، وَلاَ يَنَابِيعَ، لاَ خُضْرَةَ، وَلاَ غَابَات!

هَكَذَا فَلاَ رُعْبَ فِي الْعَالَم
أَكْثَرُ مِنَ الْبُرُودَةِ الْقَاسِيَةِ لِهَذِهِ الشَّمْسِ الثَّلْجِيَّة

---

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (DE PROFUNDIS CLAMAVI).

وَهَذَا اللَّيْلِ الْهَائِلِ الشَّبِيهِ بِـالسَّدِيمِ الْقَدِيم؛

أَحْسُدُ مَصِيرَ أَحْقَرِ الْحَيَوَانَات
الَّتي يُمْكِنُهَا أَنْ تَغُطَّ فِي نَوْمٍ بَلِيد،
إِلَى أَنْ تَنْحَلَّ بِبُطْءٍ عُقْدَةُ الزَّمَن!

٣١

مَصَّاصَةُ الدِّمَاء

أَنتِ الَّتِي اخْتَرَقْتِ قَلْبِي الْمُتَوَجِّع،
كَطَعْنَةِ سِكِّين،
أَنتِ، الْقَوِيَّةُ مِثْلَ قَطِيعٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ،
جِئْتِ، مَجْنُونَةً مُتَبَرِّجَةً،

لِتَتَّخِذِي مِنْ رُوحِي الذَّلِيلَة
سَرِيرَكِ وَمُلْكَك؛
ـ أَيَّتُهَا الشَّائِنَةُ الَّتِي ارْتَبَطْتُ بِهَا
كَارْتِبَاطِ الْمُدَانِ بِالْقُيُود،

وَارْتِبَاطِ الْمُقَامِرِ الْعَنِيدِ بِالْمُقَامَرَة،
وَالسِّكِّيرِ بِالْقِنِّينَة،
وَالدِّيدَانِ بِالجُثَّة،
ـ أَيَّتُهَا الْمَلْعُونَةُ، عَلَيْكِ اللَّعْنَة!

نَاشَدْتُ السَّيْفَ الْخَاطِف
أَنْ يَظْفَرَ بِحُرِّيَّتِي،

وَطَلَبْتُ مِنَ السُّمِّ النَّاقِع
أَنْ يُغِيثَ جُبْنِي.

وَا أَسَفَاه! فَالسُّمُّ وَالسَّيْف
عَامَلاَنِي بِاحْتِقَارٍ وَقَالاَ لِي:
«لَسْتَ جَدِيرًا بِالتَّحَرُّر
مِنْ عُبُودِيَّتِكَ اللَّعِينَة،

أَيُّهَا الْغَبِي! ـ لَو كَانَت جُهُودُنَا
تُخَلِّصُكَ مِنَ امْبِرَاطُورِيَّتِهَا،
لأَعَادَتْ قُبلاتُك إِلَى الْحَيَاة
جُثَّةَ مَصَّاصَةِ دِمَائِك!»

Toi qui comme un coup de couteau
Dans mon ~~…~~ cœur plaintif es entrée,
Toi qui, comme un hideux troupeau
De démons, vins, folle et parée,

De mon esprit humilié
Faire ton lit et ton domaine,
Infâme à qui je suis lié
Comme le forçat à la chaîne

Comme au jeu le joueur têtu,
Comme à la bouteille l'ivrogne,
Comme aux vermines la charogne,
Maudite, maudite sois-tu!

J'ai prié le glaive rapide
De conquérir ma liberté,
Et j'ai dit au poison perfide
De ~~conquérir~~ secourir ma lâcheté;

Hélas! le poison et le glaive
M'ont pris en dédain, et m'ont dit:
Tu n'es pas digne qu'on t'enlève
À ton esclavage maudit.

Imbécile! De son empire
Si nos efforts te délivraient,
Tes baisers ressusciteraient
Le cadavre de ton Vampire.

Charles Baudelaire.

مخطوط قصيدة «مصاصة الدماء»

٣٢

كجُثّـة مُمَـدَّدَة[١]

فِيمَا كُنْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ بِجِوَارِ يَهُودِيَّةٍ بَشِعَة،
كَجُثَّةٍ مُمَدَّدَةٍ بِامْتِدَادِ جُثَّة،
رُحْتُ أُفَكِّرُ بِجِوَارِ هَذَا الْجَسَدِ الْمُشْتَرَى
فِي الْجَمَالِ الْكَئِيبِ الَّذِي تَحْرِمُ شَهْوَتِي نَفْسَهَا مِنه.

صَوَّرْتُ لِنَفْسِيَ عَظَمَتَهَا الْفِطْرِيَّة،
نَظْرَتَهَا الْمُسَلَّحَةَ بِالْقُوَّةِ وَالْمَحَاسِن،
وَشَعْرَهَا الَّذِي جَعَلَتْه خَوْذَةً مُعَطَّرَة،
وَذِكْرَاه الَّتِي تُؤَجِّجُنِي لِلْحُبّ.

فَقَد كَانَ لِيَ أَنْ أُقَبِّلَ بِشَغَفٍ جَسَدَكِ النَّبِيل،
وَمِنْ قَدَمَيْكِ النَّدِيَّتَيْنِ حَتَّى ضَفَائِرِكِ الْفَاحِمَة
أَنْشُرَ كَنـزَ الْمُدَاعَبَاتِ الْعَمِيقَة،

---

(١) القصيدة ـ أصلاً ـ بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

لَو اسْتَطَعْتِ، ذَاتَ مَسَاءٍ، يَا مَلِكَةَ الْقَاسِيَات،
وَبِدَمْعَةٍ تَأْتِي بِلاَ عَنَاء،
أَنْ تَحْجُبِي عَنِّي أَلَقَ عَيْنَيْكِ الْبَارِدَتَيْن.

٣٣

نَـدَمٌ مُتَأَخـّر

عِنْدَمَا سَتَرْقُدِين، يَا جَمِيلَتِي الْمُظْلِمَة،

فِي أَعْمَاقِ ضَرِيحٍ مِنْ رُخَامٍ أَسْوَد،

وَعِنْدَمَا لاَ يَكُونُ لَدَيْكِ كَمَضْجَعٍ أَو قَصْرٍ رِيفِيّ

إِلاَّ سِرْدَابٌ مَطِيرٌ وَحُفْرَةٌ جَوْفَاء؛

وَعِنْدَمَا يَمْنَعُ الْحَجَرُ، وَهوَ يَخْنُـقُ صَدْرَكِ الْخَائِف

وَخَصْرَيْكِ اللَّذِينِ يُلِينُهُمَا سِحْرٌ لاَ مُبَال،

قَلْبَكِ مِنَ الْخَفَقَانِ وَالرَّغْبَة،

وَقَدَمَيْكِ مِنَ الرَّكْضِ فِي الشَّوْطِ الْمُغَامِر،

فَالْقَبْرُ، الْمُؤْتَمَنُ عَلَى حُلْمِي اللاَّنِهَائِي

(ذَلِكَ أَنَّ الْقَبْرَ سَيَفْهَمُ الشَّاعِرَ أَبَدًا)،

خِلاَلَ تِلْكَ اللَّيَالِي الْعَظِيمَةِ بِلاَ نُعَاس،

سَيَقُولُ لَكِ: «أَيَّتُهَا الْعَاهِرَةُ الشَّائِهَةُ، مَاذَا أَفَدْت
بَعَدَمِ مَعْرِفَةِ مَا يَنُوحُ عَلَيْهِ الْمَوْتَى؟»
ـ وَسَيَلْتَهِمُ الدُّودُ جِلْدَكِ مِثْلَ النَّدَم.

٣٤
القطُّ

تَعَالَ ـ يَا قِطِّيَ الْجَمِيلَ ـ فَوْقَ قَلْبِي الْعَاشِق؛
فَلْتَحْبِسْ مَخَالِبَك،
وَدَعْنِيَ أَغْرَقْ فِي عَيْنَيْكَ الْجَمِيلَتَيْن،
اللَّتَيْنِ يَمْتَزِجُ فِيهِمَا الْمَعْدِن بِالْعَقِيق.

عِنْدَمَا تُدَاعِبُ أَصَابِعِي فِي وَقْتِ الْفَرَاغ
رَأسَكَ وَظَهْرَكَ الطَّيِّع،
وَعِنْدَمَا تَنْتَشِي يَدِي مِن مُتْعَة
التَّرْبِيتِ عَلَى جَسَدِكَ الْمُثِير،

أَرَى امْرَأَتِي فِي الْخَيَال. نَظْرَتُهَا،
مِثْلَ نَظْرَتِك، أَيُّهَا الْحَيَوَانُ الْحَبِيب،
عَمِيقَةٌ وَبَارِدَةٌ، تَقْطَعُ وَتَخْتَرِقُ مِثْلَ سَهْم،

وَمِنَ الْقَدَمَيْنِ حَتَّى الرَّأس،
سِيمَاءُ مُرْهَفَةٌ، وَأَرِيجٌ خَطِر
يَعُومُ حَوْلَ جَسَدِهَا الأَسْمَر.

٣٥

مُبَارَزَة[١]

انْدَفَعَ مُقَاتِلاَنِ أَحَدُهُمَا نَحْوَ الآخَر؛
لطَّخَ سِلاَحَاهُمَا الْهَوَاءَ بِالأَضْوَاءِ وَالدِّمَاء.
هَذِهِ الأَلْعَابُ، قَعْقَعَاتُ الْحَدِيدِ هَذِهِ هِي ضَجِيج
شَبَابٍ فَرِيسَةٍ لِلْحُبِّ الصَّارِخ.

انْكَسَرَ السَّيْفَان! مِثْلَ شَبَابِنَا،
يَا عَزِيزَتِي! لَكِنَّ الأَسْنَانَ وَالأَظَافِرَ الْحَادَّة،
سَرْعَانَ مَا تَثْأَرُ لِلسَّيْفِ وَالْخِنْجَرِ الْخَائِن.
ـ يَا لَغَضْبَة الْقُلُوبِ النَّاضِجَةِ الْمَجْرُوحَةِ بِالْحُبّ!

فِي السَّيْلِ الَّذِي تَغْشَاهُ الْقِطَطُ الْبَرِّيَّةُ وَالنُّمُور
تَدَحْرَجَ بَطَلاَنَا، مُشْتَبِكَيْنِ بِخُبْث،

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (DEULLUM).

وَجِلْدُهُمَا سَيَزْدَهِرُ بِجَذْبِ الأَشْوَاك.

ـ هَذِهِ الْهَاوِيَة، هِي الْجَحِيم، الْمَأهُولُ بِأَصْدِقَائِنَا!
فَلْنَنْحَدِر فِيهَا بِلاَ نَدَمٍ، كَفَارِسَةٍ لاَ إِنْسَانِيَّة،
مِنْ أَجْلِ تَخْلِيدِ عُنْفِ حِقْدِنَا!

٣٦
الشُّرفَة

يَا أُمَّ الذِّكْرَيَات، يَا عَشِيقَةَ الْعَشِيقَات،
أَنْتِ، كُلُّ رَغَبَاتِي! أَنْتِ، كُلُّ فُرُوضِي!
سَتَذْكُرِينَ جَمَالَ الْمُدَاعبَات،
وَعُذُوبَةَ الْمِدْفَأَةِ وَسِحْرَ الأُمْسِيَات،
يَا أُمَّ الذِّكْرَيَات، يَا عَشِيقَةَ الْعَشِيقَات!

الأُمْسِيَاتُ الْمُضَاءَةُ بِاضْطِرَامِ الْفَحْم،
وَالأُمْسِيَاتُ فِي الشُّرْفَةِ، الْمَحْجُوبَةِ بِأَبْخِرَةٍ وَرْدِيَّة.
كَم كَانَ ثَدْيُكِ عَذْبًا لِي! كَم كَانَ قَلْبُكِ حَانِيًا عَلَيْ!
تَحَدَّثْنَا كَثِيرًا عَن أَشْيَاء لاَ تَفْنَى
فِي الأُمْسِيَاتِ الْمُضَاءَةِ بِاضْطِرَامِ الْفَحْم.

مَا أَجْمَلَ الشُّمُوسِ فِي الأُمْسِيَاتِ الْحَارَّة!
مَا أَعْمَقَ الْفَضَاءَ! وَأَقْوَى الْقَلْب!

وَأَنَا أَنْحَنِي عَلَيْكِ، يَا مَلِكَةَ الْمَعْشُوقَات،
كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّيَ أَنْشَقُ عِطْرَ دَمِك.
فَمَا أَجْمَلَ الشُّمُوسَ فِي الأُمْسِيَاتِ الْحَارَّة!

كَانَ اللَّيْلُ يَتَكَاثَفُ مِثْلَ سُور،
تُخَمِّنُ عَيْنَايَ فِي الظُّلْمَةِ عَيْنَيْك،
وَأَحْتَسِي أَنْفَاسَكِ، أَيَّتُهَا الْعُذُوبَة! أَيُّهَا السُّم!
وَتَنَامُ قَدَمَاكِ فِي يَدَيَّ الأَخَوِيَّتَيْن.
وَكَانَ اللَّيْلُ يَتَكَاثَفُ مِثْلَ سُور.

أَعْرِفُ فَنَّ اسْتِدْعَاءِ اللَّحَظَاتِ السَّعِيدَة،
وَأَرَى مِنْ جَدِيدٍ مَاضِيَّ يَجْثُمُ عَلَى رُكْبَتَيْك.
إِذ مَا جَدْوَى الْبَحْثِ عَن مَفَاتِنِك الْفَاتِرَة
فِي غَيْرِ جَسَدِكِ الْحَبِيبِ وَقَلْبِكِ الرَّهِيف؟
فَأَنَا أَعْرِفُ فَنَّ اسْتِدْعَاءِ اللَّحَظَاتِ السَّعِيدَة.

هَذِهِ الْعُهُودُ، هَذِهِ الْعُطُورُ، وَهَذِهِ الْقُبُلاَتُ اللاَّنِهَائِيَّة،
أَلَن تُولَدَ مِنْ جَدِيدٍ مِنْ هَاوِيَةٍ لاَ نَسْبُرُ أَغْوَارَهَا،
مِثْلَمَا تَصْعَدُ الشُّمُوسُ الْمُنْتَعِشَةُ إِلَى السَّمَاء
بَعْدَ اغْتِسَالِهَا فِي قَرَارَةِ الْبِحَارِ الْغَائِرَة؟
أَيَّتُهَا الْعُهُودُ، أَيَّتُهَا الْعُطُورُ، أَيَّتُهَا الْقُبُلاَتُ اللاَّنِهَائِيَّة!

٣٧

المَمسُوس

تَغَطَّتِ الشَّمْسُ بِثِيَابِ الْحِدَاد. وَمِثْلَهَا،
يَا قَمَرَ حَيَاتِي! فَلْتَلْتَفَّ بِالظِّل؛
فَلْتَنَمْ أَو تُدَخِّنْ كَمَا تَهْوَى؛ فَلْتَصْمُتْ، وَلْتُعْتِم،
وَلْتَغْرَقْ بِكَامِلِكَ فِي هَاوِيَةِ الضَّجَر؛

هَكَذَا أُحِبُّك! لَكِن، إِذَا مَا أَرَدْتَ الْيَوْم،
مِثْلَ نَجْمٍ مَخْسُوفٍ يَخْرُجُ مِنَ الْغَبَش،
أَن تَتَبَخْتَرَ فِي الأَمَاكِنِ الَّتِي يَزْدَحِمُ فِيهَا **الْجُنُون**،
فَلاَ بَأسَ! أَيُّهَا الْخِنْجَرُ السَّاحِرُ، فَلْتَخْرُج مِنْ غِمْدِك!

فَلْتُضِىءْ عَيْنَيْكَ بِشُعْلَةِ الثُّرَيَّا!
فَلْتُضِىء شَهْوَتَكَ بِنَظَرَاتِ الأَفْظَاظ!
فَكُلُّ مَا فِيكَ يُسْعِدُنِي، سَقِيمًا كَانَ أَمْ نَزِقًا؛

فَلْتَكُنْ كَمَا تَبْغِي، لَيْلاً أَسْوَد أَمْ فَجْرًا أَحْمَر؛
فَمَا مِنْ عَصَبٍ فِي جَسَدِيَ الْمُرْتَعِد
لاَ يَصْرُخ: آهِ يَا بِلْزِبُوث[1] الْحَبِيب! أَعْشَقُك!

(1) أحد أسماء الشيطان.

٣٨

طَيف

١ـ الظُّلُمَات

فِي سَرَادِيبِ الْحُزْنِ بِلاَ قَرَار
حَيْثُ نَفَانِيَ الْقَدَر؛
حَيْثُ لاَ يَنْسَلُّ أَبَدًا شُعَاعٌ وَرْدِيٌّ وَبَهِيج؛
حَيْثُ، وَحِيدًا مَعَ اللَّيْلِ، ذَلِكَ الضَّيْفُ الْكَئِيب،

أُصْبِحُ مِثلَ رَسَّامٍ حكَمَ عَلَيْهِ إِلَهٌ سَاخِر
بِالرَّسْمِ، لِلأَسَفِ! عَلَى الظُّلُمَات؛
وَحَيْثُ أَسْلُقُ وَآكُلُ قَلْبِي،
مِثْلَ طَبَّاخٍ ذِي شَهِيَّةٍ قَاتِلَة،

يَلْتَمِعُ ذَاتَ لَحْظَةٍ، وَيَمْتَدُّ، وَيَطُول
طَيْفٌ مَجْبُولٌ مِنَ الْحُسْنِ وَالرَّوْعَة.
وَفِي هَيْئَتِهِ الْحَالِمَةِ الشَّرْقِيَّة،

عِنْدَمَا بَلَغَ عظَمَته الْكَامِلَة،

تَعَرَّفْتُ فِيهِ عَلَى زَائِرَتِي الْجَمِيلَة:
إِنَّهَا هِيَ: سَوْدَاءُ وَمَعَ ذَلِكَ مُضِيئَة!

٢ـ العِطْـر

أَيُّهَا الْقَارِئُ، هَل اسْتَنْشَقْتَ أَحْيَانًا
بِنَشْوَةٍ وَشَرَاهَةٍ بَطِيئَة
هَذَا الْبُخُورَ الَّذِي يُفْعِمُ كَنِيسَة،
أَوِ الْمِسْكَ الْمَكِينَ فِي جِرَابٍ مَا؟

فِتْنَةٌ عَمِيقَةٌ، سَاحِرَةٌ، تُثِيرُ فِينَا
الْمَاضِيَ الْمُسْتَعَادَ فِي الْحَاضِر!
هَكَذَا يَقْطُفُ الْعَاشِقُ مِنْ جَسَدٍ مَعْشُوق
وَرْدَةَ الذِّكْرَى الرَّائِعَة.

وَمِن شَعْرِهَا اللَّدْنِ الثَّقِيل،
كَجِرَابٍ حَيٍّ، كَمِبْخَرَةِ الْمِخْدَع،
تَصَّاعَدُ رَائِحَةٌ، بَرِّيَّةٌ وَوَحْشِيَّة،

وَمِنَ الثِّيَابِ، الْمُوسلِين أَوِ الْقَطِيفَة،
الْمُشْبَعَةِ بِشَبَابِهَا الصَّافِي،
يَنْبَعِثُ عَبَقُ الْفِرَاء.

٣ـ الإطَار

مِثْلَ إِطَارٍ جَمِيلٍ يُضِيفُ إِلَى الرَّسْم
مَا لاَ أَدْرِي مِن شَيْءٍ غَرِيبٍ وَسَاحِر،
حَتَّى لَو كَانَ الرَّسْمُ بِفُرْشَاةٍ مُتبَاهِيَة،
بَعَزْلِهِ عَنِ الطَّبِيعَةِ الْهَائِلَة،

هَكَذَا الْجَوَاهِرُ، وَالأَثَاثُ، وَالْمَعَادِن، وَالطِّلاَء،
تَتَوَافَقُ مَعَ جَمَالِهَا النَّادِر؛
وَلاَ شَيْءَ يُعْتِمُ إِشْرَاقَه الْكَامِل،
وَيَبْدُو كُلُّ شَيْءٍ كَحَاشِيَةٍ لَه.

بَلْ يُمْكِنُ الْقَوْلُ أَحْيَانًا إِنَّه كَانَ يَظُنُّ
أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَهْفُو إِلَى حُبِّه؛ كَانَ
يُغْرِقُ عُرْيَه بِصُورَةٍ شَهْوَانِيَّة

فِي قُبلاَتِ السَّاتَانِ وَالْكِتَّان،
وَبِبُطْءٍ أَو فَجْأَةً، مَعَ كُلِّ حَرَكَة
كَانَ يُبْدِي الْجَمَالَ الطُّفُولِيَّ لِلْقِرْد.

٤ـ الصُّورَةُ الشَّخصيَّة

الْمَرَضُ وَالْمَوْتُ يُحِيلاَنِ إِلَى رَمَاد
كَلَّ النِّيرَانِ الَّتِي اشْتَعَلَت لَنَا.

فَمِن هَذِهِ الْعُيُونِ الوَاسِعَةِ الْمُتَّقِدَةِ وَالرَّهِيفَة،
مِن هَذَا الْفَمِ الَّذِي غَرِقَ فِيهِ قَلْبِي،

مِنْ هَذِهِ الْقُبُلاَتِ الْقَوِيَّةِ كَتِرْيَاق،
مِن هَذِهِ الْفَوَرَانَاتِ الأَكْثَرَ حَيَوِيَّةً مِنَ الأَشِعَّة،
مَا الَّذِي يَبْقَى؟ ذَلِكَ رَهِيبٌ، يَا رُوحِي!
لاَ شَيْءَ سِوَى رَسْمٍ بَاهِتٍ، بِثَلاَثَةِ أَقْلاَمٍ مُلَوَّنَة،

يَمُوتُ، مِثْلِي، فِي الْعُزْلَة،
وَيَكْشُطُه الزَّمَنُ، الْعَجُوزُ الْجَارِح،
كُلَّ يَوْمٍ بِجَنَاحِهِ الْفَظّ...

أَيُّهَا الْقَاتِلُ الأَسْوَدُ لِلْحَيَاةِ وَالْفَن،
لَنْ تَقْتُلَ أَبَدًا فِي ذَاكِرَتِي
مَنْ كَانَت مَلَذَّتِي وَمَجْدِي!

٣٩

كَظلِّ أَثَرٍ زَائل(١)

أُقَدِّمُ لَكِ هَذِهِ الأَبْيَاتِ حَتَّى إِذَا مَا بَلَغَ اسْمِي
بِنَجَاحٍ شَاطِئَ الْعُصُورِ النَّائِيَة،
وَدَفَعَ الأَذْهَانَ الإِنْسَانِيَّةَ إِلَى الْحُلْمِ ذَاتَ مَسَاء،
كَقَارِبٍ تُعِينُهُ رِيَاحٌ شَمَالِيَّةٌ كُبْرَى،

تُرْهِقُ ذِكْرَاكِ الْقَارِئَ كَطَبْل،
مِثْلَ الْخُرَافَاتِ غَيْرِ الْمُؤَكَّدَة،
وَتَبْقَى كَأَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ بِقَوَافِيَّ الْمُتَعَالِيَة
بِحَلَقَةٍ أَخَوِيَّةٍ وَمَجَازِيَّة؛

أَيُّهَا الْكَائِنُ الْمَلْعُونُ الَّذِي لاَ يُجِيبُ عَلَيْهِ،
مِنَ الْهَاوِيَةِ الْعَمِيقَةِ حَتَّى أَعَالِي السَّمَاءِ، سِوَاي!
ـ آهِ أَنْتِ مَنْ، كَظِلِّ أَثَرٍ زَائِل،

---

(١) القصيدة ـ أصلاً ـ بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

تَحْتَقِرِينَ بِقَدَمٍ طَائِشَةٍ وَنَظْرَةٍ مُشْرِقَة

الأَغْبِيَاءَ الْفَانِينَ الَّذِينَ ظَنُّوكِ مَرِيرَة،

أَيُّهَا التِّمْثَالُ بِعَيْنَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، أَيُّهَا المَلاَكُ الْعَظِيمُ بِجَبِينٍ مِنْ بُرُونْز!

٤٠

الشيءُ نَفْسُه دائمًا[١]

«مِن أَيْنَ يَأتِي هَذَا الْحُزْنُ الْغَرِيبُ، قُلْتِ،
الصَّاعِدُ مِثْلَ الْبَحْرِ عَلَى الصَّخْرَةِ السَّوْدَاءِ الْعَارِيَةِ؟»
ـ مَا إِن يُحَقِّق قَلْبُنَا مَوْسِمَ قِطَافِه،
حَتَّى تَتَحَوَّلَ الْحَيَاةُ إِلَى شَرّ. ذَلِكَ سِرٌّ يَعْرِفُه الْجَمِيع،

أَلَمٌ بَالِغُ الْبَسَاطَةِ وَبِلاَ خَفَاء،
وَمِثْلَ فَرْحَتِكِ، جَلِيٌّ لِلْجَمِيع.
فَلْتَكُفِّي إِذَن عَنِ الْبَحْثِ، أَيَّتُهَا الْفُضُولِيَّةُ الْجَمِيلَة!
وَرَغْمَ عُذُوبَةِ صَوْتِكِ، فَلْتَصْمُتِـي!

اصْمُتِي، أَيَّتُهَا الْجَاهِلَة! أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْمُبْتَهِجَةُ أَبَدًا!
أَيُّهَا الْفَمُ ذُو الضَّحِكِ الطُّفُولِيّ! أَكْثَرَ مِنَ الْحَيَاة،
كَثِيرًا مَا يَشُدُّنَا الْمَوْتُ بِخُيُوطٍ رَهِيفَة.

---

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (SEMPER EADEM).

فَلْتَدَعِي، دَعِي قَلْبِي يَنْتَشِي بِـأُكْذُوبَة،
وَيَغْرَقُ فِي عَيْنَيْكِ الْجَمِيلَتَيْنِ مِثْلَمَا فِي حُلْمٍ جَمِيل،
وَيَغْفُو طَوِيلاً فِي ظِلِّ أَهْدَابِك!

٤١
كُلُّهَا

أَتَى الشَّيْطَانُ هَذَا الصَّبَاح
إِلَى غُرْفَتِي الْعُلْوِيَّةِ لِرُؤْيَتِي،
وَفِي مُحَاوَلَةٍ لِضَبْطِي مُتَلَبِّسًا بِالْخَطَأ،
قَالَ لِي: «مَا أَوَدُّ مَعْرِفَتَه،

مِنْ بَيْنِ كُلِّ الأَشْيَاءِ الْجَمِيلَة
الَّتِي تُشَكِّلُ سِحْرَهَا،
مِنْ بَيْنِ مَا هُوَ أَسْوَدُ أَو وَرْدِي
الَّذِي يُؤَلِّفُ جَسَدَهَا الْفَاتِن ،

مَا هُوَ الأَعْذَب؟». ـ آهِ يَا رُوحِي!
أَجَبْتِ الْبَغِيض:
«لأَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا تِرْيَاق،
فَلاَ يُمْكِنُ تَفْضِيلُ شَيْء.

وَلأَنَّ الْكُلَّ يُبْهِجُنِي، فَلاَ أَدْرِي
مَا إِذَا كَانَ يُغْوِينِي شَيْءٌ مَا.
إِنَّهَا تُبْهِرُ مِثْلَ الْفَجْر
وَتُوَاسِي مِثْلَ اللَّيْل؛

وَالتَّنَاغُمُ بِالِغُ الرَّهَافَه،
الَّذِي يُهَيْمِنُ عَلَى جَسَدِهَا الْجَمِيل،
إِلَى حَدٍّ أَلاَّ يَلْحَظَ فِيهِ تَحْلِيلٌ وَاهٍ
التَّوَافُقَاتِ الْعَدِيدة.

أَيُّهَا التَّحَوُّلُ الرُّوحِيُّ
لِجَمِيعِ حَوَاسِّي الْمُنْصَهِرَةِ فِي وَاحِدَة!
نَفَسُهَا يَصْنَعُ الْمُوسِيقَى،
مِثْلَمَا يَصْنَعُ صَوْتُهَا الْعَبِير!»

٤٢

طَيفُهَا يَتَرَاقَصُ كشُعلَة[1]

مَاذَا سَتَقُولِينَ هَذَا الْمَسَاءَ، أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْبَائِسَةُ الْمُنْعَزِلَة،
مَاذَا سَتَقُولُ، يَا قَلْبِي، أَيُّهَا الْقَلْبُ الذَّاوِي فِي الْمَاضِي،
إِلَى الْفَاتِنَةِ، بِالِغَةِ الطِّيبَةِ، الْغَالِيَة،
مَن جَعَلَتْكَ نَظْرَتُهَا الرَّبَّانِيَّةُ تَزْدَهِرُ فَجْأَةً مِنْ جَدِيد؟

ـ سَنَحْشِدُ كُلَّ كِبْرِيَائِنَا فِي إِنْشَادِ مَدَائِحِهَا:
لاَ شَيْءَ يُبَارِي عُذُوبَةَ سُلْطَانِهَا؛
وَلِجَسَدِهَا الرُّوحِيِّ أَرِيجُ الْمَلاَئِكَة،
وَنَظْرَتُهَا تَكْسُونَا مِنْ جَدِيدٍ بِثِيَابِ الضِّيَاء.

سَوَاءٌ فِي اللَّيْلِ أَمْ فِي الْعُزْلَة،
سَوَاءٌ فِي الشَّارِعِ أَمْ فِي الزِّحَام،
فَطَيْفُهَا يَتَرَاقَصُ فِي الْهَوَاءِ كَشُعْلَة.

---

(١) القصيدة ـ أصلاً ـ بدون عنوان، والعنوان من اختيارنا (المترجم).

أَحْيَانًا مَا يَتَكَلَّمُ وَيَقُول: «أَنَا جَمِيلَةٌ، وَآمُرُكَ
مِنْ أَجْلِ حُبِّي أَلاَّ تُحِبَّ إِلاَّ **الْجَمِيل**؛
أَنَا الْمَلاَكُ الْحَارِسُ، وَرَبَّةُ الشِّعْرِ وَالسَّيِّدَةُ الْعَذْرَاء».

٤٣

الشُّعْلَةُ الحَيَّـة

تَسِيرَانِ أَمَامِي، هَاتَانِ الْعَيْنَانِ الْمُفْعَمَتَانِ بِالضِّيَاء،
اللَّتَانِ بَثَّ فِيهِمَا بِالتَّأْكِيدِ مَلاَكٌ عَلِيمٌ قُوَّةً مغنَاطِيسِيَّة؛
تَسِيرَان، هَاتَانِ الشَّقِيقَتَانِ، شَقِيقَتَاي،
وَهُمَا تَصُبَّانِ فِي عَيْنَيَّ نِيرَانَهُمَا المَاسِيَّة.

تَقُودَانِ خَطْوِي فِي طَرِيقِ الْجَمَال،
فَتُنْقِذَانِي مِنْ كُلِّ شَرَكٍ وَكُلِّ خَطِيئَةٍ كُبْرَى؛
هُمَا خَادِمَايَ وَأَنَا عَبْدُهُمَا؛
وَوُجُودِي كُلُّه يَخْضَعُ لِهَذِهِ الشُّعْلَةِ الحَيَّة.

أَيَّتُهَا الْعَيْنَانِ الْفَاتِنَتَانِ، تَسْطَعَانِ بِالضِّيَاءِ الرُّوحِي
كَالشُّمُوعِ الْمُتَوَهِّجَةِ فِي وَضَحِ النَّهَار؛ تُخَضِّبُهَا الشَّمْس،
لَكِنَّهَا لاَ تُطْفِئُ شُعْلاَتِهَا الْخَارِقَة؛

إِنَّهُم يَحْتَفِلُونَ بِالْمَوْتِ، لَكِنَّكُمَا تُغَنِّيَانِ لِلْبَعْث؛

تَسِيرَانِ تُنْشِدَانِ بَعْثَ رُوحِي،

أَيُّهَا النَّجْمَانِ اللَّذَانِ لاَ تُذْوِي شُعَلَتَهُمَا أَيُّ شَمْس!

٤٤

تعَاكُس

أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالْبَهْجَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الْغَمّ،
وَالْخِزْيَ، وَالنَّدَامَةَ، وَالنَّحِيبَ، وَالضَّجَر،
وَالْمَخَاوِفَ الْغَامِضَةَ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي الْمُرْعِبَة
الَّتِي تَقْهَرُ الْقَلْبَ مِثْلَ وَرَقَةٍ مَهْرُوسَة؟
أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالْبَهْجَةِ، هَلْ تَعْرِفُ الغَمّ؟

أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالطِّيبَة، هَلْ تَعْرِفُ الْكَرَاهِيَة،
وَالْقَبَضَاتِ الْمُتَشَنِّجَةَ فِي الظَّلاَمِ وَدُمُوعَ الْمَرَارَة،
حِينَ يُعْلِنُ الانْتِقَامُ نِدَاءَه الْجَهَنَّمِي
وَيَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ قَائِدًا لِقُوَانَا؟
أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالطِّيبَة، هَلْ تَعْرِفُ الْكَرَاهِيَة؟

أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالْعَافِيَة، هَلْ تَعْرِفُ الْحُمَّى،
الَّتِي تُجَرْجِرُ أَقْدَامَهَا، مِثْلَ الْمَنْفِيِّين،

عَلَى امْتِدَادِ الْجُدْرَانِ الْكُبْرَى لِلْمَلاَجِئِ الْبَاهِتَة،
بَاحِثَةً عَنِ الشَّمْسِ النَّادِرَةِ، مُرْتَعِشَةَ الشِّفَاه؟
أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالْعَافِيَة، هَلْ تَعْرِفُ الْحُمَّى؟

أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالْجَمَالِ، هَلْ تَعْرِفُ التَّجَاعِيد،
وَالْخَوْفَ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ، وَذَلِكَ الْعَذَابَ الْبَشِع
مِن قِرَاءَةِ الرُّعْبِ السِّرِّيِّ لِلْوَفَاء
فِي عُيُونٍ تَرْتَوِي مِنْهَا طَوِيلاً عُيُونُنَا النَّهِمَة؟
أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالْجَمَالِ، هَلْ تَعْرِفُ التَّجَاعِيد؟

أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالسَّعَادَةِ، وَالْفَرَحِ وَالضِّيَاء،
كَانَ لِدَاوُدَ الْمُحْتَضِرِ[1] أَنْ يَطْلُبَ الْعَافِيَة
مِنْ فَيْضِ جَسَدِكِ الْمَسْحُور؛
لَكِنِّي لاَ أَرْجُو مِنْكَ، أَيُّهَا الْملاَك، إِلاَّ الصَّلَوَات،
أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْمُفْعَمُ بِالسَّعَادَةِ، وَالْفَرَحِ وَالضِّيَاء!

---

(1) كان الملك داود ـ في شيخوخته المريضة المكتئبة ـ بحاجة إلى فتاة ليشعر بالدفء.

٤٥

اعتـرَاف

ذَاتَ مَرَّةٍ، مَرَّةٍ وَحِيدَةٍ، أَيَّتُهَا الْمَحْبُوبَةُ الْعَذْبَة،
اتَّكَأَت ذِرَاعُكِ النَّاعِمَة
عَلَى ذِرَاعِي (فِي عُمْقِ رُوحِي الْمُظْلِم
لَم تَبْهَت أَبَدًا تِلْكَ الذِّكْرَى)؛

كَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا؛ وَكَمِيدَالِيَةٍ جَدِيدَة
كَانَ الْقَمَرُ الْمُكْتَمِلُ يَعْرِض نَفْسَه،
وَجَلاَلُ اللَّيْلِ، كَنَهْرٍ،
يَنْسَابُ عَلَى بَارِيسَ النَّائِمَة.

وَعَلَى امْتِدَادِ الْمَنَازِلِ، تَحْتَ أَبْوَابِ الْعَرَبَات،
كَانَت قِطَطٌ تَعْبُرُ مُنْسَلَّة،
تَسْتَرِقُ السَّمْعَ، أَو كَظِلاَلٍ حَبِيبَة،
تُرَافِقُنَا عَلَى مَهَل.

وَفَجْأَةً، وَسْطَ الْحَمِيمِيَّةِ الْحُرَّة
الْمُتَفَتِّحَةِ فِي الضِّيَاءِ الشَّاحِب،
مِنْكِ، أَيَّتُهَا الآلَةُ الْمُوسِيقِيَّةُ الْخِصْبَةُ الَّتِي لاَ تُصْدِر
إلاَّ الْبَهْجَةَ السَّاطِعَة،

مِنْكِ، أَفْلَتَت، مُتَرَدِّدَةً،
نَغَمَةٌ شَاكِيَةٌ، نَغَمَةٌ غَرِيبَة،
وَاضِحَةٌ وَمَرِحَةٌ مِثْلَ بُوق
فِي الصَّبَاحِ الْمُتَوَهِّج

كَطِفْلَةٍ مَهْزُولَةٍ، بَشِعَةٍ، كَئِيبَةٍ، قَذِرَة،
تَخْجَلُ مِنْهَا أُسْرَتُهَا،
فَتَحْبِسُهَا طَوِيلاً فِي سِرْدَاب
لِتُخْفِيَهَا عَنِ الْعَالَم.

أَيُّهَا الْمَلاَكُ الْبَائِسُ، كَانَت تُغَنِّي، نَغَمَتُكَ الصَّارِخَة:
«لا شَيْءَ عَلَى الأَرْضِ بِلاَ يَقِين،
وَدَائِمًا، وَمَهْمَا كَانَت مُتَجَمِّلَةً بِعِنَايَة،
فَالأَنَانِيَّةُ الإِنْسَانِيَّةُ تَفْضَحُ نَفْسَهَا؛

فَيَا لَهَا مِنْ مِهْنَةٍ شَاقَّةٍ أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً جَمِيلَة،
وَيَا لَه مِنْ عَمَلٍ مُبْتَذَل
لِلرَّاقِصَةِ الْبَلْهَاءَ الْبَارِدَةِ الَّتِي تُفْرِط
فِي الضَّحِكِ الْمُفْتَعَل؛

فَأَن تُشَيِّدَ فَوْقَ الْقُلُوبِ لَهُوَ شَيْءٌ أَحْمَق؛
فَكُلُّ شَيْءٍ يَتَصَدَّعُ، الْحُبُّ وَالْجَمَال،
إِلَى أَنْ يَرْمِيَهُم فِي سَلَّتِهِ النِّسْيَان
لِيُحِيلَهُم إِلَى الأَبَدِيَّة!»

كَثِيرًا مَا تَذَكَّرْتُ هَذَا الْقَمَرَ الْمَسْحُور،
هَذَا الصَّمْتَ وَهَذَا الْفُتُور،
وَهَذَا الْبَوْحَ الْمُرْعِبَ الَّذِي تَمَّ الْهَمْسُ بِه
عَلَى كُرْسِي اعْتِرَافِ الْقَلْب.

٤٦

الفَجْرُ الرُّوحيّ

عِنْدَمَا يَدْخُلُ الْفَجْرُ الأَبْيَضُ الْوَرْدِيُّ، وَسْطَ الْمَاجِنِين،
إِلَى مُجْتَمَعِ الْمِثَالِ الْمُضْنِي،
يَصْحُو مَلاَكٌ مِنَ النُّعَاسِ الضَّارِي
عَلَى فِعْلِ سِرٍّ خَفِيٍّ مُنْتَقِم.

فَالزُّرْقَةُ بَعِيدَةُ الْمَنَالِ لِلسَّمَاوَاتِ الرُّوحِيَّة،
مِنْ أَجْلِ الإِنْسَانِ الصَّرِيعِ الْحَالِمِ مَا يَزَالُ وَالْمُتَأَلِّم،
تَنْفَتِحُ وَتَغُورُ بِجَاذِبِيَّةِ الْهَاوِيَة.
هَكَذَا، يَا رَبَّتِي الْمَحْبُوبَة، أَيُّهَا الْكَائِنُ الْجَلِيُّ الصَّافِي،

عَلَى الأَطْلاَلِ الدَّاخِنَةِ لِلْعَرْبَدَاتِ الْحَمْقَاء
تُرَفْرِفُ ذِكْرَاكِ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا، وَوَرْدِيَّةً، وَفِتْنَةً،
بِلاَ انْتِهَاءٍ، أَمَامَ عَيْنَيَّ الْمُتَّسِعَتَيْن.

أَعْتَمَتِ الشَّمْسُ شُعْلَةَ الشُّمُوع؛

هَكَذَا، أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْمُتَأَلِّقَةُ، الْقَاهِرَة،

فَطَيْفُكِ يُشْبِهُ دَائِمًا الشَّمْسَ الْخَالِدَة!

٤٧

تَنَاغُمُ المسَاء

هَا هُوَ الزَّمَنُ يَأتِي حَيْثُ كُلُّ زَهْرَة
مُتَمَايِلَةٍ عَلَى سَاقِهَا تَفُوحُ مِثْلَ مِبْخَرَة؛
تَدُورُ الأَصْوَاتُ وَالْعُطُورُ فِي هَوَاءِ الْمَسَاء؛
رَقْصَةٌ حَزِينَةٌ وَدُوَارٌ فَاتِر!

كُلُّ زَهْرَةٍ تَفُوحُ مِثْلَ مِبْخَرَة؛
الْكَمَانُ يَرْتَعِشُ مِثْلَ قَلْبٍ شَجِيّ؛
رَقْصَةٌ حَزِينَةٌ وَدُوَارٌ فَاتِر!
وَالسَّمَاءُ كَئِيبَةٌ وَجَمِيلَةٌ مِثْلَ مَذْبَحِ كَنِيسَةٍ رَحِيب.

الْكَمَانُ يَرْتَعِش مِثْلَ قَلْبٍ شَجِي،
قَلْبٍ رَهِيفٍ، يَكْرَهُ الْعَدَمَ الشَّاسِعَ الأَسْوَد!
وَالسَّمَاءُ كَئِيبَةٌ وَجَمِيلَةٌ مِثْلَ مذْبَحِ كَنِيسَةٍ رَحِيب،
وَالشَّمْسُ غَرِقَت فِي دَمِهَا الْمُتَخَثِّر.

قَلْبٌ رَهِيفٌ، يَكْرَهُ الْعَدَمَ الشَّاسِعَ الأَسْوَد،
يُلَمْلِمُ كُلّ بَقَايَا الْمَاضِي المُضِيء!
وَالشَّمْسُ غَرِقَت فِي دَمِهَا الْمُتَخَثِّر...
وَذِكْرَاكِ دَاخِلِي تَتَلأَلأُ مِثْلَ مَعْرِضِ الْقَرَابِينِ الْفِضِّي!

٤٨

قارُورة العطر

هُنَاكَ عُطُورٌ قَوِيَّةٌ تَتَخَلّلُ كُلَّ الْمَوَاد.
وَيَبْدُو أَنَّهَا تَخْتَرِقُ الزُّجَاج.
وَعِنْدَمَا نَفْتَحُ صُنْدُوقًا قَادِمًا مِنَ الشَّرْق
وَقِفْلُهُ يَصِرُّ وَيَعْبَسُ صَارِخًا،

أَو بِخِزَانَةِ ثِيَابٍ فِي مَنْزِلٍ مَهْجُورٍ،
مُفْعَمَةٍ بِرَائِحَةِ الزَّمَنِ اللاَّذِعَةِ، التُّرَابِيَّةِ الْقَاتِمَة،
أَحْيَانًا مَا يَجِدُ الْمَرْءُ قَارُورَةَ عِطْرٍ قَدِيمَة
تَذْكُرُ مِنْ أَيْنَ تَنْبَثِقُ ـ فَتِيَّةً ـ رُوحٌ عَائِدَة.

أَلْفُ فِكْرَةٍ كَانَت تَنَامُ، كَالْفَرَاشَاتِ الْمَشْئُومَة،
مُرْتَعِشَةً بِرِقَّةٍ فِي الظُّلُمَاتِ الْوَبِيلَة،
تُطْلِقُ جَنَاحَهَا وَتَنْطَلِقُ مُحَلِّقَة،
مُصْطَبِغَةً بِالأَزْرَق، مُوَشَّاةً بِالْوَرْدِيِّ، مُبَرْقَشَةً بِالذَّهَب.

هَا هِيَ الذِّكْرَى الْمُسْكِرَةُ تُرَفْرِف
فِي الْهَوَاءِ الْمُضْطَرِبِ؛ الْعَيْنَانُ مُغْمَضَتَانِ؛ وَالدُّوَار
يَنْتَابُ الرُّوحَ الْمَهْزُومَةَ وَيَدْفَعُهَا بِيَدَيْن
إِلَى هُوَّةٍ مُظْلِمَةٍ بِالْعَفَنِ الإِنْسَانِيّ؛

يَصْرَعُهَا عَلَى حَافَّةِ هَاوِيَةٍ غَابِرَة،
فِيمَا، وَالعَازَرُ الْمُعَطَّرُ يُمَزِّقُ أَكْفَانَه،
يَتَحَرَّكُ فِي صَحْوَتِهِ الْجُثْمَانُ الشَّبَحِيّ
لِحُبٍّ قَدِيمٍ زَنِخٍ، سَاحِرٍ وَمَقْبُور.

هَكَذَا، عِنْدَمَا سَأَضِيعُ مِنْ ذَاكِرَةِ النَّاس،
عِنْدَمَا سَيُرْمَى بِي، فِي رُكْنٍ بِخِزَانَةِ ثِيَابٍ مَشْئُومَة،
كَقَارُورَةِ عِطْرٍ قَدِيمَةٍ مَهْجُورَة،
رَثَّةٍ، مُتْرِبَةٍ، قَذِرَةٍ، حَقِيرَةٍ، لَزِجَةٍ، مَشْدُوخَة،

سأَكُونُ كَفَنَك، أَيُّهَا الْوَبَاءُ الْمَحْبُوب!
الشَّاهِدَ عَلَى قُوَّتِكَ وَعَلَى حِدَّتِك،
أَيُّهَا السُّمُّ الَّذِي أَعَدَّتْهُ الْمَلاَئِكَة!
الشَّرَابُ الَّذِي يَتَآكَلُنِي، يَا حَيَاةَ وَمَوْتَ قَلْبِي!

٤٩

السُّـــم

يَعْرِفُ الْخَمْرُ أَن يَكْسُوَ أَقْذَرَ الأَكْوَاخ
بِتَرَفٍ خَارِق،
وَيَبْعَثَ أَكْثَرَ مِنْ رُوَاقٍ خُرَافِيّ
فِي ذَهَبِ الْبُخَارِ الأَحْمَر،
مِثْلَ شَمْسٍ غَارِبَةٍ فِي سَمَاءٍ غَائِمَة.

يُضَخِّمُ الأَفْيُونُ مَا لاَ تُخُومَ لَه،
وَيُطِيلُ مَا لاَ حُدُودَ لَه،
يُعَمِّقُ الزَّمَنَ، وَيُجَوِّفُ الشَّهْوَة،
وَيُفْعِمُ الرُّوحَ إِلَى مَا فَوْقَ طَاقَتِهَا
بِمَلَذَّاتٍ سَوْدَاءَ كَئِيبَة.

كُلُّ هَذَا لاَ يُبَارِي السُّمَّ الْمُنْسَاب
مِنْ عَيْنَيْكِ، عَيْنَيْكِ الْخَضْرَاوَيْن،

الْبُحَيْرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَرْتَعِشُ فِيهِمَا رُوحِي وَتَنْعَكِس...
وَتَأْتِي أَحْلاَمِي مُتَزَاحِمَة
لِتَرْتَوِيَ مِنْ هَاتَيْنِ الْهُوَّتَيْنِ الْمَرِيرَتَيْن.

كُلُّ هَذَا لاَ يُبَارِي الْمُعْجِزَةَ الرَّهِيبَة
لِرِيقِكِ اللاَّذِع،
الَّذِي يُغْرِقُ فِي النِّسْيَانِ رُوحِي بِلاَ نَدَم،
وَفِيمَا يَجْرِفُهَا الدُّوَار،
يَدْفَعُهَا خَائِرَةً إِلَى شَوَاطِئِ الْمَوْت!

٥٠

سَماءٌ غائمَة

تَبْدُو نَظْرَتُكِ مَحْجُوبَةً بِبُخَار؛
وَعَيْنُكِ الْغَامِضَة (أَهي زَرْقَاءُ، أَم رَمَادِيَّةٌ أَم خَضْرَاء؟)
الْعَذْبَةُ، الْحَالِمَةُ، الْقَاسِيَةُ، بِالتَّنَاوُب
تَعْكِسُ اللاَّمُبَالاَةَ وَشُحُوبَ السَّمَاء.

تُذَكِّرِينَنِي بِتِلْكَ الأَيَّامِ الْبَيْضَاء، الْفَاتِرَةِ وَالْغَائِمَة،
الَّتِي تَدْفَعُ الْقُلُوبَ الْمَفْتُونَةَ إِلَى ذَرْفِ الدُّمُوع،
حِينَمَا، مُهْتَاجَةً تَحْتَ وَطْأَةِ أَلَمٍ مَجْهُولٍ يَعْتَصِرُهَا،
تَسْخَرُ الأَعْصَابُ الْمُؤَرَّقَةُ مِنَ الْعَقْلِ النَّائِم.

تُشْبِهِينَ ـ أَحْيَانًا ـ هَذِهِ الآفَاقَ الْجَمِيلَة
الَّتِي تُضِيئُهَا شُمُوسُ الْفُصُولِ الضَّبَابِيَّة...
كَم تَتَأَلَّقِينَ! أَيُّهَا الْمَشْهَدُ الطَّبِيعِيُّ النَّدِيّ
الَّذِي تُشْعِلُه الأَشِعَّةُ الْمُتَسَاقِطَةُ مِنْ سَمَاءٍ غَائِمَة!

أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ الْخَطِرَة! أَيَّتُهَا الْمَنَاخَاتُ الْمُغْوِيَة!
هَل سَأَعْشَقُ أَيْضًا ثُلُوجَكِ وَصَقِيعَك؟
وَهَل سَأَسْتَمِدُّ مِنَ الشِّتَاءِ الْعَنِيد
مَلَذَّاتٍ أَكْثَرَ حِدَّةً مِنَ الثَّلْجِ وَالْحَدِيد؟

٥١

القط

(١)

يَتَمَشَّى فِي فِكْرِي،
مِثْلَمَا فِي شَقَّتِه،
قِطٌّ جَمِيلٌ، قَوِيٌّ، رَقِيقٌ وَسَاحِر.
وَعِنْدَمَا يَمُوءُ، لاَ يَكَادُ يُسْمَع،

نَبْرَتُهُ بَالِغَةُ الْعُذُوبَةِ وَالْحَمِيمِيَّة؛
لَكِن سَوَاء كَانَ صَوْتُهُ هَادِئًا أَمْ مُزَمْجِرًا،
فَهوَ دَائِمًا غَنِيٌّ وَعَمِيق،
وَذَلِكَ هُوَ سِحْرُه وَسِرُّه.

هَذَا الصَّوْتُ، الَّذِي يَتَقَطَّعُ وَيَتَقَطَّر
فِي أَعْمَاقِيَ الْمُظْلِمَة،
يُفْعِمُنِي كَقَصِيدَةٍ مُتَنَاغِمَة

وَيُبْهِجُنِي كَشَرَابِ الْحُب.

يُسَكِّنُ أَقْسَى الآلاَم
وَيَحْتَوِي كُلَّ النَّشَوَات؛
وَكَي يَنْطِقَ بِأَطْوَل الْعِبَارَات،
لاَ يَحْتَاجُ إِلَى كَلِمَات.

لاَ، لَيْسَ قَوْسَ كَمَانٍ
مَا يَلْدَغُ قَلْبِيَ، الآلَةَ الْمُكْتَمِلَة،
وَيَجْعَلُ وَتَرَه الْمُتَذَبْذِب
يُغَنِّي بِصُورَةٍ أَرْوَع

مِن صَوْتِك، أَيُّهَا الْقِطُّ الْغَامِض،
الْقِطُّ الْمَلاَئِكِيّ، الْقِطُّ الْغَرِيب،
الَّذِي كُلُّ مَا فِيهِ، ـ مِثْلَمَا فِي مَلاَك ـ
رَهِيفٌ بِقَدْرِ مَا هُوَ مُتَنَاغِم!

(٢)

مِنْ فِرَائِهِ الأَشْقَر وَالْبُنِّي
يَصَّاعَدُ عَبِيرٌ بَالِغُ الْعُذُوبَةِ، حَتَّى إِنَّنِي ذَاتَ مَسَاء
تَعَطَّرْتُ مِنْه، بَعَدَ مُدَاعَبَتِهِ مَرَّة،

لاَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّة.

هُوَ الرُّوحُ الأَلِيفَةُ لِلْمَكَان؛
يُصْدِرُ الْقَرَارَاتِ، يَرأَسُ، وَيُلْهِم
كُلَّ شَيْءٍ فِي إمْبَرَاطُورِيَّتِه؛
أَرُبَّمَا هُوَ جِنِّيَّة، أَهوَ إِلَه؟

عِنْدَمَا تَنْجَذِبُ عَيْنَايَ، إِلَى هَذَا الْقِطِّ الَّذِي أُحِبُّه،
مِثْلَمَا بِمغْنَاطِيس،
تعُودَانِ خَاضِعَتَيْن
وَحِينَمَا أَنْظُرُ دَاخِلَ نَفْسِي،

أَرَى بِذُهُول
نَارَ بُؤْبُؤَيْهِ الشَّاحِبَيْن،
فَنَارَيْنِ سَاطِعَيْن، حَجَرَيْ أُوبَالٍ حَيَّيْن،
يَتَأَمَّلاَنِنِي فِي إمْعَان.

٥٢

السَّفينةُ الجَمِيلَة

أَوَدُّ أَنْ أَصِفَ لَكِ، أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ الرَّقِيقَة!
الْمَفَاتِنَ الْمُتَنَوِّعَةَ الَّتِي تُزَيِّنُ شَبَابَك؛
أَوَدُّ أَنْ أَرْسُمَ لَكِ جَمَالَك،
حَيْثُ تَمْتَزِجُ الطُّفُولَةُ بِالنُّضْج.

حِينَمَا تَمْضِينَ جَارِفَةً الْهَوَاءَ بِتَنُّورَتِكِ الْكَبِيرَة،
تُشْبِهِينَ سَفِينَةً جَمِيلَةً تَنْطَلِقُ إِلَى الْبَحْر،
مُشْرَعَةَ الشِّرَاعِ، وَتَمْضِينَ الْهُوَيْنَى
بِإِيقَاعٍ عَذْبٍ، فَاترٍ، بَطِيء.

عَلَى عُنُقِكِ الْمُكْتَنِزِ الْمُسْتَدِيرِ، عَلَى كَتِفَيْكِ الْمُمْتَلِئَتَيْن،
تَتَبَخْتَرُ رَأْسُكِ بِفِتْنَةٍ غَرِيبَة؛
وَبِسِيمَاءَ وَدِيعَةٍ ظَافِرَة
تَجْتَازِينَ طَرِيقَكِ، طِفْلَةً مهِيبَة.

أَوَدُّ أَنْ أَصِفَ لَكِ ـ أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ الرَّقِيقَة!
الْمَفَاتِنَ الْمُتَنَوِّعَةَ الَّتِي تُزَيِّنُ شَبَابَك؛
أَوَدُّ أَنْ أَرْسُمَ لَكِ جَمَالَك،
حَيْثُ تَمْتَزِجُ الطُّفُولَةُ بِالنُّضْج.

صَدْرُكِ الْبَارِزُ الَّذي يَدْفَعُ الْقُمَاشَ الْمُتَمَاوِج،
صَدْرُكِ الظَّافِرُ خِزَانَةٌ جَمِيلَة
أَلْوَاحُهَا الْمُحَدَّبَةُ الْمُشْرِقَة
مِثْلَ الدُّرُوعِ تَجْتَذِبُ الْبُرُوق؛

دُرُوعٌ مُغْرِيَةٌ، مُسَلَّحَةٌ بِرُءُوسٍ وَرْدِيَّة!
خِزَانَةٌ مَلأَى بِأَسْرَارٍ عَذْبَةٍ، بِأَشْيَاءَ طَيِّبَة،
بِخَمْرٍ، وَعُطُورٍ، وَمَشْرُوبَات
تُصِيبُ الأَذْهَانَ وَالْقُلُوبَ بِالهَذَيَان!

حِينَمَا تَمْضِينَ جَارِفَةً الْهَوَاءَ بِتَنُّورَتِكِ الْكَبِيرَة،
تُشْبِهِينَ سَفِينَةً جَمِيلَةً تَنْطَلِقُ إِلَى الْبَحْر،
مُشْرَعَةَ الشِّرَاعِ، وَتَمْضِينَ الْهُوَيْنَى
بِإِيقَاعٍ عَذْبٍ، فَاتِرٍ، بَطِيء.

سَاقَاكِ النَّبِيلَتَانِ، تَحْتَ أَذْيَالِ ثَوْبِكِ الْمُطَارَدَةِ مِنْهُمَا،
تُعَذِّبَانِ وَتُثِيرَانِ الشَّهَوَاتِ الْغَامِضَة،
مِثْلَ سَاحِرَتَيْنِ تُقَلِّبَان
شَرَابًا أَسْوَدَ فِي قِدْرٍ عَمِيق.

وَذِرَاعَاكِ، اللَّتَانِ يُمْكِنُ أَن تَتَلاعَبَا بِالْهَرَاقِلَةِ الْمُبَكِّرِين،
هُمَا غَرِيمَان عَنِيدَانِ لِثَعَابِينِ الْبُوَا الْمُضِيئَة،
مَخْلُوقَانِ لاحْتِضَانِ حَبِيبِكِ بِعُنْفُوَان،
كَأَنَّمَا لِتَطْبَعِيهِ فِي قَلْبِك.

عَلَى عُنُقِكِ الْمُكْتَنِزِ الْمُسْتَدِيرِ، عَلَى كَتِفَيْكِ الْمُمْتَلِئَتَيْن،
تَتَبَخْتَرُ رَأْسُكِ بِفِتْنَةٍ غَرِيبَة؛
وَبِسِيمَاءَ وَدِيعَةٍ ظَافِرَة
تَجْتَازِينَ طَرِيقَكِ، طِفْلَةً مهيبَة.

٥٣

الدعوَةُ إلَى السَّفَر

يَا طِفْلَتِي، يَا أُخْتِي،
فَلْتُفَكِّرِي فِي عُذُوبَة
الذِّهَابِ هُنَاكَ لِلْعَيْشِ مَعًا!
أَن نحِبَّ فِي وَقْتِ الْفَرَاغ،
أَنْ نُحِبَّ وَنَمُوت
فِي بَلَدٍ يُشْبِهُك!
الشُّمُوسُ الْبَلِيلَة
لِهَذِهِ السَّمَاوَاتِ الْغَائِمَة
لَهَا فِي نَفْسِي الْمَفَاتِنُ نَفْسُهَا
بَالِغَةُ الْغُمُوض
لِعَيْنَيْكِ الْخَائِنَتَيْن،
الْمُتَأَلِّقَتَيْنِ خِلاَلَ الدُّمُوع.

هُنَاكَ، لاَ شَيْءَ سِوَى نِظَامٍ وَجَمَال،
تَرَفٍ، وَسَكِينَةٍ وَشَهْوَة.

أَثَاثَاتٌ مُشْرِقَة،

صَقَلَتْهَا السُّنُون،

سَتُزَيِّنُ غُرْفَتَنَا؛

وَأَنْدَرُ الزُّهُور

الَّتِي تَمْزِجُ أَرِيجَهَا

بِرَوَائِحِ الْعَنْبَرِ الْمُبْهَمَة،

وَالسُّقُوفُ الْفَاخِرَة،

وَالْمَرَايَا الْغَائِرَة،

وَالرَّوْعَةُ الشَّرْقِيَّة،

كُلُّ شَيءٍ سَيَتَكَلَّم

فِي السِّرِّ إِلَى الرُّوح

لُغَتَه الأَصْلِيَّةَ الْعَذْبَة.

هُنَاكَ، لاَ شَيْءَ سِوَى نِظَامٍ وَجَمَال،

تَرَفٍ، وَسَكِينَةٍ وَشَهْوَة.

فَلْتَنْظُرِي إِلَى هَذِهِ الْقَنَوَات

حَيْثُ تَنَامُ هَذِهِ السُّفُن

ذَاتُ الْمِزَاجِ الْمُتَسَكِّع؛

فَلِكَي تُحَقِّقَ
أَوْهَى رَغَبَاتِك
تَأتِي مِن أَقْصَى الْعَالَم.
ـ الشُّمُوسُ الْغَارِبَة
تَكْسُو الْحُقُول،
وَالْقَنَوَاتِ، وَكُلَّ الْمَدِينَة،
بِالْيَاقُوتِ وَالذَّهَب؛
وَيَنَامُ الْعَالَم
فِي ضِيَاءٍ حَار.

هُنَاكَ، لاَ شَيْءَ سِوَى نِظَامٍ وَجَمَال،
تَرَفٍ، وَسَكِينَةٍ وَشَهْوَة.

٥٤

بِلاَ تَكْفِير

هَلْ نَسْتَطِيعُ إِخْمَادَ النَّدَامَاتِ الْقَدِيمَةِ، الطَّوِيلَة،
الَّتِي تَحْيَا، وَتَهْتَاجُ، وَتَتَلَوَّى،
وَتَتَغَذَّى بِنَا كَمَا الدُّودُ بِالْمَوْتَى،
كَمَا الْيَرَقَةُ بِالْبَلُّوط؟
هَلْ نَسْتَطِيعُ إِخْمَادَ النَّدَامَاتِ الْعَصِيَّة؟

فِي أَيِّ شَرَابِ حُبٍّ، فِي أَيِّ خَمْرٍ، فِي أَيِّ سَائِلٍ مَنْقُوع،
نُغْرِقُ هَذَا الْعَدُوَّ الْقَدِيم،
الْمُدَمِّرَ الشَّرِهَ كَمَا الْعَاهِرَة،
الصَّبُورَ كَمَا النَّمْلَة؟
فِي أَيِّ شَرَابِ حُبٍّ، فِي أَيِّ خَمْرٍ، فِي أَيِّ سَائِلٍ مَنْقُوع؟

فَلْتَقُولِي، أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ الْجَمِيلَةُ، آهِ! قُولِي، لَو تَعْلَمِين،
لِهَذِهِ النَّفْسِ الطَّافِحَةِ بِالْكُرُوب

الشَّبِيهَةِ بِمَيِّتٍ يَسْحَقُهُ الْجَرْحَى،

وَتَهْرِسُهُ سَنَابِكُ الْخُيُول،

فَلْتَقُولِي، أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ الْجَمِيلَةُ، آهِ! قُولِي، لَو تَعْلَمِين،

لِهَذَا الْمُحْتَضَرِ الَّذِي اشْتَمَّهُ الذِّئْبُ

وَيَتَرَصَّدُهُ الْغُرَاب،

لِهَذَا الْجُنْدِيِّ الْكَسِير! إِنْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَرْكَنَ لِلْيَأس

مِنَ نَيْلِ صَلِيبِهِ وَقَبْرِه؛

هَذَا الْمُحْتَضَرُ الْبَائِسُ الَّذِي اشْتَمَّه الذِّئْبُ!

هَلْ يُمْكِنُ إِضَاءَةُ سَمَاءٍ مُوحِلَةٍ وَسَوْدَاء؟

هَلْ يُمْكِنُ شَقُّ ظُلُمَاتٍ

أَكْثَفَ مِنَ الْقَطْرَانِ، بِلاَ صَبَاحٍ وَلاَ مَسَاء،

بِلاَ نُجُومٍ، وَلاَ بُرُوقَ كَئِيبَة؟

هَل يُمْكِنُ إِضَاءَةُ سَمَاءٍ مُوحِلَةٍ وَسَوْدَاء؟

الأَمَلُ الَّذِي يُشْرِقُ فِي نَوَافِذِ الْفُنْدُق

انْطَفَأَ، ومَاتَ إِلَى الأَبَد!

بِلاَ قَمَرٍ وَلاَ أَشِعَّة، فَلْتَكْتَشِفِي أَيْنَ يَأوِي

شُهَدَاءُ الطَّرِيقِ الْعَاثِر!

فَالشَّيْطَانُ أَطْفَأَ كُلَّ شَيْءٍ فِي نَوَافِذِ الْفُنْدُق!

أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ الْحَبِيبَةُ، أَتُحِبِّينَ الْمَلْعُونِين؟
قُولِي، أَتَعْرِفِينَ مَا لاَ يُغْتَفَر؟
أَتَعْرِفِينَ النَّدَامَةَ، ذَاتَ الْمَلاَمِحِ الْمَسْمُومَة،
الَّتِي يُسْتَخْدَمُ قَلْبُنَا هَدَفًا لَهَا؟
أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ الْحَبِيبَةُ، أَتُحِبِّينَ الْمَلْعُونِين؟

مَا لاَ تَكْفِيرَ لَه يَقْضِمُ بِأَسْنَانِهِ اللَّعِينَة
رُوحَنَا، ذَلِكَ الصَّرْحَ الْمُثِيرَ لِلشَّفَقَة،
وَكَثِيرًا مَا يُهَاجِمُ، مِثْلَ الأَرَضَة،
الْبِنَاءَ مِنَ الأَسَاس.
فَمَا لاَ تَكْفِيرَ لَه يَقْضِمُ بِأَسْنَانِهِ اللَّعِينَة!

رَأَيْتُ أَحْيَانًا، فِي أَعْمَاقِ مَسْرَحٍ عَادِيّ
كَانَت تُلْهِبُه فِرْقَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ صَاخِبَة،
جِنِّيَّةً تُضِيءُ فِي سَمَاءٍ جَهَنَّمِيَّة
فَجْرًا خَارِقًا؛
رَأَيْتُ أَحْيَانًا، فِي أَعْمَاقِ مَسْرَحٍ عَادِيّ

كَائِنًا، لَم يَكُن سِوَى ضَوْءٍ، وَذَهَبٍ وَغَاز،

يَصْرَعُ الشَّيْطَانَ الْهَائِل؛

لَكِنَّ قَلْبِي ـ الَّذِي لاَ يَعْرِفُ النَّشْوَةَ أَبَدًا ـ

هُو مَسْرَحٌ يَنْتَظِرُ الْمَرْءُ فِيه

دَائِمًا ـ دَائِمًا سُدًى ـ الْكَائِنَ ذَا الْجَنَاحَيْنِ مِنْ غَاز!

٥٥

مُحادثَـة

سَمَاءُ خَرِيفٍ جَمِيلَةٌ أَنْتِ، صَافِيَةٌ وَوَرْدِيَّة!
لَكِنَّ الْحُزْنَ يَصَّاعَدُ دَاخِلِي كالْبَحْر،
وَيَتْرُكُ، عِنْدَ انْسِحَابِهِ، عَلَى شَفَتِي الْكَئِيبَة
الذِّكْرَى الْحَارِقَةَ لِوْحْلِهِ الْمَرِير.

ـ يَدُكِ تَنْسَابُ سُدًى عَلَى صَدْرِي الْمُغْمَى عَلَيْه؛
فَمَا تَبْحَثُ عَنْهُ، يَا صَدِيقَتِي، هُوَ مَوْضِعٌ دَمَّرَتْه
الْمَخَالِبُ وَالأَنْيَابُ الْوَحْشِيَّةُ لِلْمَرْأَة.
فَلاَ تَبْحَثِي عَنْ قَلْبِي؛ فَقَد الْتَهَمَتْهُ الْوُحُوش.

قَلْبِي قَصْرٌ عَاثَ فِيهِ الْغَوْغَاء؛
فِيهِ يَسْكَرُونَ، وَيَقْتُلُون، ويُمْسِكُ بَعْضُهُم بِشَعْرِ بَعْض!
ـ أَرِيجٌ يَعُومُ حَوْلَ صَدْرِكِ الْعَارِي!...

أَيُّهَا الْجَمَالُ، أَيَّتُهَا الآفَةُ الْقَاسِيَةُ لِلأَرْوَاحِ، تُرِيدِينَه!
بَعْيَنَيْكِ النَّارِيَّتَيْنِ، الْمُتَأَلِّقَتَيْنِ كَالأَعْيَاد،
فَلْتُحْرِقِي هَذِهِ الأَشْلاَءَ الَّتِي خَلَّفَتْهَا الْوُحُوش!

٥٦

أُغْنيَّةُ الخَريف

(١)

سرْعَانَ مَا سَنَغْرِقُ فِي الظُّلُمَاتِ الْبَارِدَة؛
فَوَدَاعًا، أَيُّهَا الضِّيَاءُ الْحَيُّ لِصَيْفِنَا الْقَصِير!
هَا أَنَذَا أَسْمَعُ الأَخْشَابَ تَسَّاقَطُ فِي ارْتِطَامَاتٍ كَئِيبَة
مُدَوِّيَةً عَلَى بَلاَطِ الأَفْنِيَة.

الشِّتَاءُ كُلُّه سَيَعُودُ إِلَى وُجُودِي: الْغَضَب،
وَالْكَرَاهِيَةُ، وَالارْتِعَادُ، وَالرُّعْبُ، وَالْعَمَلُ الشَّاقُّ الإِجْبَارِيّ،
وَمِثْلَ الشَّمْسِ فِي جَحِيمِهَا الْقُطْبِيّ،
لَنْ يُصْبِحَ قَلْبِي إِلاَّ كُتْلَةً حَمْرَاءَ ثَلْجِيَّة.

أَسْمَعُ مُرْتَعِدًا كُلَّ الأَحْطَابِ الْمتَسَاقِطَة؛
وَلَيْسَ أَكْثَرَ صَمَمًا صَدَى مِنَصَّةِ الإِعْدَامِ الَّتِي تُقَام.
وَرُوحِي تُشْبِهُ بُرْجًا يَنْهَار
تَحْتَ ضَرَبَاتِ مِطْرَقَةٍ ثَقِيلَةٍ لاَ تَكِلّ.

وَيَبْدُو لِي، إِذْ يُهَدْهِدُنِي هَذَا الارْتِطَامُ الرَّتِيب.
أَنَّهُم يُسَمِّرُونَ عَلَى عَجَلٍ نَعْشًا فِي مَكَانٍ مَا.
لِمَن؟ ـ بِالأَمْسِ كَانَ الصَّيْف؛ وَهَا هُوَ الْخَرِيف!
وَهَذَا الضَّجِيجُ الْغَامِضُ يُدَوِّي كَرَحِيل.

(٢)

أُحِبُّ فِي عَيْنَيْكِ الطَّوِيلَتَيْنِ الضِّيَاءَ الأَخْضَر،
وَالجَمَالَ الْعَذْبَ، لَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ الْيَوْمَ عِنْدِيَ مُرّ
وَلاَ شَيْءَ، لاَ حُبُّكِ، وَلاَ غُرْفَتُكِ، وَلاَ الْمِدْفَأَة،
يُسَاوِي عِنْدِيَ الشَّمْسَ السَّاطِعَةَ عَلَى الْبَحْر.

فَلْتُحِبِّنِي، مَعَ ذَلِكَ، أَيُّهَا الْقَلْبُ الرَّهِيف!
فَلْتكُن أُمًّا حَتَّى لِلْعَاقِّ، حَتَّى لِلشِّرِّير؛
حَبِيبَةً أَوْ شَقِيقَةً، فَلْتكُن الْعُذُوبَةَ الْعَابِرَة
لِخَرِيفٍ مَجِيدٍ أَوْ شَمْسٍ غَارِبَة.

دَوْرٌ قَصِير! فَالْمَقْبَرَةُ تَنْتَظِرُ؛ شَرِهَة!
آهِ! دَعِينِي، وَجَبِينِي عَلَى رُكْبَتَيْك
أَذُوقُ ـ آسِفًا عَلَى الصَّيْفِ الأَبْيَضِ الْمُلْتَهِب
الشُّعَاعَ الأَصْفَرَ الْعَذْبَ لِنِهَايَةِ الْخَرِيف!

٥٧

إلَى عَذرَاء

نَذر على الطَّريقَة الأسبَانية

أُرِيدُ أَنْ أَبْتَنِيَ لَكِ، أَيَّتُهَا الْعَذْرَاءُ، يَا عَشِيقَتِي،
هَيْكَلاً خَفِيًّا فِي أَعْمَاقِ حُزْنِي،
وَأَحْفِرَ فِي الرُّكْنِ الأَكْثَرِ سَوَادًا مِنْ قَلْبِي،
بَعِيدًا عَنِ الشَّهْوَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالنَّظْرَةِ السَّاخِرَة،
كُوَّةً، مُرَصَّعَةً بِالزُّرْقَةِ وَالذَّهَب،
تَنْتَصِبِينَ فِيهَا، تِمْثَالاً مُذْهِلاً.
وَبِقَصَائِدِي الصَّقِيلَةِ، المَضْفُورَةِ مِنْ مَعْدِنٍ نَقِيّ
مُوَشًّى بِبَرَاعَةٍ بِقَوَافٍ مِنْ بِلَّوْر،
سَأَصْنَعُ لِرَأسِكِ تَاجًا هَائِلا؛
وَمِنْ غِيرَتِيَ، أَيَّتُهَا الْعَذْرَاءُ الْفَانِيَة،
سَأَحِيكُ لَكِ مِعْطَفًا، خَشِنًا وَثَقِيلاً
بِالطَّرِيقَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ، مُبَطَّنًا بِالشَّكّ
سَيَحْبِسُ مَفَاتِنَكِ، مِثْلَ بُرْجِ مُرَاقَبَة؛

لَيْسَ مُوَشًّى بِاللَّآلِئِ، بَلْ بِجَمِيعِ دُمُوعِي!
وَرِدَاؤُكِ سَيَكُونُ شَهْوَتِي، الْمُرْتَعِشَة،
الْمُتَمَاوِجَة، شَهْوَتِي الصَّاعِدَةَ الْهَابِطِة،
تَتَمَايَلُ فِي الذُّرَى، وَتَسْتَرْخِي فِي السُّفُوح،
وَأَكْسُو بِقُبْلَةٍ جَسَدَكِ كُلَّه الأَبْيَضَ الْوَرْدِي.
وَسَأَصْنَعُ لَكِ مِنَ احْتِرَامِي خُفَّيْنِ جَمِيلَيْن
مِنَ السَّاتَانِ، يَخْضَعَانِ لِقَدَمَيْكِ السَّمَاوِيَّتَيْن،
وَيَسْجنَانِهِمَا، فِي عِنَاقٍ حَمِيم،
مِثْلَ قَالَبٍ مُخْلِصٍ سَيَحْتَفِظُ بِالأَثَر.
وَإِنْ لَم أَسْتَطِع، رَغْمَ فَنِّيَ الْمُثَابِر،
أَنْ أَصُوغَ قَمَرًا مِنْ فِضَّةٍ مَوْطِئًا لَك،
فَسَأَضَعُ الثُّعْبَانَ الَّذِي يَنْهَشُ أَحْشَائِي
تَحْتَ كَعْبَيْكِ، حَتَّى تَدْهَسِي وَتَسْخَرِي،
أَيَّتُهَا الْمَلِكَةُ الْمُنْتَصِرَةُ وَالْخِصْبَةُ فِي الافْتِدَاء،
مِنْ هَذَا الْوَحْشِ الطَّافِحِ بِالْحِقْدِ وَالْبُصَاق.
سَتَرَينَ أَفْكَارِي، مَصْفُوفَةً كَالشُّمُوع
أَمَامَ الْهَيْكَلِ الْمُزْدَهِرِ بِمَلِكَةِ الْعَذَارَى،
تُرَصِّعُ الانْعِكَاسَاتُ كَالنُّجُومِ السَّقْفَ الْمُلَوَّنَ بِالأَزْرَق،
وَهِيَ تَرْقُبُكِ دَائِمًا بِعُيُونٍ مِنْ نَار؛
ولأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيَّ يَعْشَقُكِ وَيُعْجَبُ بِك،
فَيُصْبِحُ الكُلُّ لِبَانًا، وَبخورًا، وَصَمْغًا، وَمُرًّا،

وَسَتَرْقَى رُوحِي الْعَاصِفَة، كَبُخَار
إِلَيْكِ بِلاَ انْتِهَاءٍ، أَيَّتُهَا الْقِمَّةُ الْبَيْضَاءُ الثَّلْجِيَّة.

وَفِي النِّهَايَةِ، لِكَيْ تَسْتَكْمِلِي دَوْرَ مَرْيَم،
وَلِيَمْتَزِجَ الْحُبُّ بِالْبَرْبَرِيَّة،
تِلْكَ الشَّهْوَةِ السَّوْدَاء! فَسَأَصْنَعُ مِنَ الْخَطَايَا السَّبْعِ الْكُبْرَى،
كَجَلاَّدٍ مُفْعَمٍ بِالنَّدَمِ، سَبْعَ سَكَاكِينَ قَاطِعَة،
وَكَمُشَعْوِذٍ بِلاَ إِحْسَاس،
مُتَّخِذًا أَعْمَقَ أَعْمَاقِ حُبِّكِ هَدَفا،
سَأَغْرِسُهَا جَمِيعًا فِي قَلْبِكِ النَّابِض
فِي قَلْبِكِ النَّائِحِ، فِي قَلْبِكِ الْمُنْسَاب!

٥٨

أُغنيةُ الأَصيـل

مَعَ أَنَّ حَاجِبَيْكِ الشِّرِّيرَيْن
يَمْنَحَانِكِ سِيمَاءَ غَرِيبَة
لَيْسَت سِيمَاءَ مَلاَك،
أَيَّتُهَا السَّاحِرَةُ ذَات الْعَيْنَيْنِ الشَّهِيَّتَيْن،

فَإِنَّنِي أُحِبُّكِ، يَا طَائِشَتِي،
يَا هَوَايَ الْمُرْعِب!
بَإِخْلاَص
كَاهِنٍ لِمَعْبُودِه.

الصَّحْرَاءُ وَالْغَابَةُ
تُعَطِّرَانِ جَدَائِلَكِ الْخَشِنَة،
وَلِرَأسِكِ مَلاَمِحُ
اللُّغْزِ وَالسِّرّ.

عَلَى جَسَدِكِ يَطُوفُ الْعِطْر
كَمَا حَوْلَ مَبْخَرَة؛
تَفْتِنِينَ كَالْمَسَاء،
يَا حُورِيَّةَ الْمَاءِ الْمُظْلِمَةَ السَّاخِنَة.

آهِ! أَقْوَى الْمَشْرُوبَات
لاَ يُضَاهِي كَسَلَك،
وَتَعْرِفِينَ الْمُدَاعَبَات
الَّتِي تُعِيدُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى!

فَخْذَاكِ عَاشِقَان
لِظَهْرِكِ وَثَدْيَيْك،
وَتَفْتِنِينَ الْوَسَائِد
بِأَوْضَاعِكِ الْمُتَرَاخِيَة.

وَأَحْيَانًا لِتَسْكِينِ
غَيْظِكِ الْغَامِض،
تَبْذُرِينَ، فِي جِدِّيَّة،
الْعَضَّاتِ وَالْقُبُلاَت؛

تُمَزِّقِينَنِي، يَا سَمْرَائِي،

بِضِحْكَةٍ هَازِئَة،
ثُمَّ تَضَعِينَ عَلَى قَلْبِي
عَيْنَكِ الْعَذْبَةَ مِثْلَ الْقَمَر.

تَحْتَ نَعْلَيْكِ السَّاتَان،
تَحْتَ قَدَمَيْكِ الْحَرِيرِيَّتَيْنِ السَّاحِرَتَيْن،
أَنَا، أَضَعُ فَرْحَتِي الْكُبْرَى،
وَعَبْقَرِيَّتِي وَمَصِيرِي،

تَتَعَافَى رُوحِي بِك،
بِكِ، أَيُّهَا الضَّوْءُ وَاللَّوْن!
يَا انْفِجَارَ الْحَرَارَة
فِي سَيْبِيرِيَايَ السَّوْدَاء!

٥٩

سيزِينيَا

فَلْتَتَخَيَّل «دِيَانَا»[1] وَسْطَ حَاشِيَتِهَا اللَّطِيفَة
تَجُوبُ الْغَابَاتِ أَو تَضْرِبُ فِي الأَدْغَال
شَعْرُهَا وَثَدْيَاهَا فِي الرِّيحِ، نَشْوَى بِالصَّخَب
مُتَرَفِّعَةً مُتَحَدِّيَةً أَفْضَلَ الفُرْسَان!

هَل رَأَيْتَ «ثِيرُوني»[2] حَبِيبَةَ الْمَجْزَرَة
وَهيَ تُحَرِّضُ عَلَى الْهُجُومِ شَعْبًا مِنَ الْحُفَاة،
وَجْنَتُهَا وَعَيْنَاهَا مُشْتَعِلَتَانِ، وَهيَ تُؤَدِّي دَوْرَهَا،
صَاعِدَةً، وَالسَّيْفُ فِي الْيَدِ، السَّلاَلِمَ الْمَلَكِيَّة؟

هَكَذَا هِي سِيزِينيَا! لَكِنَّ رُوحَ الْمُقَاتِلَة
الرَّقِيقَةِ رَحِيمَةٌ بِقَدْرِ مَا هِي قَاتِلَة؛

---

(١) ربّة الصيد، في الأساطير اليونانيّة.
(٢) ثيروني دي ميركور: بطلة الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩

وَشَجَاعَتُهَا، الشَّغُوفَةُ بِالْبَارُودِ وَالطُّبُول

تَعْرِفُ كَيْفَ تَضَعُ السِّلاَحَ أَمَامَ التَّوَسُّلاَت
وَدَائِمًا لِقَلْبِهَا، الَّذِي دَمَّرَتْهُ النِّيرَان
رَصِيدٌ مِنَ الدُّمُوعِ لِمَن يُبْدِي جَدَارَةً بِهَا.

٦٠

فرانشيسكا ماي لود (١)

أبياتٌ مكتوبةٌ إلى امرأةٍ متواضعة واسعةِ المعرفة ووَرِعة

سَأُغَنِّي لَكِ عَلَى أَوْتَارٍ جَدِيدَة،
يَا حُلْوَتِي الَّتِي تَمْرَح
فِي عُزْلَةِ قَلْبِي.

فَلْتَتَزَيَّنِي بِالإِكْلِيل،
أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ الشَّهِيَّة
الَّتِي بِفَضْلِهَا غُفِرَتِ الذُّنُوب!

مِثْلَ نِسْيَانٍ نَاجِع،
سَأَنْهَلُ مِنْكِ الْقُبَل

---

(١) القصيدة ـ في الأصل ـ مكتوبة باللغة اللاتينية. وقد اعتمدنا ـ في ترجمتها إلى العربية ـ على الترجمة الفرنسية لها التي أنجزها «جول موكيه» (Jules Mouquet, *Vers latins de Baudelaire, Mercure de France*, 1933) والواردة في هوامش الطّبعة الكاملة من أعمال بودلير، التي اعتمدناها كمرجع أساسيّ، وتمت مراجعتها على ترجمة «باتريك لابارث» Patrick Labarthe الواردة في هوامش Baudelaire, les *Fleurs du Mal*, le livre de poche classique , Paris, 1999.

أَنْتِ الْمُفْعَمَةُ بِالْجَاذِبِيَّة.

عِنْدَمَا كَدَّرَتْ عَاصِفَةُ الْخَطَايَا
كُلَّ الطُّرُقَات
تَجَلَّيْتِ لِي، إِلَهَة.

مِثْلَ نَجْمِ الْخَلاَص
فِي الْغَرَقِ الْمَرِير...
- سَأُعَلِّقُ قَلْبِي بِهَيْكَلِك!

كَحَوْضٍ مَلِيءٍ بِالْفَضِيلَة،
كَنَبْعٍ لِلشَّبَابِ الأَبَدِي،
فَلْتَمْنَحِي الصَّوْتَ لِشِفَاهِي الْخَرْسَاء!

مَا كَانَ دَنِيئًا، أَحْرَقْتِه.
وَفَظًّا، لَطَّفْتِه.
وَوَاهِيًا، دَعَّمْتِه.

فِي الْجُوعِ مَطْعَمِي،
فِي اللَّيْلِ مِصْبَاحِي،
فَلْتَقُودِينِي دَائِمًا مِثْلَمَا يَنْبَغِي.

فَلْتُضِيفِي الآنَ قُوًى إِلَى قُوَاي.

أَيُّهَا الْحَمَّامُ الْمُعَطَّر
بِالْعَبِيرِ الرَّهِيف!

فَلْتُبْرِقِي حَوْلَ حِقْوَيّ
يَا حِزَامَ الْعِفَّة،
الْمُبَلَّلَ بِالْمَاءِ الْمَلاَئِكِيّ؛

شَكْلٌ مُتَلأَلِئٌ بِالْجَوَاهِر،
خُبْزٌ مُمَلَّحٌ، طَعَامٌ شَهِيّ،
خَمْرٌ سَمَاوِيٌّ، فَرَانْسُوَاز.

٦١

إلَى سَيدة خلاَسيَّة

فِي بَلَدٍ مُعَطَّرٍ تُدَاعِبُه الشَّمْس،
تَعَرَّفْتُ، تَحْتَ سُرَادِقَ مِنْ أَشْجَارٍ أُرْجُوَان
وَنَخِيلٍ يَهْطِلُ فِي عَيْنَيَّ الْفُتُور،
عَلَى سَيِّدَةٍ خلاَسِيَّةٍ ذَاتِ مَفَاتِنَ مَجْهُولَة.

سِحْنَتُهَا شَاحِبَةٌ وَسَاخِنَة؛ وَلِلسُّمْرَةِ الْفَاتِنَة
فِي عُنُقِهَا سِيمَاءُ التَّكَلُّفِ النَّبِيل؛
طَوِيلَةٌ نَحِيلَةٌ فِي مِشْيَتِهَا مِثْلَ صَائِدَة،
وَابْتِسَامَتُهَا هَادِئَةٌ وَعَيْنَاهَا آمِنَتَان،

فَإِذَا مَا كَانَ لَكِ، سَيِّدَتِي، أَنْ تَمْضي إِلَى بَلَدِ الْمَجْدِ الْحَقِيقِي،
عَلَى شَوَاطِئِ السِّينِ أَوِ اللُّوَارِ الأَخْضَر،
جَمِيلَةً، جَدِيرَةً بِتَزْيينِ الضِّيَاعِ الْعَرِيقَة،

فَسَتَغْرِسِينَ، فِي حُمَّى الْخِلْوَاتِ الظَّلِيلَة،
أَلْفَ «سُونَاتَّا» فِي قَلْبِ الشُّعَرَاء،
الَّذِينَ سَتَفْرِضُ عَيْنَاكِ عَلَيْهِم الْخُضُوعَ أَكْثَرَ مِنْ عَبِيدِكِ السُّود.

٦٢

حزينـةٌ وتائهـة[1]

فَلْتَقُولِي لِي، يَا أَجَاث، هَل يُحَلِّقُ قَلْبُكِ أَحْيَانًا،
بَعِيدًا عَنِ الْمُحِيطِ الأَسْوَدِ لِلْمَدِينَةِ الْقَذِرَة
نَحْوَ مُحِيطٍ آخَرَ تُومِض فِيهِ الرَّوْعَة
أَزْرَقَ صَافٍ غَائِرٍ مِثْلَ الْعُذْرِيَّة؟
فَلْتَقُولِي لِي، يَا «أَجَاث»، هَل يُحَلِّقُ قَلْبُكِ أَحْيَانًا؟

الْبَحْرُ، الْبَحْرُ الشَّاسِعُ، يُوَاسِي عَنَاءَنَا!
فَأَيُّ شَيْطَانٍ مَنَحَ الْبَحْرَ، الْمُغَنِّي الأَجَش
الَّذِي يُصَاحِبُ الأُرْغُنَ الْهَائِلَ لِلرِّيَاحِ الْهَادِرَة،
تِلْكَ الْمُهِمَّةَ السَّامِيَةَ لِلْهَدْهَدَة؟
فَالْبَحْرُ، الْبَحْرُ الشَّاسِعُ، يُوَاسِي عَنَاءَنَا!

فَلْتَأْخُذِينِي، أَيَّتُهَا الْعَرَبَة! وَلْتَحْمِلِينِي، أَيَّتُهَا الْفُرْقَاطَة!

---

(١) العنوان في الأصل باللغة اللاتينية (MOESTA ET ERRABUNDA).

بَعِيدًا! بَعِيدًا! فَهُنَا الطِّينُ مَجْبُولٌ مِنْ دُمُوعِنَا!
ـ أَصَحِيحٌ أَنَّ قَلْبَ أَجَاثَ الْحَزِين
أَحْيَانًا مَا يَقُولُ: بَعِيدًا عَنِ النَّدَمِ، وَالْجَرَائِمِ، وَالآلاَمِ،
خُذِينِي، أَيَّتُهَا الْعَرَبَةُ، وَلْتَحْمِلِينِي، أَيَّتُهَا الْفُرْقَاطَة؟

كَمْ أَنْتَ بَعِيدٌ، أَيُّهَا الْفِرْدَوْسُ الْمُعَطَّر،
حَيْثُ لاَ شَيْءَ سِوَى حُبٍّ وَبَهْجَةٍ تَحْتَ زُرْقَةٍ صَافِيَة،
حَيْثُ كُلُّ مَا نُحِبُّ جَدِيرٌ بِالْحُب،
حَيْثُ الْقَلْبُ يَغْرَقُ فِي الشَّهْوَةِ الْخَالِصَة!
فَكَمْ أَنْتَ بَعِيدٌ، أَيُّهَا الْفِرْدَوْسُ الْمُعَطَّر!

لَكِنَّ الْفِرْدَوْسَ الأَخْضَرَ لِلْحُبِّ الطُّفُولِيّ،
وَالسِّبَاقَاتِ، وَالأَغَانِي، وَالْقُبُلاَتِ، وَالْبَاقَات،
وَالْكَمَانَاتِ الْمُرْتَعِشَةَ وَرَاءَ التِّلاَل،
مَعَ أَقْدَاحِ الْخَمْرِ، فِي الْمَسَاءِ، فِي الأَجَمَات،
ـ لَكِنَّ الْفِرْدَوْس الأَخْضَرَ لِلْحُبِّ الطُّفُولِيّ

الْفِرْدَوْسَ الْبَرِيءَ، الْمَلِيءَ بِالْمَلَذَّاتِ الْهَارِبَة،
أَهوَ حَقًّا أَبْعَدُ مِنَ الْهِنْدِ وَالصِّين!
أَيُمْكِنُ اسْتِدْعَاؤُه بِالصَّرَخَاتِ النَّائِحَة،
وَإِحْيَاؤُهُ بِصَوْتٍ فِضِّي،
ذَلِكَ الْفِرْدَوْسُ الْبَرِيءُ، الْمَلِيءُ بِالْمَلَذَّاتِ الْهَارِبَة!

٦٣

الطَّيف

مِثْلَ الْمَلاَئِكَةِ ذَاتِ الْعُيُونِ الْوَحْشِيَّة،
سَأَعُودُ إِلَى مِخْدَعِك
وَأَنْسَلُّ إِلَيْكِ بِلاَ صَوْت
مَعَ ظُلُمَاتِ اللَّيْل؛

وَسَأَمْنَحُكِ، يَا سَمْرَائِي،
قُبُلاَتٍ بَارِدَةً كَالْقَمَر
وَمُدَاعَبَاتِ أَفْعَى
تَزْحَفُ حَوْلَ حُفْرَة.

وَحِينَمَا يَحِلُّ الصَّبَاحُ الشَّاحِب،
سَتَجِدِينَ مَكَانِي خَاوِيا،
وَسَيَبْقَى بَارِدًا حَتَّى الْمَسَاء.

وَفِيمَا يَلْتَزِمُ الآخَرُونَ بِالرِّقَّة
فَإِنَّنِي أُرِيدُ الْهَيْمَنَة
عَلَى حَيَاتِكِ وَشَبَابِكِ بِالرُّعْب.

٦٤

سُونَاتا الخَرِيف

عَيْنَاكِ، الصَّافِيَتَانِ مِثْلَ الْبلّورِ، تَقُولاَنِ لِي:
«بالنسبَةِ لَكَ، أيهَا العَاشِقُ الغَرِيب، مَا قِيمَتِي؟»
ـ فَلْتَكُونِي فَاتِنَةً، وَلْتَصْمُتِي! فَقَلْبِي الَّذِي يُثِيرُهُ كُلُّ شَيْء،
إلاَّ بَرَاءَةُ الْحَيَوَانِ الْعَتِيق،

لاَ يُرِيدُ أَنْ يَكْشِفَ لَكِ سِرَّه الْجَهَنَّمِي،
أَيَّتُهَا الْمُهَدْهِدَةُ الَّتِي تَدْعُونِي يَدُهَا إِلَى سُبَاتٍ طَوِيل،
وَلاَ سِيرَتَهُ السَّوْدَاءَ الْمَكْتُوبَةَ بِاللَّهِيب.
إِنَّنِي أَكْرَهُ الْعَاطِفَةَ، وَالْفِكْرُ يُسَبِّبُ لِي الأَلَم!

فَلْنَتَحَابَّ بِرِقَّة. فَالْحُبُّ فِي بُرْجِ مُرَاقَبَتِه،
الْمُظْلِمِ، مُتَرَصِّدًا، يَشُدُّ قَوْسَه الْقَاتِل.
أَعْرِفُ الأَسْلِحَةَ فِي تِرْسَانَتِهِ الْقَدِيمَة:

الْجَرِيمَةُ، وَالرُّعْبُ، وَالْجُنُون! ـ يَا وَرْدَةَ الْمَارجِرِيت الشَّاحِبَة!
أَلَسْتِ ـ مِثْلِي ـ شَمْسًا خَرِيفيَّة،
يَا حَبِيبَتِي «مَارجِرِيت»[1] الْبَيْضَاءَ الْبَارِدَة؟

---

(١) اسم حبيبة «فاوست» لدى «جوته»، لكن أهي المقصودة؟

٦٥

حُـزن القَمـر

هَذَا الْمَسَاء، يَحْلُمُ الْقَمَرُ بِكَسَلٍ كَبِير؛
كَامْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ، مُسْتَرْخِيَةٍ عَلَى وَسَائِدَ كَثِيرَة،
تُدَاعِبُ بِيَدٍ شَارِدَةٍ خَفِيفَة
حُدُودَ ثَدْيَيْهَا قَبْلَ النَّوْم،

وَعَلَى الظَّهْرِ السَّاتَانِ لِلْمُنْحَدَرَاتِ الطَّرِيَّة،
يَسْتَسْلِمُ، مُتَمَاوِتًا، لإِغْمَاءَاتٍ طَوِيلَة،
وَيَطُوفُ بِعَيْنَيْهِ عَلَى الرُّؤَى الْبَيْضَاء
الَّتِي تَصَّاعَدُ فِي الزُّرْقَةِ كَالأَزْهَار.

وَحِينَمَا يَسْمَحُ أَحْيَانًا لِدَمْعَةٍ هَارِبَةٍ أَنْ تَنْطَلِق،
عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ، فِي فُتُورِهِ الْمُتَبَطِّل،
يَلْتَقِطُ شَاعِرٌ بَارٌّ، عَدُوٌّ لِلنَّوْم،

فِي تَجْوِيفِ كَفِّهِ هَذِهِ الدَّمْعَةَ الشَّاحِبَة،
ذَاتِ الانْعِكَاسَاتِ الْقَزَحِيَّةِ مِثْلَ كِسْرَةِ أُوبَال،
وَيَدُسُّهَا فِي قَلْبِهِ بَعِيدًا عَنْ عُيُونِ الشَّمْس.

٦٦

القطط

الْعُشَّاقُ الْمُتَيَّمُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْمُتَقَشِّفُون
يُحِبُّونَ مَعًا، فِي مَوْسِمِ نُضْجِهِم،
الْقِطَطَ الْقَوِيَّةَ الرَّقِيقَةَ، فَخْرَ الْمَنَازِل،
سَرِيعَةَ التَّأَثُّرِ مِثْلَهُم بِالْبُرُودَةِ، وَمِثْلَهُم تُحِبُّ الاسْتِقْرَار.

أَصْدِقَاءُ الْعِلْمِ وَالشَّهْوَة،
يَبْحَثُونَ عَنْ صَمْتِ وَرُعْبِ الظُّلُمَات؛
وَكَانَ لـ«إيريب»[1] أَنْ يَتَّخِذَهُم جِيَادَه الْجَنَائِزِيِّين،
فِيمَا لَوْ أَخْضَعُوا كِبْرِيَاءَهُم لِلْعُبُودِيَّة.

وَعِنْدَمَا يَحْلُمُونَ يَتَّخِذونَ أَنْبَلَ الأَوْضَاع
لِكَائِنَاتِ أَبِي الْهَوْلِ الْعَظِيمَةِ الرَّاقِدَةِ فِي أَعْمَاقِ الْعُزْلَة،
الَّتِي يَبْدُو أَنَّهَا تَنَامُ فِي حُلْمٍ بِلاَ انْتِهَاء؛

(١) إقليم من ظلام تحت الأرض، يحكمه الموت.

أَعْضَاؤُهُم الْجِنْسِيَّةُ الْخِصْبَةُ مُفْعَمَةٌ بِالْوَمَضَاتِ السِّحْرِيَّة،
وَبِشَظَايَا مِنْ ذَهَبٍ، وَرَمْلٍ نَاعِم،
يُرَصِّعُونَ بِالنُّجُومِ الْخَافِتَةِ حَدَقَاتِهِم الرُّوحِيَّة.

٦٧

البُوم

تَحْتَ أَشْجَارِ الطَّقْسُوسِ السَّوْدَاءِ الَّتِي تُؤْوِيهم،
قَبَعَ الْبُومُ فِي صُفُوف
مِثْلَ آلِهَةٍ غَرِيبَة
مُحَدِّقِينَ بِعُيُونٍ حَمْرَاء. يُفَكِّرون.

بِلاَ حِرَاكٍ سَيَجْثُمُون
حَتَّى السَّاعَةِ السَّوْدَاوِيَّة
أَو حُلُولِ الظُّلُمَات
وَهُم يَدْفَعُونَ الشَّمْس الْمَائِلَة.

وَضْعُهُم يُعَلِّمُ الْحَكِيم
ضَرُورَةَ أَنْ يَخْشَى فِي هَذَا الْعَالَم
الضَّجِيجَ وَالْحَرَكَة؛

الإِنْسَانُ الْمُنْتَشِي بِظِلٍّ عَابِر
يَحْمِلُ دَائِمًا الْعِقَاب
عَلَى رَغْبَتِهِ فِي تَغْيِيرِ الْمَكَان.

٦٨

الغليون

أَنَا غُلْيُونُ مُؤَلِّف؛
وَتَرَى، عِنْدَمَا تَتَأَمَّلُ هَيْئَتِي
الْحَبَشِيَّةَ أَو الزِّنْجِيَّة،
أَنَّ سَيِّدِي مُدَخِّنٌ كَبِير.

وَحِينَ يَطْغَى عَلَيْهِ الأَسَى
يَصَّاعَدُ مِنِّي دُخَانٌ مِثْلَمَا مِنْ كُوخ
يُطْهَى فِيهِ الطَّعَام
فِي انْتِظَارِ عَوْدَةِ الفَلاَّح.

أُعَانِقُ وَأَخْتَرِقُ رُوحَه
فِي الشَّبَكَةِ الْمُتَحَرِّكَةِ الزَّرْقَاء
الَّتِي تَصَّاعَدُ مُلْتَهِبَةً مِنْ فَمِي،

وَأَنْفُثُ بَلْسَمًا قَوِيّا
يَسْحَرُ قَلْبَهُ وَيُبْرِئ
نَفْسَه مِنْ أَوْجَاعِهَا.

٦٩

الموسِيقَى

كَثِيرًا مَا تَطْوِينِي الْمُوسِيقَى مِثْلَ بَحْر!
نَحْوَ نَجْمَتِي الشَّاحِبَة،
تَحْتَ سَقْفٍ مِنْ ضَبَابٍ أَوْ فِي أَثِيرٍ رَحْب،
أُقْلِع؛

الصَّدْرُ فِي الأَمَامِ وَالرِّئَتَانِ مُنْتَفِخَتَان
مِثْلَ الشِّرَاع،
أَرْتَقِي ظَهْرَ الأَمْوَاجِ الْمُتَرَاكِمَة
الَّتِي يَحْجُبُهَا عَنِّي اللَّيْل؛

أُحِسُّ دَاخِلِي بِنَبْضِ جَمِيعِ الأَهْوَاء
لِسَفِينَةٍ فِي مَأزَق؛
وَالرِّيحُ الطَّيِّبَةُ، وَالْعَاصِفَةُ فِي اضْطِرَابِهَا

عَلَى الْهُوَّةِ الْهَائِلَة

تُهَدْهِدُنِي. فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى، طَبَقٌ هَادِئٌ، مِرْآةٌ كُبْرَى

لِيَأْسِي!

٧٠

قَبـر

إِذَا مَا ذَاتَ يَوْمٍ ثَقِيلٍ قَاتِم
دَفَنَ مَسِيحِيٌّ طَيِّبٌ، مِنْ بَابِ الشَّفَقَة،
جَسَدَكَ الْمُتَبَاهِي،
وَرَاءَ بَعْضِ الأَنْقَاضِ الْقَدِيمَة،

سَاعَةَ أَنْ تُغْمِضَ النُّجُومُ الطَّاهِرَة
عُيُونَهَا الثَّقِيلَة،
هُنَاكَ سَيَضَعُ شِبَاكَه الْعَنْكَبُوت،
وَالأَفْعَى صِغَارَهَا؛

وَسَتَسْمَعُ طُوَالَ الْعَام
فَوْقَ رَأسِكَ الْمُدَانَة
عُوَاءَ الذِّئَابِ النَّائِح

وَالسَّاحِرَاتِ الْجَائِعَات،

وَلَهْوَ الْعَجَائِزِ الشَّبِقِين

وَمَكَائِدَ الأَشْرَار.

٧١

نَقشٌ خَيالِيّ

هَذَا الشَّبَحُ الْفَرِيدُ بِلاَ أَيَّةِ زِينَة،
سِوَى إِكْلِيلٍ بَشِعٍ يَشِي بِالْمَهْرَجَان،
مُثَبَّتٍ بِغَرَابَةٍ عَلَى جَبِينِ هَيْكَلِهِ الْعَظْمِي.
بِلاَ مِهْمَازٍ، وَلاَ سَوْطٍ، يَدْفَعُ جَوَادَهُ إِلَى اللُّهَاث،
شَبَحٌ مِثْلَه، وَجَوَادٌ مُرِيع،
يَرِيلُ مِنْ مِنْخَرَيْهِ كَمَصْرُوع.
يَنْدَفِعَانِ مَعًا فِي الْفَضَاء،
وَيَدْهَسَانِ الأَبَدِيَّةَ بِحَافِرٍ مُغَامِر.
الْفَارِسُ يُلَوِّحُ بِسَيْفٍ مُشْتَعِل
فَوْقَ حُشُودٍ بِلاَ اسْمٍ تَسْحَقُهَا دَابَّتُه،
وَيَجْتَازُ، كَأَمِيرٍ يَتَفَقَّدُ مَنْزِلَه،
الْمَقْبَرَةَ الْهَائِلَةَ الْبَارِدَةَ، بِلاَ أُفُق،
حَيْثُ تَرْقُدُ، فِي أَضْوَاءِ شَمْسٍ ذَابِلَةٍ بَيْضَاء،
شُعُوبُ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيث.

٧٢

الميّتُ المبتَهِج

فِي أَرْضٍ خِصْبَةٍ، مَلأَى بِالْحَلَزُون،
أُرِيدُ أَنْ أَحْفِرَ لِنَفْسِي حُفْرَةً عَمِيقَة،
فِيهَا يُمْكِنُنِي وَقْتَ الْفَرَاغِ تَمْدِيدُ عِظَامِي الْعَتِيقَة
وَالنَّوْمُ فِي النِّسْيَانِ مِثْلَ سَمَكَةِ قِرْشٍ فِي الْمَوْج.

أَبْغَضُ الْوَصَايَا وَأَبْغَضُ الْمَقَابِر؛
وَبَدَلاً مِنَ اسْتِجْدَاءِ دَمْعَةٍ مِنَ الْعَالَم،
وَأَنَا حَي، سَأُفَضِّلُ دَعْوَةَ الْغِرْبَان
إِلَى اسْتِنْزَافِ كُلِّ مَوَاضِعِ هَيْكَلِيَ الْعَظْمِي الْقَذِر.

أَيَّتُهَا الدِّيدَانُ! الرِّفَاقُ السُّودُ بِلاَ عُيُونٍ وَلاَ آذَان،
فَلْتَشْهَدُوا مَيِّتًا حُرًّا وَمُبْتَهِجًا يَجِيءُ إِلَيْكُم؛
أَيُّهَا الْفَلاَسِفَةُ الْمُسْتَمْتِعُونَ بِالْعَيْشِ، يَا أَبْنَاءَ الْعَفَن،

تَعَالَوْا إِلَى حُطَامِي إِذَن بِلاَ نَدَم.

وَقُولُوا لِي إِنْ كَانَ مَا يَزَالُ هُنَاكَ عَذَابٌ

لِهَذَا الْجَسَدِ الْعَجُوزِ بِلاَ رُوحٍ، الْمَيِّتِ وَسْطَ الْمَوْتَى!

٧٣

برميـل الكَراهيَة

الْكَرَاهِيَةُ هِيَ بِرْمِيلُ الدَّانَائِيَّات[١]؛

وَالانْتِقَامُ الْمُهْتَاجُ ذو السَّوَاعِدِ الْحَمْرَاءِ الْقَوِيَّة

قَد يَرْمِي فِي ظُلُمَاتِهِ الْفَارِغَة

بِدِلاَءٍ كَبِيرَةٍ مَلأَى بِدَمٍ وَدُمُوعِ الْمَوْتَى،

فِي هَذِهِ الْمَهَاوِي يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ ثُقُوبًا خَفِيَّة،

كَانَ يتَسَرَّبُ مِنْهَا أَلْفُ عَامٍ مِنَ الْعَرَقِ وَالْعَنَاء،

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يُعِيدُ إِحْيَاءَ ضَحَايَاه،

وَبَعْثِ أَجْسَادِهِم لِيَعْتَصِرَهَا.

الْكَرَاهِيَةُ سِكِّيرٌ فِي أَعْمَاقِ حَانَة،

يُحِسُّ دَائِمًا بِالْعَطَشِ يَتَوَلَّدُ مِنَ الشَّرَاب

---

(١) **بنات داناؤس**، ملك أرجوس، اللائي قتلت كل منهنَّ زوجها في «ليلة الدخلة». وقد حُكِم عليهنّ في هادس ـ العالم السفليّ ـ بأن يقمن بملء براميل بلا قاع بالماء.

وَيَتَزَايَدُ مِثْلَ أُفْعُوَانِ لِيرن[1]

ـ لَكِنَّ الشَّارِبِينَ السُّعَدَاءَ يَعْرِفُونَ قَاهِرَهُم،
وَالْكَرَاهِيَةُ مَنْذُورَةٌ لِهَذَا الْمَصِيرِ الْمُثِيرِ لِلرِّثَاء
مِنَ الْعَجْزِ أَبَدًا عَنِ النَّوْمِ تَحْتَ الطَّاوِلَة.

(١) ثعبان له سبع رءوس، تنبت كلما قُطعت.

٧٤

الجَرسُ المَشـرُوخ

مَرِيرٌ وَعَذْبٌ، خِلاَلَ لَيَالِي الشِّتَاء،
أَنْ نَسْمَعَ، بِجِوَارِ النَّارِ الْمُرْتَجِفَةِ الدَّاخِنَة،
الذِّكْرَيَاتِ الْبَعِيدَةَ تَنْبَعِث بِبُطْء
فِي صَخَبِ الأَجْرَاسِ الْمغَنِّيَةِ فِي الضَّبَاب.

فَطُوبَى لِلْجَرَسِ ذِي الْحَنْجَرَةِ الْقَوِيَّة،
الْيَقِظِ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، رَغْمَ شَيْخُوخَتِه،
الَّذِي يُطْلِقُ بِإِخْلاَصٍ صَيْحَتَه الدِّينِيَّة،
كَجُنْدِيٍّ عَجُوزٍ يَقْظَانَ تَحْتَ الْخَيْمَة!

أَمَّا أَنَا، فَرُوحِي مَشْرُوخَةٌ، وَفِي ضَجَرِهَا
تُرِيدُ أَنْ تَمْلأَ بِأَغَانِيهَا هَوَاءَ اللَّيَالِي الْبَارِد،
وَكَثِيرًا مَا يُشْبِهُ صَوْتُهَا الْوَاهِي

الْحَشْرَجَةَ الْعَمِيقَةَ لِجَرِيحٍ مَنْسِيّ
عَلَى حَافَّةِ بِرْكَةِ دَم، تَحْتَ كَوْمَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمَوْتَى،
وَيَمُوتُ، بِلاَ حِرَاكٍ، فِي عَنَاءٍ هَائِل.

٧٥

سَــأم ١

شَهْرُ «بِلْقِيُوز»[1]، مُهْتَاجًا عَلَى كُلِّ الْمَدِينَة،
يَصُبُّ مِنْ جَرَّتِهِ بَرْدًا مُظْلِمًا فِي دَفْقَاتٍ كُبْرَى
عَلَى السُّكَّانِ الشَّاحِبِينَ لِلْمَقْبَرَةِ الْمُجَاوِرَة
وَالْوَفِيَّاتِ عَلَى الضَّوَاحِي الضَّبَابِيَّة.

وَقِطَّتِي، بَاحِثَةً لَهَا عَنْ مَضْجَعٍ عَلَى الْبَلاَط،
تَهُزُّ بِلاَ هُدُوءٍ جَسَدَهَا الأَجْرَبَ النَّحِيل؛
وَرُوحُ شَاعِرٍ عَجُوزٍ تَهِيمُ فِي أُنْبُوبِ تَصْرِيفِ الْمَاء
مَعَ الصَّوْتِ الْحَزِينِ لِشَبَحٍ مَقْرُور.

الْجَرَسُ يَنُوحُ، وَالْحَطَبُ الدَّاخِن
يُرَافِقُ، فِي نَشَازٍ، الْبَنْدُولَ الْمَزْكُوم،

---

(١) الشّهر الخامس في تقويم الثورة الفرنسيّة (من ٢٠ يناير إلى ١٨ فبراير).

فِيمَا فِي لُعْبَةٍ مَلِيئَةٍ بِالْعُطُورِ الْقَذِرَة،

كَمِيرَاثٍ مَشْئُومٍ لِعَجُوزٍ مُصَابَةٍ بِالاسْتِسْقَاء،
يَتَحَدَّثُ وَلَدُ الْقَلْبِ الْجَمِيلِ مَعَ سَيِّدَةِ الْبَسْتُونِي
بِنَبْرَةِ شُؤْمٍ عَنْ عَلاَقَاتِهِمَا الْغَرَامِيَّةِ الْغَابِرَة.

٧٦

سَــأم ٢

لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الذِّكْرَيَاتِ كَأَنِّي عِشْتُ أَلْفَ عَام.

خِزَانَةٌ ضَخْمَةٌ ذَاتُ أَدْرَاجٍ مُكَدَّسَةٍ بِالْحِسَابَات
وَالْقَصَائِدِ، وَرَسَائِلَ غَرَامِيَّةٍ وَالدَّعَاوَى، وَالْقِصَص،
مَعَ خُصْلَةِ شَعْرٍ ثَقِيلٍ مَلْفُوفَةٍ فِي إِيصَالاَت،
تُخْفِي أَسْرَارًا أَقَلَّ مِمَّا تَحْوِيهِ رَأْسِي الْحَزِينَة.
هُوَ هَرَمٌ، قَبْوٌ هَائِل،
يَحْوِي أَكْثَرَ مِمَّا تَحْوِيهِ الْمقْبَرَةُ الْعَامَّةُ مِنْ الْمَوْتَى.
ـ أَنَا مَقْبَرَةٌ يَبْغَضُهَا الْقَمَر،
يَزْحَفُ فِيهَا مِثْلَ النَّدَمِ دُودٌ طَوِيل
يَنْكَبُّ دَائِمًا عَلَى أَعَزِّ مَوْتَاي.
أَنَا مِخْدَعٌ عَتِيقٌ مَلِيءٌ بِالْوُرُودِ الذَّابِلَة،
حَيْثُ يَرْقُدُ رُكَامٌ كَبِيرٌ مِنَ الثِّيَابِ الْبَالِيَة

حَيْثُ لَوْحَاتِ الْبَاسْتِيلِ النَّائِحَةِ وَرُسُومِ بُوشِيه[1] الْبَاهِتَة،
تَسْتَنْشِقُ وَحْدَهَا أَرِيجَ قَارُورَةِ عِطْرٍ مَفْتُوحَة.

لاَ شَيْءَ طَوِيلٌ مِثْلَ الأَيَّامِ الْعَرْجَاء،
عِنْدَمَا يَتَّخِذُ الضَّجَرُ، ثَمَرَةُ الْفُتُورِ الْكَئِيب،
تَحْتَ النِّدَفِ الثَّقِيلَةِ لِلسَّنَوَاتِ الثَّلْجِيَّة،
أَحْجَامَ الأَبَدِيَّة.
ـ مِنَ الآنَ، أَيَّتُهَا الْمَادَّةُ الْحَيَّةُ!، لَنْ تَكُونِي
سِوَى قِطْعَةِ جَرَانِيتٍ مُلْتَفَّةٍ بِرُعْبٍ غَامِض،
رَاقِدَةٍ فِي عُمقِ صَحْرَاءَ ضَبَابِيَّة؛
أَبِي هَوْلٍ عَتِيقٍ يَجْهَلُه الْعَالَمُ اللاَّمُبَالِي،
مَنْسِيٍّ مِنَ الْخَرِيطَةِ، وَمِزَاجُهُ الضَّارِي
لاَ يُغَنِّي إِلاَّ فِي أَشِعَّةِ شَمْسٍ غَارِبَة.

(١) فرانسوا بوشيه، رسّام فرنسيّ (١٧٠٣ـ١٧٧٠).

٧٧

سَـأم ٣

أَنَا شَبِيهٌ بِمَلِكٍ عَلَى بَلَدٍ مَطِير،
ثَرِيٍّ لَكِنَّه عَاجِزٌ، شَابٍّ لَكِنَّه ـ معَ ذَلِكَ ـ عَجُوز،
مُحْتَقِرًا انْحِنَاءَاتِ مُعَلِّمِيه،
يَعْتَرِيهِ الضَّجَرُ مَعَ كِلاَبِهِ وَالْحَيَوَانَاتِ الأُخْرَى.
لاَ شَيْءَ يُمْكِنُهُ التَّرْفِيهُ عَنْه، لاَ الصَّيْدُ، لاَ الصَّقْر،
وَلاَ شَعْبُهُ الَّذِي يَمُوتُ أَمَامَ الشُّرْفَة.
وَالأَنَاشِيدُ الْغَرَائِبِيَّةُ لِمُهَرِّجِهِ الْمُفَضَّل
لَم تَعُد تُلْهِي رَأسَ هَذَا الْمَرِيضِ الْقَاسِي؛
وَفِرَاشُهُ الْمُوَشَّى بِالزَّنْبَقِ يَتَحَوَّلُ إِلَى قَبْر،
وَالْوَصِيفَاتُ، اللاَّئِي يَعْتَبِرْنَ كُلَّ أَمِيرٍ وَسِيمًا،
مَا عُدْنَ يَعْرِفْنَ إِيجَادَ زِينَةٍ مُتَبَرِّجَة
لِانْتِزَاعِ بَسْمَةٍ مِنْ هَذَا الْهَيْكَلِ الْعَظْمِي الشَّاب.
وَالْعَالِمُ الَّذِي يَصُوغُ لَه الذَّهَبَ لَم يَسْتَطِع أَبَدًا
انْتِزَاعَ الْعُنْصُرَ الْفَاسِدَ مِنْ كَيْنُونَتِه

وَفِي حَمَّامَاتِ الدِّمَاءِ هَذِهِ الَّتِي تَنْحَدِرُ إِلَيْنَا مِنَ الرُّومَان،
وَيَتَذَكَّرُهَا الأَقْوِيَاءُ فِي أَيَّامِ شَيْخُوخَتِهِم،
لَمْ يَسْتَطِع إِعَادَةَ الدِّفْءِ إِلَى هَذِهِ الْجُثَّةِ الْبَلِيدَة
الَّتِي يَسْرِي فِيهَا مَكَانَ الدِّمِ الْمَاءُ الأَخْضَرُ لِلْخُمُول.

٧٨

سَـأم ٤

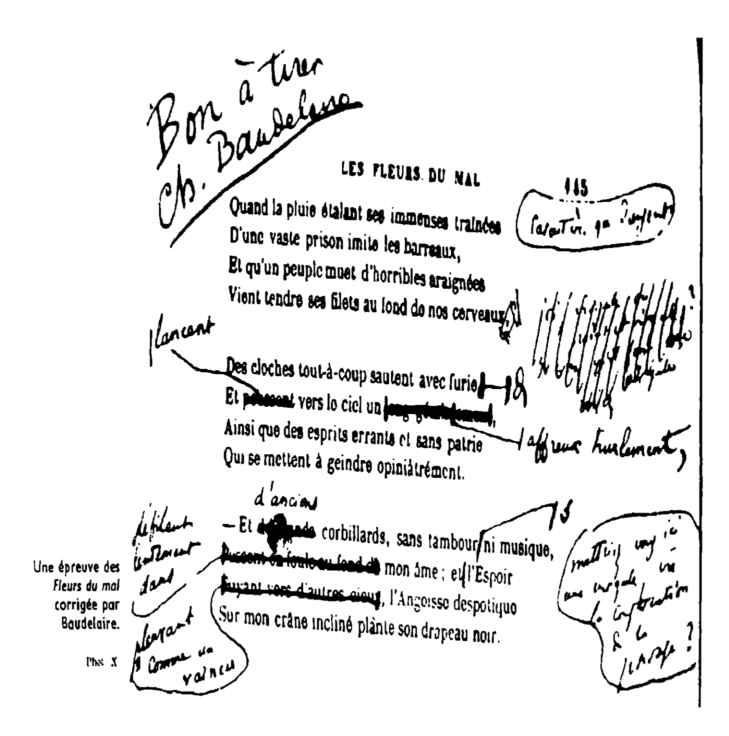
حِينَ تَثْقُلُ السَّمَاءُ الْخَفِيضَةُ الْوَبِيلَةُ مِثْلَ غِطَاء
عَلَى الرُّوحِ الْمُرْتَعِدَةِ فَرِيسَةِ الضَّجَرِ الطَّوِيل،
وَعِنْدَمَا تَصُبُّ عَلَيْنَا، فِيمَا تُعَانِقُ دَائِرَةَ الأُفُق،
نَهَارًا أَسْوَدَ أَكْثَرَ كَآبَةً مِنَ اللَّيَالِي؛

وَحِينَ تَتَحَوَّلُ الأَرْضُ إِلَى زِنْزَانَةٍ دَبِقَة،
فِيمَا يَتَخَبَّطُ **الأَمَلُ**، مِثْلَ خُفَّاش،
فِي الْجُدْرَانِ بِجَنَاحِهِ الْمَفْزُوع
وَتَرْتَطِمُ رَأْسُهُ فِي سُقُوفٍ بَالِيَة؛

وَحِينَ يُقَلِّدُ الْمَطَرُ، وَهوَ يَنْشُرُ خُيُوطَهُ الْهَائِلَة،
قُضْبَانَ سِجْنٍ شَاسِع،
وَشَعْبٌ أَبْكَمُ مِنْ عَنَاكِبَ مُقَزِّزَة
يَأتِي لِيَمُدَّ خُيُوطَه فِي أَعْمَاقِ رُءُوسِنَا،

تَقْفِزُ أَجْرَاسٌ فَجْأَةً فِي رُعْب
وَتُطْلِقُ عَوِيلاً وَبِيلاً إِلَى السَّمَاء،
مِثْلَ أَرْوَاحٍ هَائِمَةٍ بِلاَ مَأْوَى
تَنْطَلِقُ فِي أَنِينٍ طَوِيل.

وَعَرَبَاتُ مَوْتَى طَوِيلَةٌ، بِلاَ طُبُولٍ أَو مُوسِيقَى،
تَتَتَالَى بِبُطْءٍ فِي رُوحِي؛ وَالأَمَلُ، الْمَهْزُوم،
وَالْبُكَاءُ، وَالْعَذَابُ الْوَحْشِيُّ، الْمُسْتَبِد
يَغْرِسُونَ أَعْلاَمَهُم السَّوْدَاءَ فِي رأسِي الْمَحْنِيَّة.


Bon à tirer
Ch. Baudelaire

LES FLEURS DU MAL 115

Quand la pluie étalant ses immenses traînées
D'une vaste prison imite les barreaux,
Et qu'un peuple muet d'horribles araignées
Vient tendre ses filets au fond do nos cerveaux,

Des cloches tout-à-coup sautent avec furie
Et poussent vers le ciel un long gémissement,
Ainsi que des esprits errants et sans patrie
Qui se mettent à geindre opiniâtrément.

— Et de grands corbillards, sans tambour ni musique,
Passent en foule au fond de mon âme ; et l'Espoir
Fuyant vers d'autres cieux, l'Angoisse despotique
Sur mon crâne incliné plante son drapeau noir.

Une épreuve des *Fleurs du mal* corrigée par Baudelaire.

Phot. X

مقاطع من قصيدة «سأم» (حين تثقل السماء)
مع تصحيحات بودلير لطبعة «أزهار الشر» الأولى

٧٩

وسوَاس

أَيَّتُهَا الْغَابَاتُ الْكُبْرَى، تُخِيفِينَنِي مِثْلَ الْكَاتِدْرَائِيَّات؛
تَعْوِينَ كَالأُرْغُن؛ وَفِي قُلُوبِنَا اللَّعِينَة،
قَاعَاتِ الْحِدَادِ الأَبَدِيِّ الَّتِي تَتَرَدَّدُ فِيهَا حَشْرَجَاتٌ عَمِيقَة،
تَتَجَاوَبُ أَصْدَاءُ نَشِيدِك «**مِنَ الأعمَاق**».

إِنَّنِي أَكْرَهُكَ، أَيُّهَا الْمُحِيط! فَقَفَزَاتُكَ وَصَخَبُك،
تَسْتَعِيدُهَا رُوحِي دَاخِلَهَا؛ وَهَذَا الضَّحِكُ الْمَرِير
لِلإِنْسَانِ الْمَهْزُوم، الْمُفْعَمِ بِالآهَاتِ وَاللَّعَنَات،
أَسْمَعُهُ فِي الضَّحِكِ الْهَائِلِ لِلْبَحْر.

أَيُّهَا اللَّيْلُ! كَم سَتَحْلُو لِي، بِدُونِ هَذِهِ النُّجُوم
الَّتِي يَتَكَلَّمُ ضَوْؤُهَا لُغَةً مَعْرُوفَة!
لأَنِّي أَنْشُدُ الْفَرَاغَ، وَالسَّوَادَ، وَالْعَرَاء!

لَكِنَّ الظُّلُمَاتِ نَفْسَهَا نَسِيج
تَعِيشُ فِيهِ، طَافِرَةً مِنْ عَيْنِيَ بِالآلاَف،
كَائِنَاتٌ ضَائِعَةٌ ذَاتُ نَظَرَاتٍ مَألُوفَة.

٨٠

مَذاقُ العَـدَم

أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْكَئِيبَةُ، الْعَاشِقَةُ ذَاتَ يَوْمٍ لِلصِّرَاع،
لَم يَعُد الأَمَلُ، الَّذِي كَانَ مِهْمَازُه يَسْتَثِيرُ حَمَاسَك،
يُرِيدُ امْتِطَاءَك! فَلْتَرْقُد بِلاَ خَجَل،
أَيُّهَا الْحِصَانُ الْعَجُوزُ الَّذِي تَتَعَثَّرُ قَدَمُه فِي كُلِّ عَقَبَة.

فَلْتَسْتَسْلِم، يَا قَلْبِي؛ وَلْتَغُط فِي نَوْمِكَ الْحَيَوَانِي.

أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمَهْزُومَةُ، الْمَنْهُوكَة! أَيَّتُهَا السَّارِقَةُ الْعَجُوز،
لَم يَعُد لِلْحُبِّ ـ بِالنِّسْبَةِ لَكِ ـ مَذَاقٌ إِلاَّ كَالشِّجَار؛
فَوَدَاعًا إِذَن، يَا أُغْنِيَاتِ الآلاَتِ النُّحَاسِيَّةِ وَآهَاتِ النَّاي!
وَأَيَّتُهَا الْمَلَذَّاتُ، لاَ تَعُودِي إِلَى إِغْوَاءِ قَلْبٍ مُتَجَهِّمٍ عَبُوس!

الرَّبِيعُ الرَّائِعُ أَضَاعَ عَبِيرَه.
وَالزَّمَنُ يَلْتَهِمُنِي دَقِيقَةً دَقِيقَة،
مِثْلَمَا تَفْعَلُ الثُّلُوجُ الْهَائِلَةُ بِجَسَدٍ يَابِس؛

أَتَأَمَّلُ مِنْ أَعْلَى الأَرْضَ فِي اسْتِدَارَتِهَا
وَلَم أَعُد أَنْشُدُ فِيهَا مَأوًى فِي كُوخٍ بَائِس.

أَيُّهَا الْجُرْف، أَلاَ تُرِيدُ الإِطَاحَةَ بِي فِي انْهِيَارِك؟

٨١

كيمياءُ الألَم

أَيَّتُهَا الطَّبِيعَة! أَحَدُهُم يُضِيؤُكِ بِعُنْفُوَانِه،
وَالآخَرُ يُضْفِي عَلَيْكِ حُزْنَه.
وَمَا يَعْنِي لأَحَدِهِم مَقْبَرَة!
يَعْنِي لِلآخَر حَيَاةً وَرَوْعَة!

يَا «هِيرمِيس»[1] الْمَجْهُولَ الَّذِي يُعِينني
وَدَائِمًا مَا أَخَافَنِي،
هَا أَنْتَ تَجْعَلُنِي نِدًّا لِمِيدَاس[2]،
أَتْعَسَ الْكِيميَائِيِّين؛

بِفَضْلِكَ أُحَوِّلُ الذَّهَبَ إِلَى حَدِيد
وَالْفِرْدَوْسَ إِلَى جَحِيم؛

---

(١) المؤسّس الأسطوريّ لفنّ الكيمياء.
(٢) ملك في الأساطير الإغريقيّة، يتحول كل ما تمسّه يداه إلى ذَهَب.

وَفِي كَفَنِ الْغُيُوم

أَكْتَشِفُ جُثْمَانًا حَبِيبًا،
وَعَلَى السَّوَاحِلِ السَّمَاوِيَّة
أَصْنَعُ تَوَابِيتَ حَجَرِيَّةً كَبِيرَة.

٨٢

رُعبٌ متعَاطف

مِنْ هَذِهِ السَّمَاءِ الْغَرِيبَةِ الدَّاكِنَة،
الْمُضْطَرِبَةِ مِثْلَ مَصِيرِك،
أَيَّةُ أَفْكَارٍ تَهْبِطُ إِلَى رُوحِكَ الْخَاوِيَة!
فَلْتُجِب، أَيُّهَا الْمَارِق.

ـ نَهِمًا بِشَرَاهَة
لِلْغَامِضِ وَالْمَشْبُوه،
لَن أَنُوحَ مِثْلَ «أُوفِيد»[1]
عِنْدَمَا طُرِدَ مِنْ فِرْدَوْسِهِ اللاَّتِينِي.

أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ الْمُمَزَّقَةُ مِثْلَ الشَّوَاطِئِ الرَّمْلِيَّة،
فِيكِ يَنْعَكِسُ كِبْرِيَائِي؛
وَغُيُومُكِ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَرْتَدِي السَّوَاد

---

(١) الشاعر اللاتينيّ «أوفيد» (٤٣ ق.م ـ ١٦ م)، الذي طُرد من «روما»، ونفي إلى «سيثيس».

هِيَ عَرَبَاتُ الْمَوْتَى لأَحْلاَمِي،
وَأَضْوَاؤُكِ هِي انْعِكَاسُ
الْجَحِيمِ الَّذِي يَسْتَمْتِعُ فِيهِ قَلْبِي.

٨٣

المُعَذّبُ نَفْسَه[١]

إلى ج. ج. ف

سَأَضْرِبُك بِلاَ غَضَب
وَلاَ كَرَاهِيَةٍ، كَجَزّار،
كَضَرْبِ مُوسَى[٢] لِلْحَجَر!
وَسَأُفَجِّرُ مِنْ جُفُونِك،

لأَرْوِيَ صَحْرَائِي،
مِيَاهَ الْعَذَاب.
وَرَغْبَتِيَ الْمُفْعَمَةُ بِالأَمَل
سَتَطْفُو عَلَى دُمُوعِك الْمَالِحَة

كَسَفِينَةٍ تَنْطَلِقُ إِلَى الْبَحْر،
وَفِي قَلْبِي الَّذِي سَيُسْكِرُونَه
سَتَتَرَدَّدُ آهَاتُك الْحَبِيبَة

(١) العنوان في باللغة اللاتينية (L'HEAUTONTIMOROUMENOS).
(٢) وفقًا لـسِفر الخروج، ضرب موسى الحجرَ بعصاه، فتفجّر بالماء، ليَرويَ عطشَ الإسرائيليين.

مِثْلَ طَبْلٍ يُعْلِنُ الْهُجُوم!

أَلَسْتُ نَغَمًا خَاطِئًا
فِي السِّيمْفُونِيَّةِ السَّمَاوِيَّة،
بِفَضْلِ السُّخْرِيَةِ الشَّرِهَة
الَّتِي تُزَعْزِعُنِي وَتَعُضُّنِي؟

هِيَ الصَّاخِبَةُ فِي صَوْتِي!
وَهوَ كُلُّ دَمِي، ذَلِكَ السُّمُّ الأَسْوَد!
أَنَا الْمِرْآةُ الْمَشْئُومَة.
الَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا إِلَى نَفْسِهَا الْمَرْأَةُ الشَّرِسَة.

أَنَا الْجُرْحُ وَالسِّكِّين!
أَنَا الصَّفْعَةُ وَالْخَدّ!
أَنَا الأَعْضَاءُ وَآلَةُ التَّعْذِيب،
وَالضَّحِيَّةُ وَالْجَلاَّد!

أَنَا مَصَّاصُ دِمَاءِ قَلْبِي
ـ أَحَدُ هَؤُلاَءِ الْمَهْجُورِينَ الْعِظَام
الْمَحْكُومِينَ بِالضَّحِكِ الأَبَدِيّ،
وَالَّذِينَ لَم يَعُودُوا قَادِرِينَ عَلَى الابْتِسَام!

٨٤

بلاَ دَوَاء

(١)

فِكْرَةٌ، شَكْلٌ، كَائِن
انْطَلَقَ مِنَ الزُّرْقَةِ وَهَوَى
فِي نَهْرِ «ستِيكْس» الرَّصَاصِيِّ الْمُوحِل
الَّذِي لاَ تَنْفُذُ إِلَيْهِ عَيْنٌ مِنَ السَّمَاء؛

مَلاَكٌ، رَحَّالَةٌ طَائِش
أَغْوَاهُ حُبُّ الْمُشَوَّه،
فِي أَعْمَاقِ كَابُوسٍ شَاسِع
يَتَخَبَّطُ مِثْلَ سَبَّاح،

وَيُصَارِعُ، يَا لَلْعَذَابَاتِ الْكَئِيبَة!
الدَّوَّامَةَ الْهَائِلَة
الَّتِي تُغَنِّي كَالْمَجَانِين
وَتَنْثَنِي إِلَى الظُّلُمَات؛

شَخْصٌ تَعِيسٌ مَسْحُور
فِي مَسَاعِيهِ الْخَائِبَة،
بَحْثًا عَنِ الضَّوْءِ وَالْمِفْتَاح،
لِلْهُرُوبِ مِنْ مَكَانٍ مَلِيءٍ بِالْهَوَام؛

شَخْصٌ مَلْعُونٌ يَهْبِطُ بِلاَ مِصْبَاح،
عَلَى حَافَّةِ هَاوِيَةٍ تَفْضَحُ رَائِحَتُهَا
الأَعْمَاقَ الرَّطْبَة،
سَلاَلِمَ أَبَدِيَّةً بِلاَ سِيَاج،

حَيْثُ تَسْهَرُ وُحُوش لَزِجَة
وَعُيُونُهَا الْفُسْفُورِيَّةُ الْوَاسِعَة
تَجْعَلُ اللَّيْلَ أَكْثَرَ ظُلْمَة
وَلاَ تَسْمَحُ بِرُؤْيَةِ سِوَاهَا؛

سَفِينَةٌ سَقَطَت فِي الْقُطْب،
مِثْلَمَا فِي فَخٍّ مِنْ بِلَّوْر،
بَاحِثَةً عَنِ الْمَضِيقِ الْمَشْئُوم
هَوَت إِلَى هَذَا السِّجْن؛

ـ رُمُوزٌ وَاضِحَةٌ وَلَوْحَةٌ مُكْتَمِلَة
لِمَصِيرٍ بِلاَ تَعْوِيض،
يَدْفَعُ إِلَى الظَّنِّ أَنَّ الشَّيْطَان

يُؤَدِّي كُلَّ مَا يَقُومُ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْه!

(٢)

أَيُّ حَدِيثٍ ثُنَائِيٍّ قَاتِمٍ وَصَافٍ
فَيُصْبِحُ الْقَلْبُ مِرْآةً لَه!
وَآبَارُ الْحَقِيقَةِ، السَّوْدَاءُ الْوَاضِحَة
تَرْتَعِش فِيهَا نَجْمَةٌ شَاحِبَة،

وَفَنَارٌ سَاخِرٌ، جَهَنَّمِيّ،
وَشُعْلَةُ الْفَضَائِلِ الشَّيْطَانِيَّة،
وَعَزَاءٌ وَمَجْدٌ فَرِيدَان،
ـ الْوَعْيُ فِي الشَّرّ!

٨٥

سَاعَة الحَائط

أَيَّتُهَا السَّاعَةُ! أَيُّهَا الإِلَهُ الْمَشْئُومُ، الْمُخِيفُ، الْعَصِي،
الَّذِي يُهَدِّدُنَا إِصْبَعُهُ وَيَقُولُ لَنَا: فَلْتَتَذَكَّر!
وَسرْعَانَ مَا سَتَنْغَرِسُ الآلاَمُ النَّابِضَة
فِي قَلْبِكَ الْمُفْعَمِ بِالرُّعْبِ مِثْلَمَا فِي الْهَدَف؛

الْمُتْعَةُ الضَّبَابِيَّةُ سَتَفِرُّ إِلَى الأُفُق
مِثْلَ جِنِّيَّةِ السِّلْفِ إِلَى أَعْمَاقِ الْخَلْفِيَّة؛
كُلُّ لَحْظَةٍ تَلْتَهِمُ مِنْكَ قِطْعَةً مِنَ اللَّذَّة
الْمَمْنُوحَةِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَجْلِ مَوْسِمِهِ الْكَامِل.

ثَلاَثَةَ آلاَفٍ وَسِتُّمَائَة مَرَّة فِي السَّاعَة،
تَهْمِسُ لَكَ الثَّانِيَة: فَلْتَتَذَكَّر! ـ أَسْرِع، بِصَوْتِهَا
الشَّبِيهِ بِصَوْتِ حَشَرَةٍ، يَقُولُ الآن: أَنَا الْمَاضِي،
وَقَد امْتَصَصْتُ حَيَاتَكَ بِخرْطُومِي الْقَذِر!

تَذَكَّر! فَلْتَتَذَكَّر! أَيُّهَا السَّفِيهُ! فَلْتَتَذَكَّر![1]
(حَنْجَرَتِي الْمَعْدَنِيَّةُ تَعْرِفُ كُلَّ اللُّغَات)
الدَّقَائِقُ، هَذِهِ الْفَانِيَةُ اللَّعُوب، هِيَ طَبَقَاتُ مِنْجَم
لاَ يَنْبَغِي إِفْلاَتُهَا دُونَ اسْتِخْلاَصِ الذَّهَبِ مِنْهَا!

فَلْتَتَذَكَّر أَنَّ الزَّمَنَ مُقَامِرٌ جَشِع
يَرْبَحُ بِلاَ خِدَاعٍ، دَائِمًا! ذَلِكَ هُوَ الْقَانُون.
النَّهَارُ يَتَنَاقَص؛ وَاللَّيْلُ يَتَزَايَد؛ فَلْتَتَذَكَّر!
وَالْهُوَّةُ دَائِمًا عَطْشَى؛ وَالسَّاعَةُ الْمَائِيَّةُ تَفْرَغ.

سرْعَانَ مَا سَتَدُقُّ السَّاعَةُ الَّتِي تَقُولُ لَكَ فِيهَا الصُّدْفَةُ السَّمَاوِيَّة،
وَالْفَضِيلَةُ الْجَلِيلَةُ، زَوْجَتُكَ الَّتِي مَا تَزَالُ عَذْرَاء،
وَحَتَّى النَّدَم (آه! الْمَلاَذُ الأَخِير!)،
حَيْثُ سَيَقُولُ لَكَ الْجَمِيع: «فَلْتَمُت، أَيُّهَا الْجَبَانُ الْعَجُوز! فَاتَ الأَوَان!».

(١) الكلمة الأولى مكتوبة ـ في الأصل ـ بالإنجليزيّة، والثانية بالفرنسيّة، والأخيرة باللاتينيّة.


لَوحَاتٌ بَاريسية

٨٦
مَشهَد طَبيعي

أَوَدُّ، لِتَأْلِيفِ قَصَائِدِي الرَّعَوِيَّةِ بِعِفَّة،
أَنْ أَسْتَلْقِيَ إِلَى جِوَارِ السَّمَاءِ، كَالْفَلَكِيِّين،
وَبِجَانِبِ النَّوَاقِيسِ، أُصْغِي حَالِمًا
لِتَرَانِيمِهَا الْمَهِيبَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا الرِّيح.
وَذَقْنِي عَلَى يَدِي، مِنْ أَعَالِي سَقِيفَتِي،
سَأَرَى الْوَرْشَةَ الَّتِي تُغَنِّي وَتُثَرْثِر؛
الأَنَابِيبَ، وَأَبْرَاجَ الأَجْرَاسِ، صَوَارِي الْمُدُنِ هَذِه
وَالسَّمَاوَاتِ الشَّاسِعَةَ الَّتِي تَدْفَعُ لِلْحُلْمِ بِالأَبَدِيَّة.

كَم هُوَ عَذْبٌ أَنْ أَرَى، خِلاَلَ الضَّبَاب،
مَوْلِدَ النَّجْمِ فِي السَّمَاءِ، وَالْمِصْبَاحَ فِي النَّافِذَة،
وَأَنْهَارَ دُخَانِ الْفَحْمِ تَصَّاعَدُ إِلَى الْقُبَّةِ الزَّرْقَاء
وَالْقَمَرَ يَنْشُرُ سِحْرَهُ الشَّاحِب.
سَأَرَى الرَّبِيعَ، وَالصَّيْفَ، وَالْخَرِيف؛

وَحِينَمَا يَحِلُّ الشِّتَاءُ بِثُلُوجِهِ الرَّتِيبَة،
سَأُوصِدُ كُلَّ الأَبْوَابِ وَالْمَصَارِيع
لأَبْتَنِيَ فِي اللَّيْلِ قُصُورِيَ الْخَيَالِيَّة.
آنئِذٍ سَأَحْلُمُ بِآفَاقٍ زَرْقَاء،
بِحَدَائِقَ، بَنَوَافِيرَ دَامِعَةٍ فِي الْمَرْمَر،
بِقُبُلاَتٍ، وَعَصَافِيرَ تُغَرِّدُ صَبَاحَ مَسَاء،
وَكُلِّ مَا هُوَ طُفُولِيٌّ فِي الْقَصَائِدِ الْغَزَلِيَّة.
وَالْهِيَاجُ الشَّعْبِيُّ، الَّذِي يَعْصِفُ عَلَى نَافِذَتِي سُدًى،
لَنْ يَدْفَعَنِي إِلَى رَفْعِ جَبِينِي عَن مَكْتَبِي؛
لأَنِّي سَأَكُونُ غَارِقًا فِي شَهْوَة
اسْتِدْعَاءِ الرَّبِيعِ حَسْبَ مَشِيئَتِي،
وَاجْتِذَابِ الشَّمْسِ مِنْ قَلْبِي،
وَخَلْقِ مَنَاخٍ دَافِئٍ مِنْ أَفْكَارِيَ الْمُشْتَعِلَة.

٨٧
الشَّمس

عَلَى امْتِدَادِ الضَّاحِيَةِ الْقَدِيمَةِ، حَيْثُ تَتَدَلَّى مِنَ الأَكْوَاخ
مَغَالِقُ النَّوَافِذِ، حَامِيَةُ الْمُتَعِ السِّرِّيَّة،
حِينَ تَنْهَالُ الشَّمْسُ الْقَاسِيَةُ بِأَشِعَّةٍ مُضَاعَفَة
عَلَى الْمَدِينَةِ وَالْحُقُولِ، عَلَى الأَسْقُفِ وَالسَّنَابِل،
أَمْضِي وَحِيدًا لأُمَارِس مُبَارَزَتِي الْخَيَالِيَّة،
مُتَشَمِّمًا فِي كُلِّ رُكْنٍ مُصَادَفَاتِ الْقَافِيَة،
مُتَعَثِّرًا فِي الْكَلِمَاتِ مِثْلَمَا فِي أَحْجَارِ الرَّصِيف،
مُصْطَدِمًا أَحْيَانًا بِأَبْيَاتٍ حَلُمْتُ بِهَا مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيد.

هَذَا الأَبُ الْمُرَبِّي، عَدُوُّ مَرَضِ الْيَرَقَان،
يُوقِظُ فِي الْحُقُولِ الْقَصَائِدَ كَالْوُرُود؛
يَدْفَعُ الْهُمُومَ إِلَى التَّبَخُّرِ فِي السَّمَاء،
يَغْمُرُ الأَذْهَانَ وَخَلاَيَا النَّحْلِ بِالْعَسَل.
هُوَ مَنْ يُعِيدُ شَبَابَ أَصْحَابِ الْعَكَاكِيز

وَيَرُدُّهُم مُبْتَهِجِينَ مُرْهَفِينَ كَالْفَتَيَات
وَيَأمُرُ مَوَاسِمَ الْحَصَادِ بِالنَّمَاءِ وَالنُّضْج
فِي الْقَلْبِ الأَبَدِيِّ الَّذِي يُرِيدُ دَائِمًا الازْدِهَار!

وَعِنْدَمَا يَهْبِطُ إِلَى الْمُدُنِ، كَشَاعِر،
يَسْمُو بِمَصِيرِ الأَشْيَاءِ الْوَضِيعَة،
وَيَدْخُلُ كَمَلِكٍ، بِلاَ ضَوْضَاءَ وَلاَ حَاشِيَة،
إِلَى جَمِيعِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ وَجَمِيعِ الْقُصُور.

٨٨

إلى مُتسوّلة صهباءَ الشَّعر

أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ الْبَيْضَاءُ صَهْبَاءُ الشَّعْر،
الَّتِي يَسْمَحُ ثَوْبُهَا مِنْ خِلاَلِ ثُقُوبِه،
بِرُؤْيَةِ الْفَقْر
وَالْجَمَال،

بِالنِّسْبَةِ لِي، أَنَا الشَّاعِرُ التَّعِيس،
فَجَسَدُكِ الشَّابُّ، الْعَلِيل،
الْمُغَطَّى بِالنَّمَش،
لَه عُذُوبَتُه.

فَأَنْتِ تَنْتَعِلِينَ
قُبْقَابَكِ الثَّقِيل
بِرِقَّةٍ أَكْبَرَ مِنْ مَلِكَةِ رِوَايَة
تَنْتَعِلُ حِذَاءَهَا الْمَخْمَلِيّ.

فَلَو بَدَلاً مِنْ خِرْقَةٍ قَصِيرَة،
كَانَ هُنَاكَ ثَوْبٌ مَلَكِيٌّ رَائِع
يَتَجَرْجَرُ فِي طَيَّاتٍ طَوِيلَةٍ ذَات حَفِيف
عَلَى كَعْبَيْك؛

وَمَكَانَ الْجَوَارِبِ الْمَثْقُوبَة،
كَانَ هُنَاكَ خِنْجَرٌ ذَهَبِيّ
يُومِضُ أَيْضًا عَلَى سَاقِك
مِنْ أَجْلِ عُيُونِ الْمُعَذَّبِين؛

وَأَشْرِطَةٌ مَعْقُودَةٌ بِإِهْمَال
تَكْشِفُ، مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا،
ثَدْيَيْكِ الْجَمِيلَيْنِ، الْمُتَأَلِّقَيْن
كَالْعُيُون؛

وَسَيَمْنَعُ ذِرَاعَاك
تَعْرِيَتَك
وَتَطْرُدَانِ بِضَرَبَاتٍ ثَائِرَة
الأَصَابعَ الْيَقِظَة،

لآلِئَ مِن أَصْفَى الْمِيَاه،

سُونَاتَّاتٍ لِبِيللُّو[1] الْقَدِير
يُقَدِّمُهَا بِلاَ انْتِهَاءٍ
مُعْجَبُوكِ الْمُصَفَّدُون.

بَاقَةٌ مِنَ النَّظَّامِين
يُهْدُونَكِ بَوَاكِيرَهُم
وَيَتَأَمَّلُونَ حِذَاءَك
تَحْتَ السَّلاَلِم،

غُلاَمٌ مُكَرَّرٌ وَلْهَانُ بِالصُّدْفَة،
سَيِّدٌ مُكَرَّرٌ وَرُونسَار[2] مُكَرَّر
كَانُوا يَرْصُدُونَ مِنْ أَجْلِ الْمُتْعَة
عُشَّكِ النَّدِي!

وَسَتُحْصِينَ فِي أَسِرَّتِك
قُبُلاَتٍ أَكْثَرَ مِنَ الزَّنَابِق
وَتُخْضِعِينَ لِقَوَانِينِك
أَكْثَرَ مِنْ فَالْوَا[3]!

---

(١) رومي بيللو **Rémi Belleau**، شاعر فرنسيّ (١٥٢٨ـ١٥٧٧)،مشهور بقصائده الغزليّة.

(٢) بيير رونسار **Pierre Ronsard**، (١٥٢٤ـ١٥٨٥) شاعر فرنسيّ كبير، يمثل رمزًا لعاشق الجمال الأنثويّ.

(٣) أسرة ملوك فرنسا السّابقة على أسرة البوربون.

ـ مَعَ ذَلِكَ سَتَمْضِينَ مُتَسَوِّلَةً
بِضْعَ فَضَلاَتٍ قَدِيمَةٍ مَرْمِيَّة
عَلَى عَتَبَةِ أَحَدِ الْمَطَاعِم
فِي مُفْتَرَقِ الطُّرُق؛

تَمْضِينَ مُسْتَرِقَةً النَّظَرَ فِي الأَسْفَل
إِلَى حُلِيِّ التِّسْعَةِ وَالْعِشْرِينَ سُو[1]
الَّتِي لاَ أَسْتَطِيعُ، آه! اعْذُرِينِي
إِهْدَاءَهَا لَك.

فَلْتَذْهَبِي إِذَن، بِلاَ زِينَةٍ أُخْرَى
وَلاَ عُطُورٍ، أَو لآلِئ، أَو جَوَاهِر
سِوَى عُرْيِكِ الرَّهِيف
يَا جَمِيلَتِي!

---

(١) عملة نقديّة صغيرة.

٨٩

البَجعَة

إلى ڤيكتور هوجو

(١)

«أندُرُومَاك»[١]، كَم أُفَكِّرُ فِيك! ذَلِكَ النَّهْرُ الصَّغِير
الْمِرْآةُ الحَزِينَةُ الْبَائِسَةُ حَيْثُ تَوَهَّجَت فِي الْمَاضِي
الْعَظَمَةُ الْهَائِلَةُ لآلاَمِ تَرَمُّلِك،
نَهْرُ «السِّيمْوَا»[٢] هَذَا الْخَادِعُ الَّذِي يَكْبُرُ بِدُمُوعِك،

ذَاكِرَتِي الْخِصْبَةُ أَيْنَعَت فَجْأَةً،
فِيمَا كُنْتُ أَعْبُرُ كَارُوسِيل[٣] الْجَدِيد.
لَم تَعُد هُنَاكَ بَارِيسُ الْقَدِيمَة (فَشَكْلُ الْمَدِينَة
يَتَغَيَّرُ، وَا أَسَفَاه!، بِأَسْرَعَ مِنْ قَلْبِ الإِنْسَان)؛

---

(١) أرملة «هيكتور»، بطل طروادة الذي قُتِل على يد «أخيل». راجع **الإلياذة**.
(٢) هو نهر «السيموا» الزّائف الذي أجرته «أندروماك» أمام طروادة الخيالية.
(٣) ميدان أقيم أمام متحف «اللوفر» بباريس.

لاَ أَرَى إِلاَّ دَاخِلِي كُلَّ هَذَا الْمُخَيَّمِ مِنَ الأَكْوَاخ،
هَذَا الرُّكَامَ مِنْ تِيجَانٍ وَسِيقَانِ الأَعْمِدَةِ،
الأَعْشَابَ، وَالْكُتَلَ الضَّخْمَةَ الْمُخْضَوْضِرَةَ بمَاءِ الْبِرَك،
وَسَقْطَ الْمَتَاعِ الْمُخْتَلِطَ، مُلْتَمِعًا عَلَى الْبلاَط.

هُنَاكَ، كَانَت حَظِيرَةُ حَيَوَانَاتٍ تَمْتَدُّ فِي الْمَاضِي؛
هُنَاكَ رَأَيْتُ، ذَاتَ صَبَاحٍ، سَاعَةَ أَنْ يَصْحُو
الْعَمَلُ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ الصَّافِيَةِ الْبَارِدَةِ، حَيْثُ الطُّرُقَات
تَنْفُثُ زَوْبَعَةً كَئِيبَةً فِي الْهَوَاءِ الصَّامِت،

بَجعَةً هَارِبَةً مِنْ قَفَصِهَا،
تُجَرْجِرُ عَلَى الأَرْضِ الْوَعْرَةِ رِيشَهَا الأَبْيَض،
وَبِرَاحَتَيْ قَدَمَيْهَا تَحْتَكُّ بِالْبَلاَطِ الْخَشِن.
وَقُرْبَ نَبْعٍ بِلاَ مَاءٍ كَانَ الطَّائِرُ، فَاتِحًا مِنْقَارَه،

يُحَمِّمُ جَنَاحَيْهِ بِعَصَبِيَّةٍ فِي التُّرَاب،
وَيَقُولُ، وَالْقَلْبُ مُفْعَمٌ بِبُحَيْرَتِهِ الْجَمِيلَةِ فِي مَسْقَطِ رَأسِه:
«أَيُّهَا الْمَاء، مَتَى إِذَن سَتُمْطِر؟ وَمَتَى سَتَقْصِفُ، أَيُّهَا الرَّعْد؟»
أَرَى هَذَا التَّعِيسَ، الأُسْطُورَةَ الْغَرِيبَةَ الْمَشْئُومَة،

يَمُدُّ رَأسَهَ الْمَلْهُوفَةَ عَلَى عُنُقِهِ الْمُتَشَنِّج،

نَحْوَ السَّمَاءِ أَحْيَانًا، مِثْلَ إِنْسَانِ «أُوفِيد»،
نَحْوَ السَّمَاءِ السَّاخِرَةِ وَالزَّرْقَاءَ بِقَسْوَة،
كَأَنَّه يُوَجِّهُ الْمَلاَمَةَ إِلَى اللَّه!

(٢)

بَارِيسُ تَتَغَيَّر! لَكِن لاَ شَيْءَ فِي كَآبَتِي تبَدَّل!
قُصُورٌ جَدِيدَةٌ، سَقَّالاَتٌ، كُتَلٌ حَجَرِيَّة،
ضَوَاحٍ قَدِيمَةٌ، كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ بِالنِّسْبَةِ لِي رَمْزًا،
وَذِكْرَيَاتِي الْحَبِيبَةُ أَشَدُّ وَطْأَةً مِنَ الصُّخُور.

أَيْضًا أَمَامَ هَذَا «اللُّوفر» تَطْغَى عَلَيَّ إِحْدَى الصُّوَر:
أُفَكِّرُ فِي بَجَعَتِيَ الْكُبْرَى، بِإِيمَاءَاتِهَا الْمَجْنُونَة،
مِثْلَ الْمَنْفِيِّينَ، مُضْحِكَةً وَمهِيبَة،
تَتَآكَلُهَا رَغْبَةٌ بِلاَ هَوَادَة! ثُمَّ فِيكِ،

يَا «أَنْدرُومَاك»، وَأَنْتِ تَهْوِينَ مِنْ ذِرَاعَيْ زَوْجٍ عَظِيمٍ،
مِثْلَ حَيَوَانٍ تَافِهٍ، إِلَى ذِرَاعَيْ «بِيرُوس» الْمُتَغَطْرِس،
مُنْحَنِيَةً فِي ذُهُولٍ قُرْبَ مَقْبَرَةٍ خَاوِيَة؛
يَا أَرْمَلَةَ «هِيكْتُور»، وَا أَسَفَاه! وَامْرَأَةَ «هِيلِينُوس»!

أُفَكِّرُ فِي الزِّنْجِيَّةِ، الْمَهْزُولَةِ الْمَسْلُولَة،
الَّتِي تَخُوضُ فِي الْوَحْلِ، بَاحِثَةً بِعَيْنٍ شَارِدَةٍ،
عَنْ أَشْجَارِ جُوزِ الْهِنْدِ الْغَائِبَةِ بِإِفْرِيقيَا الْفَاتِنَة
وَرَاءَ الْجِدَارِ الْهَائِلِ لِلسَّدِيم؛

فِي كُلِّ مَن فَقَدَ مَا لاَ يُسْتَعَادُ أَبَدًا، أَبَدًا!
فِي هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَرْتَوُونَ بِالدُّمُوع
وَيَرْضَعُونَ الْعَذَابَ مِثْلَمَا مِنْ ذِئْبَةٍ حَنُون!
فِي الْيَتَامَى الْمَهْزُولِينَ الذَّابِلِينَ كَالزُّهُور!

هَكَذَا فِي الْغَابَةِ الَّتِي تَنْفِي فِيهَا رُوحِي نَفْسَهَا
تُدَوِّي ذِكْرَى قَدِيمَةٌ بِمِلْءِ صَوْتِ بُوق!
أُفَكِّرُ فِي الْبَحَّارَةِ الْمَنْسِيِّينَ بِإِحْدَى الْجُزُر،
فِي الأَسْرَى، وَالْمَهْزُومِينَ... وَفِي الْكَثِيرِينَ غَيْرِهِم!

٩٠

الشُّيُوخُ السَّبعَة

إلى ڤيكتور هوجو

مَدِينَةٌ حَاشِدَةٌ، مَدِينَةٌ مَلأَى بِالأَحْلاَم،
حَيْثُ الطَّيْفُ يَعْلَقُ بِالمَارِّ فِي وَضَحِ النَّهَار!
وَفِي كُلِّ مَكَانٍ كالنَّسْغ تَنْسَابُ الأَسْرَار
فِي الشَّرَايِينِ الضَّيِّقَةِ لِعْمَلاَقٍ جَبَّار.

ذَاتَ صَبَاحٍ، فِيمَا كَانَت الْمَنَازِلُ فِي الشَّارِعِ الْكَئِيب،
الَّتِي يُطِيلُ مِنَ ارتِفَاعِهَا الضَّبَاب،
تَصْنَعُ ضِفَّتَيْن لِنَهْرٍ وَاسِع،
وَكَدِيكُورٍ شَبِيهٍ بِرُوحِ الْمُمَثِّل،

كَانَ سَدِيمٌ مُصْفَرٌّ قَذِرٌ يَغْمُرُ الْفَضَاء،
سِرْتُ، شَاحِذًا أَعْصَابِي كَبَطَل،
وَمُتَحَدِّثًا مَعَ نَفْسِي الضَّجِرَة،

فِي الضَّاحِيَةِ الْمُرْتَجَّةِ بِالْمَرْكَبَاتِ الثَّقِيلَة.

فَجْأَةً، ظَهَرَ لِي عَجُوزٌ كَانَت أَسْمَالُهُ المُصْفَرَّة
تُحَاكِي لَوْنَ هَذِهِ السَّمَاءِ المَاطِرَة،
وَيُمْكِنُ لَهَيْئَتِهِ أَنْ تَسْتَمْطِرَ الصَّدَقَات،
بِدُونِ الْخُبْثِ الْوَامِضِ فِي عَيْنَيْه.

تَبْدُو عَيْنُه مَغْمُورَةً بِالْحِقْد؛
وَنَظْرَتُه كَانَت تَشْحَذُ الصَّقِيع،
وَلِحْيَتُه ذَاتُ الْخُصْلاَتِ الطَّوِيلَةِ، الْمُتَصَلِّبَةِ مِثْلَ سَيْف
كَانَت مُشْرَعَةً، مِثْلَ لِحْيَةِ يَهُوذَا.

مَا كَانَ أَحْدَبَ، بَل مُهَدَّمًا، وَعَمُودُه الْفِقَرِي
يُشَكِّلُ مَعَ سَاقِهِ زَاوِيَةً قَائِمَةً كَامِلَة،
حَتَّى إنَّ عُكَّازَه، الَّذِي يُكْمِلُ هَيْئَتَه،
كَانَ يَمْنَحَه السِّيمَاءَ وَالْمِشْيَةَ الْخَرْقَاء

لِعَاجِزٍ مِنْ ذَوَاتِ الأَرْبَع أَو لِيَهُودِيٍّ يَدبُّ عَلَى ثَلاَث.
فِي الثَّلْجِ وَالأَوْحَالِ كَانَ يَمْضِي مُتَخَبِّطًا،
كَأَنَّهُ يَطَأُ مَوْتَى تَحْتَ نَعْلِهِ الْبَالِي،
عُدْوَانِيًّا تِجَاهَ الْكَوْنِ لاَ غَيْرَ مُبَال.

نَظِيرُهُ كَانَ يَتْبَعُه: اللِّحْيَةُ نفسُها، وَالْعَيْنُ، وَالظَّهْرُ، وَالْعُكَّازُ، وَالْخِرَق،
مَا مِنْ مَلْمَحٍ كَانَ مُغَايِرًا، فَمِن نَفْسِ الْجَحِيمِ جَاء،
هَذَا التَّوْءَمُ الْمِئَوِيُّ، وَهَذَانِ الشَّبَحَانِ الْبَارُوكِيَّان
كَانَا يَسِيرَانِ بِالْخُطْوَةِ نَفْسِهَا نَحْوَ غَايَةٍ مَجْهُولَة.

فَأَيَّةُ مُؤَامَرَةٍ شَائِنَةٍ كُنْتُ عُرْضَةً لَهَا،
أَوْ أَيَّةُ صُدْفَةٍ خَبِيثَةٍ كَانَت تُهِينُنِي هَكَذَا؟
ذَلِكَ أَنِّي أَحْصَيْتُ سَبْعَ مَرَّاتٍ، مِنْ دَقِيقَةٍ لأُخْرَى،
هَذَا الْعَجُوزَ الْمَشْئُومَ الَّذِي كَانَ يَتَضَاعَف!

فَمَنْ يَضْحَك مِنَ انْزِعَاجِي،
وَمَنْ لَم تَنْتَبْه رِعْشَةٌ أَخَوِيَّة،
فَلْيَتَأَمَّل جَيِّدًا أَنَّ هَؤُلاَءِ الْمُسُوخَ السَّبْعَةَ الْمُرْعِبِين
كَانَت لَهُم، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا التَّهَدُّمِ، سِيمَاءُ أَبَدِيَّة!

فَهَل سَيَكُونُ لِي، بِدُونِ الْمَوْتِ، أَنْ أَتَأَمَّلَ الثَّامِن،
الْقَرِينَ الْقَاسِي، السَّاخِرَ الْوَبِيل،
مُقَزِّزًا الْعَنْقَاءَ، كَابْنٍ وَأَبٍ لِنَفْسِه؟
ـ لَكِنَّنِي أَدَرْتُ ظَهْرِي لِلْمَوْكِبِ الْجَهَنَّمِي.

مُهْتَاجًا مِثْلَ مَخْمُورٍ يَرَى الأَشْيَاءَ مُزْدَوَجَة،

عُدْتُ، فَأَغْلَقْتُ بَابِي، مَرْعُوبًا،
سَقِيمًا وَمَقْرُورًا، وَعَقْلِي مَحْمُومٌ وَمُشَوَّش،
وَقَد ضَرَبَنِي الْغُمُوض وَالْعَبَثِيَّة!

عَبَثًا حَاوَلَ عَقْلِي امْتِلاَكَ الزِّمَام؛
بَدَّدَت الْعَاصِفَةُ، فِي تَلاَعُبِهَا، مُحَاوَلاَتِه،
وَرَاحَت رُوحِي تَتَرَاقَصُ، تَتَرَاقَصُ، مِثْلَ مَرْكَبٍ عَجُوز
بِلاَ صَوَارٍ، فِي بَحْرٍ وَحْشِيٍّ بِلاَ ضِفَاف!

~~Vainement~~
~~Bien en vain ma raison réclamait son empire;~~
~~Le délire, en jouant, déroutait ses efforts,~~
~~Et mon âme dansait, dansait, comme un navire~~
~~Sans mâts, sur une mer noire, énorme et sans bords.~~

Bien en vain ma raison voulait prendre la barre
La tempête en jouant, déroutait ses efforts,
Et mon âme dansait, dansait, pauvre gabarre
Sans mâts, sur une mer noire, énorme et
sans bords



Gardez les différentes versions. Je ferai la bonne chez vous.
Ch. Baudelaire.

مخطوط المقطع الأخير من «الشيوخ السبعة»

٩١

العجَائز القَصيرات

إلى ڤيكتور هوجو

(١)

فِي الثَّنَايَا الآثِمَةِ لِلْعَوَاصِمِ الْعَتِيقَة،
حَيْثُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الرُّعْب، يَتَحَوَّلُ إِلَى فِتْنَة،
أَرْقُبُ، مُذْعِنًا لِمِزَاجِي الْمَشْئُوم،
كَائِنَاتٍ فَرِيدَةً، مُتَهَدِّمَةً وَسَاحِرَة.

هَذِهِ الْمُسُوخُ الْمُتَخَلِّعَةُ كَانَت نِسَاءً فِي الْمَاضِي،
إِيبُونِين أَو لاَئِس[1]، مُسُوخٌ مُتَكَسِّرَةٌ، مَحَدَّبَة
أَوْ مُلْتَوِيَة، فَلْنُحِبَّهَا! فَهِيَ أَيْضًا أَرْوَاح.
فِي ثِيَابٍ مَثْقُوبَةٍ أَو مَلاَبِسَ مُهْتَرِئَة

يَزْحَفنَ، تَحْتَ سِيَاطِ رِيَاحِ الشَّمَالِ الْغَاشِمَة،

---

(١) إيبونين: زوجة «جولوا سابينيوس»، أحد قادة الانتفاضة ضدَّ روما، عام ٦٩. وقد فضّلت الالتزام بمصير زوجها القتيل، لتلحقَ به بعد مقتله. لائس: عاهرة شهيرة في «كورنثة» اليونانية.

مُرْتَعِداتٍ مَعَ قَرْقَعَةِ الأُتُوبِيسَات،
وَهُن يَضْمُمْنَ إِلَى أَحْضَانِهِن، كَذَخِيرَةٍ ثَمِينَة،
حَقِيبَةً صَغِيرَةً مُوَشَّاةً بِوُرُودٍ أَو صُورٍ مُلْغِزَة؛

يَخبِبْن، تَمَامًا مِثْلَ الدُّمَى؛
يُجَرْجِرنَ أَنْفُسَهُن، مِثْلَ الْحَيَوَانَاتِ الْجَرِيحَة،
أَوْ يَرْقُصنَ، بِلاَ رَغْبَةٍ، كَأَجْرَاسٍ صَغِيرَةٍ بَائِسَة
يَتَعَلَّقُ بِهَا شَيْطَانٌ قَاسٍ! وَمُهَشَّمَاتٌ تَمَامًا.

إِلاَّ أَنَّ عُيُونَهُن كَانَت ثَاقِبَةً مِثْلَ مِثْقَاب،
مُلْتَمِعَةً مِثْلَ تِلْكَ الْفَجَوَاتِ الَّتِي يَنَامُ الْمَاءُ فِيهَا فِي اللَّيْل؛
كَانَت لَهُن عُيُونٌ سَمَاوِيَّةٌ لِفَتَاةٍ صَغِيرَة
تَنْدَهِش وَتَضْحَكُ إِزَاءَ كُلِّ مَا يُضِيء.

ـ أَلاَحَظْتُم مِرَارًا أَنَّ نُعُوشَ الْعَجَائِز
غَالِبًا مَا تَكُونُ صَغِيرَةً كَنُعُوشِ الأَطْفَال؟
فَالْمَوْتُ الْعَلِيمُ يَضَعُ فِي هَذِهِ التَّوَابِيتِ الْمُتَشَابِهَة
رَمْزًا لِذَوْقٍ غَرِيبٍ آسِر،

وَعِنْدَمَا أَلْمَحُ شَبَحًا وَاهِيًا

يَعْبُرُ الْمَشْهَدَ الْحَاشِدَ لِبَارِيس،

يَبْدُو لِي دَائِمًا أَنَّ هَذَا الْكَائِنَ الْهَشّ

إِنَّمَا يَمْضِي الْهُوَيْنَى إِلَى مَهْدٍ جَدِيد؛

إِن لَم أَبْحَث، مُتَأَمِّلاً فِي الْهَنْدَسَة،

لَدَى رُؤْيَةِ هَذِهِ الأَعْضَاءِ الْمُتَخَلِّعَة،

عَدَدَ الْمَرَّاتِ الَّتِي يَنْبَغِي فِيهَا عَلَى الْعَامِلِ

تَغْيِيرُ شَكْلِ الصُّنْدُوقِ الَّذِي تُوضَعُ فِيهِ كُلُّ هَذِهِ الأَجْسَاد.

ـ هَذِهِ الْعُيُونُ آبَارٌ صُنِعَت مِنْ مِلْيُونِ دَمْعَة،

بَوْتَقَاتٌ مُزَرْكَشَةٌ بِمَعْدِنٍ خَامِد...

وَلِهَذِهِ الْعُيُونِ الْغَامِضَةِ مَفَاتِنُ لاَ تُقَاوَم

بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ رَضِعَ التَّعَاسَةَ الْقَاسِيَة!

(٢)

وَقَعَت ڤِيسْتَال الرَّاحِلَة فِي غَرَامِ فرَاسكَاتِي[١]؛

وَكَاهِنَةُ ثَالِي، وَا أَسَفَاه! الَّتِي يَعْرِفُ اسْمَهَا

مُلَقِّنُهَا الْفَقِيد؛ شَهِيرَةٌ مُتَلاَشِيَة

---

(١) **ڤيستال**: كاهنة العذرية في «فيستا»؛ **فراسكاتي**: اسم بيت شهير للقمار بباريس، أغلق عام ١٨٣٧

أَظَلَّتْهَا فِي الْمَاضِي تِيڤُولِي[1]، فِي ازْدِهَارِهَا،

كُلُّ ذَلِكَ يُسْكِرُنِي! لَكِن مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الْهَشَّة
هُنَاكَ الْبَعْضُ، فِيمَا يَسْتَخْرِجُونَ الْعَسَلَ مِنَ الأَلَم،
قَالُوا لِلإِخْلاَصِ الَّذِي أَعَارَهُم أَجْنِحَتَه:
أَيُّهَا البُرَاقُ الْقَدِيرُ، فَلْتَحْمِلْنِي حَتَّى السَّمَاء!

وَاحِدَةٌ، امْتُحِنَت بِالتَّعَاسَةِ فِي مَوْطِنِهَا،
وَأُخْرَى، أَبْهَظَهَا زَوْجُهَا بِالْعَذَابَات،
وَأُخْرَى، مَادُونَّا حَطَّمَهَا ابْنُهَا،
كُلُّهُنَّ يَسْتَطِعْنَ صُنْعَ نَهْرٍ مِنْ دُمُوعِهِن!

(٣)

آه! كَم تَتَبَّعْتُ مِنْ هَؤلاَءِ الْعَجَائِزِ الْقَصِيرَات!
إِحْدَاهُنَّ، مِنْ بَيْنِ أُخْرَيَاتٍ، سَاعَةَ غُرُوبِ الشَّمْس
وَهِيَ تُدْمِي السَّمَاءَ بِجِرَاحٍ قُرْمُزِيَّة،
كَانَت تَجْلِسُ، مُفَكِّرَةً، عَلَى انْفِرَادٍ عَلَى أَرِيكَة،

لِتَسْمَعَ إِحْدَى هَذِهِ الْمَعْزُوفَات الْمُوسِيقِيَّة، العَامِرَةِ بِالنُّحَاس،

---

(١) تيڤولي: حديقة ومكان للمتّعة بباريس.

الَّتِي يَفِيضُ بِهَا الْعَسْكَرُ أَحْيَانًا عَلَى حَدَائِقِنَا،
وَالَّتِي تَنْشُرُ، فِي تِلْكَ الأُمْسِيَاتِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي يُحِسُّ الْمَرْءُ فِيهَا بِحَيَاةٍ جَدِيدَة،
بَعْضَ الْبُطُولِيَّةِ فِي قَلْبِ ابْنِ الْمَدِينَة.

تِلْكَ، مُنْتَصِبَةً مَا تَزَالُ، فَخُورَةً وَتُحِسُّ بِالنِّظَام،
كَانَت تَنْهَلُ بِشَرَاهَةٍ مِنْ هَذَا النَّشِيدِ الْحَرْبِي الْحَيَوِي؛
وَعَيْنُهَا تَنْفَتِحُ أَحْيَانًا مِثْلَ عَيْنِ صَقْرٍ عَجُوز؛
وَجَبِينُهَا الرُّخَامِيُّ كَأَنَّه مَجْبُولٌ مِن أَجْلِ الْغَار!

(٤)

هَكَذَا تَمْضِينَ، بِعَزْمٍ وَدُونَ شَكْوَى،
خِلاَلَ فَوْضَى الْمُدُنِ الْعَارِمَة،
أُمَّهَاتٍ بِقُلُوبٍ دَامِيَةٍ، عَشِيقَاتٍ أَو قِدِّيسَات،
كَانَت أَسْمَاؤُهُن فِيمَا مَضَى عَلَى كُلِّ لِسَان.

أَنْتُنَّ يَا مَنْ كُنْتُنَّ الْفِتْنَةَ أَو كُنْتُنَّ الْمَجْد،
لاَ أَحَدَ يَتَعَرَّفُ عَلَيْكُن! فَسِكِّيرٌ فَظٌّ
يُهِينُكُنَّ لَدَى مُرُورِه بِمُلاَحَظَةٍ هَازِئَة؛
وَفِي أَعْقَابِكُنَّ يَتَقَافَزُ طِفْلٌ حَقِيرٌ وَدَنِيء.

خَجِلاَتٍ مِن وُجُودِكُنَّ، ظِلاَلاً مُتَجَعِّدَة،

مَذْعُورَاتٍ، وَالظَّهْرُ مَحْنِي، تُحَاذِينَ الْجُدْرَان؛
وَلاَ أَحَدَ يُحَيِّيكُنَّ، أَيَّتُهَا الْمَصَائِرُ الْغَرِيبَة!
يَا أَنْقَاضَ إِنْسَانِيَّةٍ نَاضِجَةً مِنْ أَجْلِ الأَبَدِيَّة!

لَكِنِّي، أَنَا الَّذِي أَرْقُبُكُنَّ عَن بُعْدٍ بِحَنَان،
وَعَيْنِي قَلِقَةٌ، مُرَكَّزَةٌ عَلَى خُطوَاتِكُنَّ الْمُتَرَدِّدَة،
تَمَامًا كَأَنِّي أَبُوكُنَّ، يَا لَلْعَجَب!
أَتَذَوَّقُ دُونَ عِلْمِكُنَّ مَلَذَّاتٍ خَفِيَّة:

أَرَى أَهْوَاءَكُنَّ الْغَرِيرَةَ تَتَرَعْرَع؛
أَعِيشُ أَيَّامَكُنَّ الْغَابِرَةَ، الْقَاتِمَةَ أَو الْمُضِيئَة؛
وَقَلْبِي الْمُتَكَاثِرُ يَسْتَمْتِعُ بِكُلِّ خَطَايَاكُن!
وَرُوحِي تَسْطَعُ بِكُلِّ فَضَائِلِكُن!

أَيَّتُهَا الأَطْلاَلُ! يَا عَائِلَتِي! أَيَّتُهَا الْعُقُولُ الْمُتَجَانِسَة!
أُقَدِّمُ لَكُنَّ كُلَّ مَسَاءٍ تَحِيَّةَ وَدَاعٍ مهِيبَة!
فَأَيْنَمَا سَتكُونُنَّ غدًا، يَا حَوَّاءَاتِ الثَّمَانِينَ عَامًا،
عَلَى مَنْ سَيَحُطُّ الْمِخْلَبُ الرَّهِيبُ لِلَّه؟

٩٢

العُميان

فَلْتَتَأَمَّلِيهم، يَا رُوحِي، فَهُم حَقًّا بَشِعُون!
يُشْبِهُونَ عَارِضَاتِ الأَزْيَاءِ، وَمُضْحِكُونَ بِغُمُوض؛
مُفْزِعُونَ، فَرِيدُونَ مِثْلَ مَن يَسِيرُونَ فِي النَّوْم،
وَلاَ أَحَدَ يَدْرِي إِلَى أَيْنَ يُحَمْلِقُونَ بِعُيُونِهِم الْمُظْلِمَة.

عُيُونُهُم، الَّتِي رَحَلَت عَنْهَا الْوَمْضَةُ السَّمَاوِيَّة،
تَظَلُّ مَرْفُوعَةً نَحْوَ السَّمَاء، كَأَنَّهُم يَنْظُرُون
فِي الْبَعِيد؛ وَلاَ يَرَاهُم أَحَدٌ أَبَدًا حَالِمِين يُحْنُونَ
رُءُوسَهُم الثَّقِيلَةَ نَحْوَ الأَرْض.

هَكَذَا يَمْضُونَ فِي الظَّلاَمِ الشَّامِل،
شَقِيقِ الصَّمْتِ الأَبَدِي. آهِ أَيَّتُهَا المَدِينَة!
فِيمَا تُغَنِّينَ حَوْلَنَا، وَتَضْحَكِينَ وَتَخُورِين،

مَأْخُوذَةً بِاللَّذَّةِ حَتَّى الْفَظَاظَة،
فَلْتَنْظُرِي! إِنَّنِي أُجَرْجِرُ نَفْسِي أَيْضًا! لَكِنِّي بِبَلاَدَةٍ أَكْثَرَ مِنْهم،
أَسأَل: عَمَّ يَبْحَثُونَ فِي السَّمَاءِ، كُلُّ هَؤُلاَءِ الْعُمْيَان؟

٩٣

إِلَى عَابِرَة

كَانَ الشَّارِعُ الصَّاخِبُ يَهْدِرُ حَوْلِي.
مَرَّت امْرَأَةٌ طَوِيلَةٌ، نَحِيلَةٌ، فِي ثَوْبِ الْحِدَاد،
وَالأَسَى الْمهِيبِ، وَبِيَدٍ مُتْرَفَة
تَرْفَعُ وَتُؤَرْجِحُ ذَيْلَ وَطَيَّاتِ ثَوْبِهَا؛

رَشِيقَةٌ وَنَبِيلَةٌ، بِسَاقَيْنِ كَسَاقَيْ تِمْثَال.
وَأَنَا ـ مُهْتَاجًا مِثْلَ مَهْوُوس ـ احْتَسَيْت
مِنْ عَيْنِهَا، كَسَمَاءٍ دَاكِنَةٍ يُولَدُ فِيهَا الإِعْصَار،
الْعَذَابَ الْفَاتِنَ وَاللَّذَّةَ الْقَاتِلَة.

بَرْق.. ثُمَّ الظَّلاَم! ـ أَيُّهَا الْجَمَالُ الْهَارِب
الَّذِي جَعَلَتْنِي نَظْرَةٌ مِنْه أُولَدُ فَجْأَةً مِنْ جَدِيد،
أَلَن أَرَاكَ مَرَّةً أُخْرَى إِلاَّ فِي الأَبَدِيَّة؟

فِي مَكَانٍ آخَرَ، بَعِيدًا بَعِيدًا عَن هُنَا! بَعْدَ الأَوَان! أَبَدًا رُبَّمَا!
لأَنِّي أَجْهَلُ إِلَى أَيْنَ تَفِرِّينَ، وَلاَ تَدْرِينَ إِلَى أَيْنَ أَمْضِي،
يَا أَنْتِ الَّتِي كُنْتُ سَأُحِبُّهَا، يَا أَنْتِ الَّتِي تَعْرِفِينَ ذَلِك!

٩٤

الهيكَلُ العَظمِيُّ الكَادِح

(١)

عَلَى مَنَاضِدِ التَّشْرِيح
المَرْمِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الأَرْصِفَةِ الْمُتْرِبَة
حَيْثُ تَرْقُدُ كُتُبٌ عَدِيدَةٌ كَالْجُثَث
مِثْلَ مُومياءَ عَتِيقَة،

رُسُومٌ فِيهَا الْجَهَامَة
وَبَرَاعَةُ رَسَّامٍ قَدِيم،
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَآبَةِ الْمَوْضُوع،
قَد كَشَفَت عَنِ الْجَمَال،

وَالْمَرْءُ يَرَى، وَهوَ مَا يَجْعَلُ
هَذِهِ الأَهْوَالَ الْغَامِضَةَ أَكْثَرَ اكْتِمَالاً،

أَجْسَادًا مَسْلُوخَةً وَهَيَاكِلَ عَظْمِيَّة،
تَحْرُثُ مِثْلَ الْكَادِحِين.

(٢)

مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي تَنْبِشُون،
أَيُّهَا الْفَلاَّحُونَ الْمُذْعِنُونَ الْكَئِيبُون،
بِكُلِّ عُنْفُوَانِ ظُهُورِكُم،
أَو عَضَلاَتِكُم الْعَارِيَة،

فَلْتَقُولُوا، أَيُّ حَصَادٍ غَرِيب،
أَيُّهَا الْمَحْكُومُونَ بِالأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ الْمَنْزُوعُون مِنَ الْمَقْبَرَة،
تَجْنُونَه، وَلأَيِّ مُزَارِع
عَلَيْكُم أَن تَمْلأُوا مَخْزَنَ الْغِلاَل؟

أَتُرِيدُونَ ـ كَرَمْزٍ وَاضِحٍ رَهِيب
لِمَصِيرٍ بَالِغِ الْقَسْوَة! ـ
أَنْ تَكْشِفُوا أَنَّ النَّوْمَ الْمَوْعُود
لَيْسَ مَضْمُونًا حَتَّى فِي الْقَبْر؛

وَأَنَّ الْعَدَمَ خَائِنٌ لَنَا؛
وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْمَوْت، يَخْدَعُنَا،

وَأَنَّنَا دَائِمًا أَبَدًا
رُبَّمَا سَيَكُونُ عَلَيْنَا، وَا أَسَفَاه!

أَنْ نَحْرُثَ الأَرْضَ الْقَاسِيَة
فِي بَلَدٍ مَا مَجْهُول
وَنَغْرِسَ فِيهَا مِعْزَقَةً ثَقِيلَة
تَحْتَ قَدَمِنَا الْعَارِيَةِ الدَّامِيَة؟

٩٥

غَسقُ المسَاء

هَا هُوَ الْمَسَاءُ السَّاحِرُ، صَدِيقُ الْمُجْرِم؛
يَحلُّ مِثْلَ مُتَوَاطِئٍ، بِخُطَى الذِّئبِ؛ وَالسَّمَاء
تَنْغَلِقُ رُوَيْدًا مِثْلَ قُبَّةٍ هَائِلَة،
وَالإِنْسَانُ الْمُتَعَجِّلُ يَتَحَوَّلُ إِلَى حَيَوَانٍ بَرِّيّ.

أَيُّهَا الْمَسَاءُ، الْمَسَاءُ الْحَبِيبُ، الْمُشْتَهَى
مِمَّن تَسْتَطِيعُ ذِرَاعَاه أَن تَقُولاَ، بِلاَ كَذِب:
الْيَوْمَ عَمِلْنَا! ـ هُوَ الْمَسَاءُ الَّذِي يُهَدِّئ
الأَرْوَاحَ الَّتِي يَنْهَشُهَا أَلَمٌ وَحْشِي،
وَالْعَالِمَ الْمُثَابِرَ الَّذِي تَثْقُلُ عَلَيْهِ رَأسُه،
وَالْعَامِلَ الْمَحْنِيَّ الَّذِي يَعُودُ إِلَى فِرَاشِه.
فِي ذَلِكَ الْحِينِ يَصْحُو شَيَاطِينُ مُفْسِدُون
بِتَثَاقُلٍ فِي الأَثِير، كَرِجَالِ أَعْمَال،
وَيَطْرُقُونَ الْمَصَارِيعَ وَالأَفَارِيزَ وَهُم يُحَلِّقُون.

وَخِلاَلَ الأَضْوَاءِ الَّتِي تُعَذِّبُهَا الرِّيح
تَسْتَعِرُ الدَّعَارَةُ فِي الشَّوَارِع؛
وَمِثْلَ قَرْيَةِ نَمْلٍ تَفْتَحُ دُرُوبَهَا؛
فِي كُلِّ مَكَانٍ تَشُقُّ لِنَفْسِهَا طَرِيقًا خَفِيًّا؛
مِثْلَ الْعَدُوِّ الَّذِي يُحَاوِلُ شَنَّ هُجُومٍ خَاطِف؛
تَمُورُ فِي قَلْبِ مَدِينَةِ الأَوْحَال
كَدُودَةٍ تَخْتَلِسُ مِنَ الإِنْسَانِ مَا يَأْكُل.
هُنَا وَهُنَاكَ يَسْمَعُ الْمَرْءُ صَفِيرَ الْمَطَابِخِ،
وَعُوَاءَ الْمَسَارِحِ، وَهَدِيرَ الْفِرَقِ الْمُوسِيقِيَّة؛
وَمَوَائِدُ الضِّيَافَةِ، حَيْثُ الْمُقَامَرَةُ تَصْنَعُ الْمَلَذَّات،
تَمْتَلِئُ بِالْعَاهِرَاتِ وَالْغَشَّاشِينَ، وَشُرَكَائِهِم،
وَاللُّصُوصُ، الَّذِينَ لاَ يَعْرِفونَ رَاحَةً وَلاَ رَحْمَة،
يَمْضُونَ مِن فَورِهِم لِبَدْءِ عَمَلِهِم، هُم أَيْضًا،
وَاقْتِحَامِ الأَبْوَابِ وَالْخَزَائِنِ بِحَذَر
لِيَعِيشُوا بِضْعَةَ أَيَّامٍ وَيَكْسوا عَشِيقَاتِهِم.
فَلْتَسْتَجْمِعِي نَفْسَكِ، يَا رُوحِي، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْخَطِيرَة،
وَلْتَصُمِّي أُذنَكِ عَن هَذَا الْهَدِير.
إِنَّهَا السَّاعَةُ الَّتِي تَحْتَدُّ فِيهَا عَذَابَاتُ الْمَرْضَى!
وَاللَّيْلُ الْكَئِيبُ يُمْسِكُ بِخِنَاقِهِم؛
يُنْهُونَ مَصِيرَهُم وَيَمْضُونَ إِلَى الْهَاوِيَةِ الْمُشْتَرَكَة؛
تَمْتَلِئُ الْمُسْتَشْفَى بِآهَاتِهِم. ـ وَأَكْثَرُ مِنْ وَاحِد

لَن يَأتِي بَعْدَ الآنَ لِيَتَنَاوَلَ حِسَاءَه الْعَطِر،
فِي رُكْنِ الْمِدْفَأَةِ، فِي الْمَسَاءِ، بِجَانِبِ شَخْصٍ حَبِيب.

بَلْ إِنَّ الْغَالِبِيَّةَ لَم تَعْرِف أَبَدًا
عُذُوبَةَ الْبَيْتِ، وَأَبَدًا لَم يَعِيشوا!

٩٦

المقـامَرة

فِي مَقَاعِدَ وَثِيرَةٍ بَالِيَةٍ عَاهِرَاتٌ عَجَائِز،
شَاحِبَاتٌ، مَصْبُوغَاتُ الرُّمُوشِ، عُيُونُهُنَّ غَانِجَةٌ قَاتِلَة،
مُتَظَرِّفَاتٌ، وَمِن آذَانِهِنَّ النَّحِيلَة
يَسَّاقَطُ صَلِيلُ الْمَعْدَنِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيم؛

وَحَوْلَ طَاوِلاَتِ الْقِمَارِ وُجُوهٌ بِلاَ شِفَاه،
وَشِفَاهٌ بِلاَ لَوْنٍ، وَأَفْوَاهٌ بِلاَ أَسْنَان،
وَأَصَابِعُ مُتَشَنِّجَةٌ بِفِعْلِ حُمَّى جَهَنَّمِيَّة،
تُفَتِّشُ الْجَيْبَ الْخَاوِي أَو الصَّدْرَ النَّابِض؛

تَحْتَ السُّقُوفِ الْمُتَّسِخَةِ، صَفٌّ مِنْ ثُرَيَّاتٍ شَاحِبَة
وَقَنَادِيلَ ضَخْمَةٍ تَصُبُّ أَضْوَاءَهَا
عَلَى جِبَاهٍ دَاكِنَةٍ لِشُعَرَاءَ مَرْمُوقِين
يَأْتُونَ لِيُبَدِّدُوا عَرَقَهُم الدَّامِي؛

هَا هِيَ اللَّوْحَةُ السَّوْدَاءُ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي حُلْمٍ لَيْلِي
تَتَجَلَّى لِعَيْنِيَ الْبَصِيرَة.
وَأَنَا، فِي رُكْنِ الْكَهْفِ الصَّامِت،
أَرَى نَفْسِي مُتَّكِئًا، مَقْرُورًا، صَامِتًا، حَسُودًا،

حَاسِدًا الشَّهْوَةَ الْعَنِيدَةَ لِهَؤُلاَءِ النَّاس،
وَالْبَهْجَةَ الْكَئِيبَةَ لِهَؤُلاَءِ الْعَاهِرَاتِ الْعَجَائِز،
وَكُلُّهُم بِحَمِيَّةٍ يُتَاجِرُونَ أَمَامِي،
أَحَدُهُم بِشَرَفِهِ الْغَابِر، وَالأُخْرَى بِجَمَالِهَا!

وَقَلْبِي ارْتَاعَ مِنْ حَسَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الْبُؤَسَاء
الْمُهَرْوِلِينَ بِلَهْفَةٍ إِلَى الْهَاوِيَةِ الْفَاغِرَة،
وَالَّذِينَ سَيُفَضِّلُونَ، مَخْمُورِينَ بِدَمِهِم،
الْعَذَابَ عَلَى الْمَوْتِ وَالْجَحِيمَ عَلَى الْعَدَم!

٩٧

رَقصَةٌ جنائزيَّة

إلى إرنست كريستوف

مُتَبَاهِيَةً، كامْرَأَةٍ حَيَّةٍ، بِقَوَامِهَا النَّبِيل،
مَعَ بَاقَتِهَا الْكَبِيرَةِ، وَمِنْدِيلِهَا وَقُفَّازَيْهَا،
لَهَا فُتُورُ وَطَلاَقَة
فَاتِنَةٍ مَمْشُوقَةٍ ذَات سِيمَاءَ غَرِيبَة.

أَرَأَى أَحَدٌ أَبدًا قَامَةً أَرْهَفَ فِي حَفْلَةِ رَقْص؟
ثَوْبُهَا الْفَضْفَاضُ، فِي كَمَالِهِ الْمَلَكِيّ،
يَنْسَدِلُ بِغَزَارَةٍ عَلَى قَدَمٍ نَحِيلَة
يُطْبِقُ عَلَيْهَا نِعَالٌ مُوَشًّى، جَمِيلٌ كَوَرْدَة.



الدَّانْتِيلاَّ الَّتِي تَلْهُو عَلَى حَافَّةِ التَّرْقُوَة،
مِثْلَ نَبْعٍ شَهْوَانِيٍّ يَرْتَطِمُ بِالْحَجَر،
تَحْمِي بِحَيَاءٍ مِنَ السُّخْرِيَةِ الْمَاجِنَة

الْمَفَاتِنَ الْكَئِيبَةَ الَّتِي تُحَاوِلُ إِخْفَاءهَا.

عَيْنَاهَا الْعَمِيقَتَانِ مَجْبُولَتَانِ مِنْ خَوَاءٍ وَظُلْمَة،
وَرَأسُهَا، الْمُوَشَّاةُ بِبَرَاعَةٍ بِالزُّهُور،
تَتَمَايَلُ بِرَهَافَةٍ عَلَى فَقَرَاتِهَا الوَاهِيَة،
يَا لَسِحْرِ عَدَمٍ مُتَبَرِّجٍ بِجُنُون!

الْبَعْضُ سَيَعْتَبِرُكِ صُورَةً هَزْلِيَّة،
مَنْ لاَ يُدْرِكُونَ، كَعُشَّاقٍ سُكَارَى بِالْجَسَد،
الرَّشَاقَةَ بِلاَ اسْمٍ لِلْجَسَدِ الإِنْسَانِيّ.
فَأَنْتَ تَسْتَجِيبُ، أَيُّهَا الْهَيْكَلُ الْكَبِيرُ، لِذَوْقِيَ الْحَمِيم!

أَتَأْتِينَ لِتُزْعِجِي، بِتَكْشِيرَتِكِ الْقَوِيَّة،
حَفْلَ الْحَيَاة؟ أَم أَنَّ رَغْبَةً قَدِيمَة،
مَا تَزَالُ تَحْفِزُ جَسَدَكِ الْحَيّ،
تَدْفَعُكِ، أَيَّتُهَا السَّاذِجَةُ، إِلَى مِحْفَلِ اللَّذَّة؟

بِأَلْحَانِ الْكَمَانَاتِ، بِلَهِيبِ الشُّمُوع،
أَتَأْمَلِينَ إِزَاحَةَ كَابُوسِكِ السَّاخِر،
وَتَأْتِينَ لِتُطَالِبِي فَيْضَ الْعَرْبَدَة

بِتَرْطِيبِ الْجَحِيمِ الْمُسْتَعِرِ فِي قَلْبِك؟

بِئْرٌ لاَ تَنْضُب مِنَ الْحَمَاقَةِ وَالْخَطَايَا!
إِنْبِيقٌ أَبَدِيٌّ لِلْعَذَابِ الْغَابِرِ!
وَخِلاَلَ الْغُلاَلَةِ الْمُلْتَوِيَةِ لِضُلُوعِك
أَرَى الأَفْعَى الشَّرِهَةَ مَا تَزَالُ شَارِدَة.

وَالْحَقِيقَة أَنَّنِي أَخْشَى أَلاَّ يَلْقَى تَبَرُّجُك
ثَمَنًا جَدِيرًا بِجُهُودِه؛
فَمَن، مِنْ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْفَانِيَةِ، يُدْرِكُ السُّخْرِيَة؟
فَمَفَاتِنُ الرُّعْبِ لاَ تُسْكِرُ إِلاَّ الأَقْوِيَاء!

هُوَّةُ عَيْنَيْكِ، الْمَلأَى بِالأَفْكَارِ الْمُفْزِعَة،
تَفُوحُ بِالدُّوَارِ، وَالرَّاقِصُونَ الْبَصِيرُون
لَن يَتَأَمَّلُوا إِلاَّ بِاشْمِئْزَازٍ مَرِير
الابْتِسَامَةَ الأَبَدِيَّةَ لأَسْنَانِكِ الاثْنَتَيْنِ وَالثَّلاَثِين.

مَعَ ذَلِك، فَمَن الَّذِي لَم يَضُم مُومِيَاءَ بَيْنَ ذِرَاعَيْه،
وَمَن الَّذِي لَم يَطْعَم مِنْ أَشْيَاءِ الْمَقْبَرَة؟
مَا جَدْوَى الْعِطْرِ، وَالْمَلاَبِس أَوِ الزِّينَة؟
وَمَنْ يَتَقَمَّص دَوْرَ الْمُشْمَئِزِّ يَظُنُّ نَفْسَهُ وَسِيمًا.

يَا «بَيَادِر»[1] بِلَا أَنْف، يَا دَاعِرَةً لَا تُقَاوَم،
فَلْتَقُولِي إِذَن لِهَؤُلاَءِ الرَّاقِصِينَ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالانْصِدَام:
«أَيُّهَا الْمُخَنَّثُونَ الْمُتَعَجْرِفُونَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ فَنِّ الْمَاكِيَاج
فَأَنْتُم تَفُوحُونَ جَمِيعًا بِالْمَوْتِ! أَيَّتُهَا الْمُومْيَاوَاتُ الْمُعَطَّرَة،

«يَا أَنْتِينُوس[2] الذَّاوِي، أَيُّهَا الْمُتَغَنْدِرُونَ الْمُرْد،
أَيَّتُهَا الْجُثَثُ اللاَّمِعَةُ، الْمُغْوُونَ الشَّائِبُون،
الْهِزَّةُ الْكَوْنِيَّةُ لِرَقْصَةِ الْقُبُور
تَجْرِفُكُم إِلَى أَمَاكِنَ مَجْهُولَة!

مِنْ أَرْصِفَةِ السِّينِ الْبَارِدَةِ إِلَى شَوَاطِئِ الْجَانْجِ[3] الْمُشْتَعِلَة،
يَتَقَافَزُ الْقَطِيعُ الْفَانِي وَيُمْعِنُ فِي الْبَهْجَةِ، دُونَ أَنْ يَرَى
فِي ثُقْبِ السَّقْفِ بُوقَ الْمَلاَك
فَاغِرًا بِصُورَةٍ رَهِيبَةٍ كَفُوَّهَةِ بُنْدُقِيَّةٍ سَوْدَاء.

فِي كُلِّ الْمُنَاخَاتِ، تَحْتَ كُلِّ الشُّمُوسِ، يُعْجَبُ الْمَوْتُ بِك
فِي كُلِّ حَرَكَاتِكِ الْبَهْلَوَانِيَّةِ، أَيَّتُهَا الإِنْسَانِيَّةُ الْمُضْحِكَة،
وَإِذْ يُعَطِّرُ نَفْسَهُ بِالْمُرِّ، مِثْلَك،
فَكَثِيرًا مَا يَمْزِجُ سُخْرِيَتَه بِحَمَاقَتِك!»

---

(١) اسم راقصة شرقيّة.

(٢) شاب يونانيٌّ جميل، محظي الامبراطور هادريان. وهو مِثَالٌ للجمال الرجوليّ اليونانيّ. والاسم يرد ـ في النص الأصليّ ـ بالجمع.

(٣) هو نهر الجانج المقدّس بالهند.

٩٨

عشـقُ الكَـذب

عِنْدَمَا أَرَاكِ تَمُرِّين، يَا عَزِيزَتِي اللاَّمُبَالِيَة،
عَلَى نَغَمِ الْمُوسِيقَى الَّذِي يَتَكَسَّرُ عَلَى السَّقْف
مُسْتَوْقِفًا مِشْيَتَكِ الْمُتَنَاغِمَةَ الْبَطِيئَة،
وَأَنْتِ تَحْمِلِينَ ضَجَرَ نَظْرَتِكِ الْعَمِيقَة؛

حِينَمَا أَتَأَمَّلُ جَبِينَكِ الشَّاحِبَ، الْمُوَشَّى بِفِتْنَةٍ عَلِيلَة،
عَلَى ضَوْءِ مَصَابِيحِ الْغَازِ الَّذِي يُلَوِّنُه،
حَيْثُ مَشَاعِلُ الْمَسَاءِ تُشْعِلُ فَجْرًا مَا،
وَعَيْنَاكِ الْجَذَّابَتَانِ مِثْلَ عَيْنَي وَجْهٍ مَرْسُوم،

أَقُولُ لِنَفْسِي: كَم هِي جَمِيلَة! وَنَدِيَّةٌ بِصُورَةٍ غَرِيبَة!
تُتَوِّجُهَا الذِّكْرَى الْهَائِلَةُ، كَصَرْحٍ مَلَكِيٍّ ثَقِيل،
وَقَلْبُهَا، الْمَخْدُوش مِثْلَ خوخَة،
نَاضِجٌ، مِثْلَ جَسَدِهَا، لِلْحُبِّ الْبَارِع.

أَأَنْتِ ثَمَرَةُ الْخَرِيفِ ذَاتُ الْمَذَاقِ الأَقْصَى؟
أَأَنْتِ مَزْهَرِيَّةٌ جَنَائِزِيَّةٌ تَنْتَظِرُ بَعْضَ الدُّمُوع،
أَم أَرِيجٌ يَبْعَثُ الْحُلْمَ بِوَاحَاتٍ بَعِيدَة،
وِسَادَةٌ مُهَدْهِدَةٌ، أَم سَلَّةُ زُهُور؟

أَعْرِفُ أَنَّ هُنَاكَ عُيُونًا، أَكْثَرَ كَآبَة،
لاَ تُخْفِي أَبَدًا أَسْرَارًا غَالِيَة؛
عُلَبَ جَوَاهِرَ جَمِيلَةً بِلاَ جَوَاهِر، صَنَادِيقَ ذَخَائِرَ بِلاَ ذَخَائِر،
أَكْثَرَ خَوَاءً، أَكْثَرَ عُمْقًا مِنكِ، أَيَّتُهَا السَّمَاوَات!

لَكِن أَلاَ يَكْفِي أَنْ تَكُونِي الْمَظْهَر،
لِتَبُثِّي الْبَهْجَةَ فِي قَلْبٍ هَارِبٍ مِنَ الْحَقِيقَة؟
فَمَا أَهَمِّيَّةُ حَمَاقَتِكِ أَو لاَمُبَالاَتِك؟
قِنَاعًا كُنْتِ أَم زُخْرُفًا، سَلاَمًا! فَأَنَا أَعْشَقُ جَمَالَك.

٩٩

لَم أَنْسَ[١]

لَم أَنْسَ، بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَة،

مَنْزِلَنَا الأَبْيَض، الصَّغِيرَ لَكِنِ الْهَادِئ؛

«بُومُون»[٢] الجِبْس و«ڤينوس» الْقَدِيمَة

الَّتِي تُخْفِي أَعْضَاءَهَا الْعَارِيَةَ فِي أَجَمَةٍ عَجْفَاء،

وَالشَّمْسُ، فِي الْمَسَاءِ، مُنْسَابَةً رَائِعَة،

كَانَت تَبْدُو، خَلْفَ زُجَاجِ النَّافِذَةِ حَيْثُ تَتَكَسَّرُ حِزْمَتُهَا،

كَعَيْنٍ كَبِيرَةٍ مَفْتُوحَةٍ فِي السَّمَاءِ الْفُضُولِيَّة،

كَأَنَّهَا تَتَأَمَّلُ عَشَاءَنَا الطَّوِيلَ الصَّامِت،

سَاكِبَةً بِصُورَةٍ كَبِيرَةٍ انْعِكَاسَاتِهَا الجَمِيلَةَ كَشَمْعَة

عَلَى الْمَفْرَشِ الْبَسِيطِ وَسَتَائِرِ الصُّوف.

---

(١) القصيدة ـ في الأصل ـ بلا عنوان؛ والعنوان من اختيارنا (المترجم).

(٢) إله الفواكه والحدائق، عند الإغريق.

١٠٠

الخادمةُ ذاتُ القَلبِ الطّيّب (١)

الْخَادِمَةُ ذَاتُ الْقَلْبِ الطَّيِّبِ الَّتِي كُنْتِ تَغَارِينَ مِنْهَا،
وَالَّتِي تَرْقُدُ فِي نَوْمِهَا تَحْتَ مَرْجٍ مُتَوَاضِع،
يَنْبَغِي مَعَ ذَلِكَ أَنْ نَأْتِيَ لَهَا بِبِضْعِ زُهُور.
فَالْمَوْتَى، الْمَوْتَى الْفُقَرَاءُ، يُعَانُونَ مِنْ آلاَمٍ هَائِلَة،
وَعِنْدَمَا يَنْفُثُ أُكْتُوبَر، مُشَذِّبُ الأَشْجَارِ الشَّائِخَة،
رِيحَه الْكَئِيبَةَ حَوْلَ رُخَامِ قُبُورِهِم،
فَبِالتَّأْكِيدِ، لاَ بُدَّ أَن يَعْتَقِدُوا أَنَّ الأَحْيَاءَ عَاقُّون،
إِذْ يَنَامُونَ، مِثْلَهُم، مُتَدَفِّئِينَ فِي مُلاَءَاتِهِم،
فِيمَا هُم، وَأَحْلاَمُ يَقَظَةٍ سَوْدَاءَ تَنْهَشُهُم،
دُونَ رَفِيقٍ فِي السَّرِيرِ، بِلاَ مُحَادَثَاتٍ سَارَّة،
هَيَاكِلَ عَظْمِيَّةً عَتِيقَةً ثَلْجِيَّةً، صَقَلَهَا الدُّود،
يُحِسُّونَ ثَلْجَ الشِّتَاءِ يَقْطُر

---

(١) القصيدة ـ في الأصل ـ بلا عنوان؛ والعنوان من اختيارنا (المترجم)

وَمُرُورَ الْقَرْنِ، بِلاَ صَدِيقٍ أَو عَائِلَة
يُبَدِّلُونَ الزُّهُورَ الْمَيِّتَةَ الْمُعَلَّقَةَ عَلَى قُبُورِهِم.

وَحِينَ يَصْفُرُ الْخَشَبُ وَيُغَنِّي، لَو أَنَّ الْمَسَاءَ هَادِئ،
كُنْتُ أَرَاهَا جَالِسَةً فِي الْمِقْعَدِ الْوَثِير،
أَمَّا فِي لَيْلَةٍ زَرْقَاءَ بَارِدَةٍ مِنْ دِيسَمبر،
فَكُنْتُ أَجِدُهَا مُقْعِيَةً فِي أَحَدِ أَرْكَانِ غُرْفَتِي،
رَصِينَةً، جَاءَت مِنْ عُمْقِ سَرِيرِهَا الأَبَدِيّ
لِتَرْعَى الطِّفْلَ الْكَبِيرَ بَنَظْرَتِهَا الأُمُومِيَّة،
فَمَاذَا كَانَ بِمَقْدُورِي أَن أَرُدَّ عَلَى هَذِهِ الرُّوحِ الْوَرِعَة،
وَأَنَا أَرَى دُمُوعًا تَسَّاقَطُ مِنْ جُفُونِهَا الْخَاوِيَة؟

١٠١

ضَبابٌ وأمطار

يَا نِهَايَاتِ الْخَرِيفِ، الشِّتَاءِ، الرَّبِيعِ المُنْغَمِسَةِ فِي الأَوْحَال،
أَيَّتُهَا الْفُصُولُ الْمُخَادِعَة! أُحِبُّكِ وَأَمْتَدِحُك
عَلَى إِحَاطَةِ قَلْبِي وَعَقْلِي هَكَذَا
بِكَفَنٍ ضَبَابِيٍّ وَقَبْرٍ غَامِض.

فِي هَذَا السَّهْلِ الشَّاسِعِ حَيْثُ تَمْرَحُ الرِّيَاحُ الْبَارِدَة،
حَيْثُ تُبَحُّ دَوَّارَةُ الْهَوَاءِ فِي اللَّيَالِي الطَّوِيلَة،
تَفْتَحُ رُوحِي جَنَاحَيْهَا عَلَى اتِّسَاعِهِمَا كَالْغُرَاب
بِأَفْضَلَ مِمَّا فِي وَقْتِ عَوْدَةِ الرَّبِيعِ الدَّافِئ.

لاَ شَيْءَ أَعْذَبَ عَلَى الْقَلْبِ الْمُفْعَمِ بِأَشْيَاء كَئِيبَة،
وَالَّذِي يَهْطِلُ عَلَيْهِ الصَّقِيعُ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيد،
أَيَّتُهَا الْفُصُولُ الشَّاحِبَةُ، يَا مَلِيكَاتِ مَنَاخَاتِنَا،

مِنَ الْوَجْهِ الدَّائِمِ لِظُلُمَاتِكِ الْبَاهِتَة،
ـ إِنْ لَم نُسَكِّن الأَلَمَ، فِي أُمْسِيَةٍ بِلاَ قَمَر،
اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، عَلَى سَرِيرِ الْمُصَادَفَة.

١٠٢

حُلمٌ باريسيّ

إلى قنسطنطين جيز

(١)

بِهَذَا الْمَشْهَدِ المُرَوِّع،
الَّذِي لَم يَشْهَده إِنْسَانٌ أَبَدًا،
هَذَا الصَّبَاح مَا تَزَالُ صُورَتُه،
الضَّبَابِيَّةُ الْبَعِيدَةُ، تُذْهِلُنِي.

النَّوْمُ مُفْعَمٌ بِالْمُعْجِزَات!
بِفِعْلِ نَزْوَةٍ فَرِيدَة
حَرَمْتُ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِد
النَّبَاتَاتِ الْخَارِقَة،

وَكَفَنَّانٍ فَخُورٍ بِعَبْقَرِيَّتِي،
اسْتَمْتَعْتُ فِي لَوْحَتِي،

بِالرَّتَابَةِ الْفَاتِنَة
لِلْمَعْدِنِ وَالرُّخَامِ وَالْمَاء.

بَابِلُ مِنْ سَلاَلِمَ وَأَرْوِقَةٍ مُقَوَّسَة،
كَانَ قَصْرًا لاَنِهَائِيًّا،
مَلِيئًا بِأَحْوَاضِ اسْتِحْمَامٍ وَشَلاَّلاَت
مُتَسَاقِطَةٍ عَلَى الذَّهَبِ الْكَامِدِ أَوِ الصَّقِيل؛

وَسُيُولٌ كَثِيفَةٌ،
مِثْلَ سَتَائِرَ مِنْ كِرِيسْتَال،
كَانَت مُعَلَّقَةً، مُتَأَلِّقَةً،
بِأَسْوَارٍ مِنْ مَعْدِن.

لاَ أَشْجَار، بَلْ صَفُّ أَعْمِدَة
كَانَ يُحِيطُ بِالْبِرَكِ النَّائِمَة،
حَيْثُ كَانَت حُورِيَّاتُ مَاءٍ هَائِلَة،
تَتَمَلَّى نَفْسَهَا، كَالنِّسَاء.

طَبَقَاتُ الْمَاءِ كَانَت تَنْسَابُ، زَرْقَاء،
بَيْنَ أَرْصِفَةٍ وَرْدِيَّةٍ وَخَضْرَاء،
مُمْتَدَّةً مَلاَيِينَ الْفَرَاسِخ،

نَحْوَ أَطْرَافِ الْكَوْن؛

كَانَت هُنَاكَ أَحْجَارٌ خَارِقَة
وَأَمْوَاجٌ سِحْرِيَّة؛ كَانَت هُنَاك
ثُلُوجٌ هَائِلَةٌ مُبْهِرَة
بِكُلِّ مَا تَعْكِسُه!

لاَ مُبَالِينَ وَصَامِتِين،
أَنْهَارُ جَانْج، فِي الْقُبَّةِ الزَّرْقَاء،
كَانُوا يَنْثُرُونَ الْكَنْزَ مِنْ جِرَارِهِم
فِي فَجَوَاتٍ مِنَ الْمَاس.

وَكَمُهَنْدِسٍ مِعْمَارِيٍّ لِعَوَالِمِي الْخَارِقَة،
صَنَعْتُ، كَمَا أَرَدْت،
مُحِيطًا مُرَوَّضًا يَنْسَابُ
فِي نَفَقٍ مِنْ جَوَاهِر؛

وَالْجَمِيعُ، حَتَّى اللَّوْنُ الأَسْوَد،
كَانَ يَبْدُو صَقِيلاً، نَاصِعًا، قزَحِيًّا؛
كَانَ السَّائِلُ يُرَصِّعُ مَجْدَه
فِي الأَشِعَّةِ الْبِلَّورِيَّة.

لاَ نَجْمَ، فَضْلاً عَن ذَلِك، وَلاَ شُعَاع
شَمْسٍ، حَتَّى تَحْتَ السَّمَاء،
لِيُضِيءَ هَذِهِ الرَّوَائِع،
الَّتِي تَأَلَّقَت بِنَارٍ شَخْصِيَّة!

وَفَوْقَ هَذِه الْعَجَائِبِ السَّاحِرَة
كَانَ يَرِفُّ (طُرْفَةٌ رَهِيبَة!
الْكُلُّ مِنْ أَجْلِ الْعَيْنِ، لاَ شَيْءَ لِلأُذُن!)
صَمْتُ الأَبَدِيَّة.

(٢)

وَلَدَى فَتْحِ عَيْنَيَّ الْمَلِيئَتَيْنِ بِاللَّهَب
شَهِدْتُ بَشَاعَةَ كُوخِي الْبَائِس،
وَأَحْسَسْتُ، وَأَنَا أَعُودُ إِلَى نَفْسِي،
بِسِنِّ الْهُمُومِ اللَّعِينَة؛

سَاعَةُ الْحَائِطِ بِدَقَّاتِهَا الْجَنَائِزِيَّة
كَانَت تَدُقُّ بِوَحْشِيَّة سَاعَةَ مُنْتَصَفِ النَّهَار،
وَالسَّمَاءُ تَنْثُرُ كَآبَاتٍ
عَلَى الْعَالَمِ الْحَزِينِ الْمُخَدَّر.

١٠٣

شَفقُ الصَّباح

نَوْبَةُ الصَّبَاحِ كَانَت تُدَوِّي فِي سَاحَاتِ الثُّكْنَات،
وَرِيحُ الصَّبَاحِ تَهَبُّ عَلَى الْقَنَادِيل.

كَانَت السَّاعَةَ الَّتِي يَدْفَعُ فِيهَا سِرْبُ الأَحْلاَمِ الشِّرِّيرَة
الْمُرَاهِقِينَ الْمَدْبُوغِينَ إِلَى التَّقَلُّبِ عَلَى وَسَائِدِهِم؛
حَيْثُ يَصْنَعُ الْمِصْبَاحُ بُقْعَةً حَمْرَاءَ عَلَى النَّهَار،
كَعَيْنٍ دَامِيَةٍ تَخْتَلِجُ وَتَتَحَرَّك؛
وَحَيْثُ الرُّوحُ، تَحْتَ وَطْأَةِ الْجَسَدِ الْفَظِّ، الثَّقِيل،
تُحَاكِي الْعِرَاكَ بَيْنَ الْمِصْبَاحِ وَالنَّهَار.
وَكَوَجْهٍ دَامِعٍ جَفَّفَتْهُ النَّسَائِم،
يَمْتَلِئُ الْهَوَاءُ بِرِعْشَةِ الأَشْيَاءِ الْهَارِبَة،
وَالرَّجُلُ ضَجِرٌ مِنَ الْكِتَابَةِ وَالْمَرْأَةُ مِنَ الْحُبّ.

الْمَنَازِلُ هُنَا وَهُنَاكَ كَانَت تَبْدَأُ فِي تَصْعِيدِ الدُّخَان.

وَنِسَاءُ الْمُتْعَةِ، بِجُفُونٍ مُمْتَقِعَة،
وَأَفْوَاهٍ مَفْتُوحَةٍ، كُنَّ يَرْقُدْنَ فِي نَوْمِهِنَّ الْبَلِيد؛
وَالْمُتَسَوِّلاَتُ، فِيمَا يُجَرْجِرْنَ أَثْدَاءَهُنَّ النَّحِيلَةَ الْبَارِدَة،
كُنَّ يَنْفُخْنَ فِي جَمرَاتِهِنَّ وَيَنفُخْنَ فِي أَصَابِعِهِن.
هِيَ السَّاعَةُ الَّتي تَحْتَدِمُ فِيهَا وَسْطَ الْبَرْدِ وَالْبُخْل
عَذَابَاتُ النِّسَاءِ فِي الوِلاَدَة؛
وَمِثْلَ شَهْقَةٍ قَطَعَهَا دَمٌ مُزْبِد
مَزَّقَ صِيَاحُ الدِّيكِ فِي الْبَعِيدِ الْهَوَاءَ الضَّبَابِيّ؛
وَحَمَّمَ بَحْرٌ مِنَ الْغَبَشِ الأَبْنِيَة،
وَالْمُحْتَضَرُونَ فِي عُمْقِ الْمِصَحَّات
كَانُوا يَلْفُظُونَ النَّفَسَ الأَخِيرَ فِي شَهْقَاتٍ بِلاَ مَثِيل.
وَالْعَاهِرُونَ يَعُودُونَ، مُسْتَنْزَفِينَ مِنْ عَمَلِهِم.

كَانَ الْفَجْرُ يَتَقَدَّمُ وَئِيدًا عَلَى السِّينِ الْمَهْجُور،
مُرْتَجِفًا فِي ثَوْبٍ وَرْدِيٍّ وَأَخْضَر،
وَبَارِيسُ الْقَاتِمَةُ، وَهيَ تَدْعَكُ عُيُونَهَا،
كَانَت تُمْسِكُ بِأَدَوَاتِهَا، مِثْلَ عَجُوزٍ مُثَابِر.

الخَمــر

١٠٤

رُوحُ الخَمر

ذَاتَ مَسَاءٍ غَنَّت رُوحُ الْخَمْرِ فِي الْقِنِّينَات:
«أَيُّهَا الإِنْسَانُ، أَيُّهَا الْمَحْرُومُ الْحَبِيب،
مِنْ سِجْنِيَ الزُّجَاجِي وَسِدَادَاتِي الْقُرْمُزِيَّة
أَسُوقُ لَكَ أُغْنِيَةً مُفْعَمَةً بِالضَّوْءِ وَالأُخُوَّة!

أَعْرِفُ كَم يَنْبَغِي بَذْلُه، عَلَى تَلٍّ مِنْ لَهِيب،
مِنْ عَنَاءٍ، مِنْ عَرَقٍ وَشَمْسٍ حَارِقَة
مِنْ أَجْلِ خَلْقِ حَيَاتِي وَمَنْحِي الرُّوح؛
لَكِنِّي لَن أَكُونَ أَبَدًا عَاقَّةً أَو شِرِّيرَة،

لأَنِّي أُحِسُّ بِبَهْجَةٍ هَائِلَةٍ عِنْدَمَا أَنْسَاب
فِي حَلْقِ رَجُلٍ اسْتَنْزَفَهُ الْعَمَل،
وَصَدْرُهُ الدَّافِئُ يُصْبِحُ قَبْرًا عَذْبًا
فِيهِ أَسْعَدُ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا فِي كُهُوفِيَ الْبَارِدَة.

أَلاَ تَسْمَعُ لاَزِمَاتِ يَوْمِ الأَحَدِ تُدَوِّي
وَالأَمَلَ الَّذِي يُغَرِّدُ فِي صَدْرِي وَهوَ يَخْتَلِج؟
الْمَرَافِقُ عَلَى الْمِنْضَدَةِ وَالأَكْمَامُ مُشَمَّرَة،
سَتُمَجِّدُنِي وَسَتكُونُ سَعِيدًا؛

سَأُشْعِلُ عَيْنَيْ زَوْجَتِكَ الْمُبْتَهِجَة؛
وَسَأُعِيدُ إِلَى ابْنِكَ قُوَّتَه وَلَوْنَه
وَسَأَكُونُ لِـمُصَارِعِ الْحَيَاةِ الْهَزِيلِ هَذَا
الزَّيْتَ الَّذِي يُقَوِّي عَضَلاَتِ الْمُصَارِعِين.

وَسَأَنْسَابُ فِيكَ، رَحِيقًا نَبَاتِيًّا،
حَبَّةً ثَمِينَةً بَذَرَهَا الْمُزَارِعُ الأَبَدِيّ،
مِنْ أَجْلِ أَن يُولَدَ مِنْ حُبِّنَا الشِّعْر
الَّذِي سَيَشُبُّ نَحْوَ اللهِ كوَرْدَةٍ نَادِرَة!»

١٠٥

خـمرُ جَامعي الخرَق

عَلَى الضَّوْءِ الأَحْمَرِ لأَحَدِ قَنَادِيلِ الشَّوَارِع
الَّتِي تَجْلِدُ الرِّيحُ لَهَبَهَا وَتُعَذِّبُ زُجَاجَهَا،
فِي قَلْبِ ضَاحِيَةٍ عَتِيقَةٍ، كَمَتَاهَةٍ مُوحِلَة
حَيْثُ تَزْحَفُ الإِنْسَانِيَّةُ فِي اضْطِرَابٍ عَاصِف،

يَرَى الْمَرْءُ جَامِعَ خِرَقٍ يَأتِي، هَازًّا رَأسَه،
مُتَعَثِّرًا، مُرْتَطِمًا بِالْجُدْرَانِ مِثْلَ شَاعِر،
وَدُونَ اكْتِرَاثٍ بِالْمُخْبِرِين، مَوْضُوعَاتِه،
يَصُبُّ قَلْبَه كُلَّه فِي مَشْرُوعَاتٍ مَجِيدَة.

يُقْسِمُ أَيْمَانًا، وَيَسِنُّ قَوَانِينَ سَامِيَة،
يَصْرَعُ الْخُبَثَاءَ، وَيُنْهِض الضَّحَايَا،
وَتَحْتَ السَّمَاءِ مِثْلَ قُبَّةٍ مُعَلَّقَة
يَسْكَرُ بِرَوْعَةِ فَضَائِلِهِ الشَّخْصِيَّة.

حَقًّا، فَهَؤُلاَءِ النَّاسُ الْمُنْهَكُونَ بِالْهُمُومِ الْمَنْزِلِيَّة،
الْمَطْحُونُونَ بِالْعَمَل، الْمُعَذَّبُونَ بِالزَّمَن،
الْمُرْهَقُونَ الْمَحْنِيُّونَ تَحْتَ رُكَامِ الأَنْقَاض،
الْقَيءُ الْغَامِض لِبَارِيسَ الضَّخْمَة،

يَعُودُون، وَهُم يَفُوحُونَ بِرَائِحَةِ بَرَامِيلِ الْخَمْر،
يَتْبَعُهُم رِفَاقٌ، شَابُوا فِي الْمَعَارِك،
وَشَوَارِبُهُم مَحْنِيَّةٌ كالأَعْلاَمِ الْقَدِيمَة.
الرَّايَاتُ، وَالزُّهُورُ وَ«أَقْوَاسُ» النَّصْر

تَرْتَفِعُ أَمَامَهُم، سِحْرٌ مهيب!
وَفِي الْعَرْبَدَةِ الْمُذْهِلَةِ الْبَاهِرَة
لِلأَبْوَاقِ، وَالشَّمْسِ، وَالْهتَافَاتِ وَالطُّبُول،
يَجْلِبُونَ الْمَجْدَ لِلشَّعْبِ الْمُنْتَشِي بِالْحُب!

هَكَذَا عَبْرَ الإِنْسَانِيَّةِ الطَّائِشَة
يَأتِي الْخَمْرُ بِالذَّهَبِ، مِثْلَ بَاكتُول[1] فَاتِن؛
وَبِحنْجَرَةِ الإِنْسَانِ يُغَنِّي مَآثِرَه
وَيَحْكُمُ بِمَوَاهِبِهِ مِثْلَ الْمُلُوكِ الْحَقِيقِيِّين.

---

(١) نهر في مملكة «ليديا» القديمة، كان يأتي مع تياره بشذراتٍ من الذَّهب.

لإغْرَاقِ الْمَرَارَةِ وَهَدْهَدَةِ الْبَلاَدَة
لَدَى كُلِّ هَؤُلاَءِ الْمَلْعُونِينَ الْعَجَائِزِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي صَمْت،
خَلَقَ اللهُ، وَقَد أَدْرَكَه النَّدَمُ، النَّوْم؛
وَأَضَافَ الإِنْسَانُ الْخَمْرَ، الابْنَ الْمُقَدَّسَ لِلـشَّمْس!

L'Ivresse du Chiffonnier

Souvent à la clarté sombre des réverbères
Que le vent de la nuit tourmente dans leurs verres
Au fond des quartiers sombres et tortueux
Où grouillent par milliers des ménages fiévreux,

On voit un chiffonnier qui vient hochant la tête
Battant et se cognant aux murs comme un poète,
Et sans prendre souci des mouchards ténébreux,
Épanchant tout son cœur dans l'air silencieux

Oui ces gens harcelés de chagrins de ménage
Moulus par le travail et tourmentés par l'âge
Le dos brisé et meurtri sous le poids des débris
Et des fumiers infects que rejette Paris

Reviennent parfumés d'une odeur de futailles,
Commandant une armée et gagnant des batailles,
Ils jurent qu'ils rendront toujours leur peuple heureux,
Et suivent à cheval leurs destins glorieux

C'est ainsi qu'à travers l'humanité frivole
Le vin roule de l'or comme un nouveau Pactole;

مخطوط قصيدة «خمر جامعي الخرق»

١٠٦

خَمرُ القَاتل

امرَأَتِي مَاتَت، فَأَنَا حُرّ!
أَسْتَطِيعُ إِذَن أَنْ أَشْرَبَ حَتَّى الثُّمَالَة.
فَعِنْدَمَا كُنْتُ أَعُودُ بِلاَ فِلْس،
كَانَ صُرَاخُهَا يُمَزِّقُ مِنِّي الأَعْصَاب.

سَعِيدٌ مِثْلَ مَلِك؛
الْهَوَاءُ نَقِيٌّ، وَالشَّمْسُ رَائِعَة...
مَرَرْنَا بِصَيْفٍ شَبِيه
عِنْدَمَا وَقَعْتُ فِي حُبِّهَا!

الظَّمَأُ الرَّهِيبُ الَّذِي يُمَزِّقُنِي
كَانَ بِحَاجَةٍ، كَيْ يَرْتَوِي،
إِلَى خَمْرٍ تَكْفِي لأَنْ تَمْلأَ
قَبْرَهَا؛ ـ وَهوَ لَيْسَ بِالْقَلِيل:

رَمَيْتُ بِهَا فِي أَعْمَاقِ بِئْر،

بَلْ أَهَلْتُ فَوْقَهَا

كُل أَحْجَارِ الْفُوَّهَة.

ـ سَأَنْسَاهَا إِن اسْتَطَعْت!

بِاسْمِ عُهُودِ الْحُب،

الَّتِي لاَ يَسْتَطِيعُ شَيْءٌ تَحْرِيرَنَا مِنْهَا،

وَمِن أَجْلِ الْمُصَالَحَة

مِثْلَمَا فِي الزَّمَنِ الْجَمِيلِ لِنَشْوَتِنَا،

طَلَبْتُ مِنْهَا مَوْعِدًا،

فِي الْمَسَاءِ، فِي طَرِيقٍ مَهْجُور.

وَجَاءَت! ـ الْمَخْلُوقَةُ الْحَمْقَاء!

نَحْنُ جَمِيعًا، بِدَرَجَةٍ أَوْ أُخْرَى، حَمْقَى!

كَانَت مَا تَزَالُ جَمِيلَة،

بِرَغْمِ إِرْهَاقِهَا الْكَبِير! وَأَنَا،

كُنْتُ أُحِبُّهَا كَثِيرًا! ذَلِكَ سَبَب

قَوْلِي لَهَا: اخْرُجِي مِنْ هَذِهِ الْحَيَاة!

لاَ أَحَدَ يُمْكِنُ أَنْ يَفْهَمَنِي. أَهُنَاكَ أَحَد
بَيْنَ هَؤُلاَءِ السكَارَى الْبُلَهَاء
قَد حَلُمَ فِي لَيَالِيهِ السَّقِيمَة
بِأَنْ يَصْنَعَ وِشَاحًا مِنَ الْخَمْر؟

فَهَذِهِ النَّذَالَةُ الْمَنِيعَة
مِثْلَ الآلاَتِ الْحَدِيدِيَّة
لَم تَعْرِف أَبَدًا، لاَ فِي الصَّيْف
وَلاَ فِي الشِّتَاء، الْحُبَّ الْحَقِيقِي،

بِنَشَوَاتِهِ السَّوْدَاء،
بِحَاشِيَتِهِ الْجَهَنَّمِيَّةِ مِنَ الْهُمُوم،
بِقَوَارِيرِ سُمِّه، بِدُمُوعِه،
بِصَخَبِ سَلاَسِلِهِ وَعِظَامِ مَوْتَاه!

ـ وَهَا أَنَذَا حُرٌّ وَوَحِيد!
سَأَسْكَرُ هَذَا الْمَسَاءَ حَتَّى الْمَوْت؛
بَعْدَهَا، بِلاَ خَوْفٍ وَلاَ نَدَم،
سَأَتَمَدَّدُ عَلَى الأَرْض،

وَسَأَنَامُ مِثْلَ كَلْب!

وَالشَّاحِنَاتُ ذَات الإِطَارَاتِ الثَّقِيلَة

الْمَحَمَّلَةُ بِالطِّينِ وَالأَحْجَار،

الْعَرَبَةُ الْمُهْتَاجَةُ يُمْكِنُ لَهَا

أَنْ تَسْحَقَ رَأسِي الآثِمَة

أَوْ تَقْطَعَ جَسَدِي إِلَى نِصْفَيْن،

فَلاَ أُبَالِي بِالله،

وَلاَ الشَّيْطَانِ أَو الْمَائِدَةِ الْمُقَدَّسَة!

١٠٧

خَمرُ المُنعـزِل

النَّظْرَةُ الْغَرِيبَةُ لامْرَأَةٍ مُسْتَهْتِرَة
الَّتِي تَنْسَلُّ إِلَيْنَا كَالشُّعَاعِ الأَبْيَض
الَّذِي يُرْسِلُهُ الْقَمَرُ الْمُتَمَوِّجُ إِلَى بُحَيْرَةٍ مُرْتَجِفَة،
عِنْدَمَا يُرِيدُ أَنْ يُحَمِّمَ فِيهَا جَمَالَه اللاَّمُبَالِي؛

الْحَقِيبَةُ الأَخِيرَةُ مِنَ الرِّيَالاَتِ بَيْنَ أَصَابعِ الْمُقَامِر؛
قُبْلَةٌ فَاجِرَةٌ مِنْ أَدْلِين النَّحِيلَة؛
أَصْوَاتُ مُوسِيقَى مُعَذِّبَةٌ وَمُهَدْهِدَة،
بِمَا يُشْبِهُ صَرْخَةً بَعِيدَةً لِعَذَابٍ إِنْسَانِيّ،

كُلُّ ذَلِكَ لاَ يُضَاهِي، أَيَّتُهَا الْقِنِّينَةُ الْعَمِيقَة،
السَّلْوَى الْخَارِقَةَ الَّتِي تُكِنُّهَا بَطْنُكِ الْخِصْب
مِنْ أَجْلِ الْقَلْبِ الظَّمْآنِ لِلشَّاعِرِ الْوَرِع؛

تَنْثُرِينَ عَلَيْهِ الأَمَلَ وَالشَّبَابَ وَالْحَيَاة،

ـ وَالْكِبْرِيَاءُ، كَنْزُ كُلِّ فَاقَة،

الَّذِي يَرُدُّنَا ظَافِرِينَ وَأَشْبَاهَ آلِهَة!

١٠٨

خَمرُ المُحبِّين

الْيَوْمَ الْفَضَاءُ رَائِع!
بِلاَ مِهْمَازٍ، بِلاَ شَكِيمَةٍ، وَلاَ لِجَام،
فَلْنَنْطَلِق عَلَى حِصَانِ الْخَمْر
إِلَى سَمَاءٍ خُرَافِيَّةٍ وَإِلَهِيَّة!

كَملاَكَيْنِ مُعَذَّبَيْن
بِدُوَارٍ عَصِيّ،
فَلْنَتْبَعِ السَّرَابَ الْبَعِيد
فِي زُرْقَةِ الصَّبَاحِ الْبِلَّوْرِيَّة!

مُتَأَرْجِحَيْنِ بِرِفْقٍ عَلَى جَنَاح
الزَّوْبَعَةِ الْبَارِعَة،
فِي هَذَيَانٍ مُمَاثِل،

سَنَهْرُبُ دُونَ رَاحَةٍ وَلاَ هَوَادَة،
يَا أُخْتُ، طَافِيَيْن جَنْبًا إِلَى جَنْب،
إِلَى فِرْدَوْسِ أَحْلاَمِي!

أزهَــارُ الشَّــرّ

١٠٩

الدَّمَار

بِلاَ انْقِطَاعٍ يَهْتَاجُ حَوْلِيَ الشَّيْطَانُ؛
يَطْفُو حَوْلِي مِثْلَ هَوَاءٍ غَيْرِ مَحْسُوس؛
أَبْتَلِعُه وَأُحِسُّ بِهِ يُحْرِقُ رِئَتِي
وَيُفْعِمُهَا بِرَغْبَةٍ أَبَدِيَّةٍ أَثِيمَة.

أَحْيَانًا مَا يَتَّخِذ، مُدْرِكًا عِشْقِيَ الْكَبِيرَ لِلْفَنّ،
شَكْلَ أَكْثَرِ النِّسَاءِ إِغْوَاءً،
وَبِذَرَائِعَ خَاصَّةٍ بِلَئِيم،
يُعَوِّدُ شَفَتَيَّ عَلَى مَشْرُوبَاتٍ شَائِنَة.

هَكَذَا يَقُودُنِي، بَعِيدًا عَنْ عَيْنِ اللَّه،
لاَهِثًا، مُحَطَّمًا مِنَ التَّعَبِ، إِلَى قَلْب
سُهُولِ السَّأَمِ، الْغَائِرَةِ الْمَهْجُورَة،

وَيَرْمِي أَمَامَ عَيْنَيَّ الْمُفْعَمَتَيْنِ بِالْحِيرَة
مَلاَبِسَ وَسِخَةً، وَجِرَاحًا مَفْتُوحَة،
وَآلَةَ **الدَّمَارِ** الدَّامِيَة!

١١٠

شَهِيدَة

رسم لأستاذ مجهول

وَسْطَ قَوَارِيرِ الْعِطْرِ، وَالأَقْمِشَةِ الْمُقَصَّبَة
وَالأَثَاثِ الشَّهْوَانِيّ،
وَرُخَامٍ، وَلَوْحَاتٍ، وَثِيَابٍ عَطِرَة
تَسْتَرْسِلُ فِي طَيَّاتٍ بَاذِخَة،

فِي غُرْفَةٍ دَافِئَةٍ، مِثْلَمَا فِي دَفِيئَة،
حَيْثُ الْهَوَاءُ خَطِرٌ وَقَاتِل،
حَيْثُ بَاقَاتٌ مُحْتَضِرَةٌ فِي أَكْفَانِهَا الزُّجَاجِيَّة،
تَلْفُظُ أَنْفَاسَهَا الأَخِيرَة،

جُثَّةٌ بِلاَ رَأسٍ تَدفقُ، مِثْلَ نَهْر،
عَلَى الْوِسَادَةِ الَّتِي ارْتَوَت
دَمًا أَحْمَرَ حَيًّا، شَرِبَه الْقمَاش

بِشَرَاهَةِ مَرْج.

وَكَالرُّؤَى الشَّاحِبَةِ الَّتِي يُوَلِّدُهَا الظَّلاَم
وَالَّتِي تَشُدُّ عُيُونَنَا،
تَرْقُدُ الرَّأسُ، بِكُتْلَةِ شَعْرِهَا الغَزِيرِ الْقَاتِم
وَبِجَوَاهِرِهَا الْغَالِيَة،

عَلَى مِنْضَدَةِ غُرْفَةِ النَّوْم، مِثْلَ نَبَاتِ صُفَّير؛
وَخَاوِيَةً مِنَ الأَفْكَار،
تُفْلِتُ مِنَ الْعَيْنَيْنِ الْمُضْطَرِبَتَيْن
نَظْرَةٌ غَامِضَةٌ شَاحِبَةٌ مِثْلَ الْغَسَق.

عَلَى السَّرِيرِ، يَتَمَدَّدُ الجِذْعُ الْعَارِي بِلاَ وَسَاوِس
فِي اكْتِمَالِ الْهِجْرَانِ الأَقْصَى
وَالرَّوْعَةِ السِّرِّيَّةِ وَالْجَمَالِ الْوَبِيل
الَّذِي مَنَحَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَه؛

جَوْرَبٌ وَرْدِيٌّ، مُوَشًّى بِأَرْكَانٍ ذَهَبِيَّة،
ظَلَّ عَلَى السَّاقِ كِذِكْرَى؛
وَحَامِلَةُ الْجَوَارِبِ، مِثْلَ عَيْنٍ سِرِّيَّةٍ تُومِض،

تُحَدِّقُ بِنَظَرَةٍ مُتَأَلِّقَةٍ كَالْمَاس.

وَالشَّكْلُ الْفَرِيدُ لِهَذِهِ الْعُزْلَة
وَلِصُورَةٍ شَخْصِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَفَاتِرَة،
تَكْشِفُ فِي عَيْنَيْنِ مُسْتَفِزَّتَيْنِ مِثْلَ وَضْعِهَا،
عَن حُبٍّ غَامِض،

عَن بَهْجَةٍ آثِمَةٍ وَاحْتِفَالاَتٍ غَرِيبَة
مَلِيئَةٍ بِالْقُبُلاَتِ الْجَهَنَّمِيَّة،
الَّتِي أَسْعَدَت سِرْبَ الْمَلاَئِكَةِ الأَشْرَار
السَّابِحِينَ فِي طَيَّاتِ السَّتَائِر؛

وَمَعَ ذَلِكَ، فَالْمَرْءُ يَرَى مِنَ النَّحَافَةِ الْمَمْشُوقَة
لِلْكَتِفِ ذِي الْمُحِيطِ الْمُتَنَافِر،
وَالْفَخْذِ شِبْهِ الْحَادِّ وَالْخَصْرِ الرَّشِيق
مِثْلَ حَيَّةٍ هَائِجَة،

أَنَّهَا مَا تَزَالُ حَقًّا شَابَّة! ـ وَرُوحُهَا الْحَانِقَة
وَأَحَاسِيسُهَا الَّتِي أَكَلَهَا السَّأَم
أَكَانَت مَفْتُوحَةً عَلَى الْقَطِيعِ الظَّامِئ
مِنَ الشَّهَوَاتِ الضَّالَّةِ الضَّائِعَة؟

وَالرَّجُلُ الْمُنْتَقِمُ الَّذِي لَم تَسْتَطِيعِي، وَأَنْتِ حَيَّة،
أَنْ تُشْبِعِيهِ، رَغْمَ كُلِّ الْحُبّ،
هَل أَشْبَعَ بِجَسَدِكِ الطَّيِّعِ الْهَامِد
شَهْوَته الشَّاسِعَة؟

أَجِيبِي، أَيَّتُهَا الْجُثَّةُ الآثِمَة! وَمِن ضَفَائِرِكِ الْخَشِنَة
وَهوَ يَرْفَعُكِ بِذِرَاعٍ مَحْمُوم،
قُولِي لِي، أَيَّتُهَا الرَّأسُ الرَّهِيبَةُ، أَعَلَى أَسْنَانِكِ الْبَارِدَة
أَلْصَقَ قُبُلاَتِ الْوَدَاعِ الأَخِيرَة؟

ـ بَعِيدًا عَنِ الْعَالَمِ الْهَزْلِيِّ، بَعِيدًا عَنِ الْجَمْعِ الآثِم،
بَعِيدًا عَنِ الْمَسْئُولِينَ الْفُضُولِيِّين،
فَلْتَنَامِي فِي سَلاَمٍ، نَامِي فِي سَلاَمٍ، أَيَّتُهَا الْمَخْلُوقَةُ الْغَرِيبَة،
فِي قَبْرِكِ السِّرِّيّ؛

رَجُلُكِ يَسْعَى فِي الْعَالَم، وَشَكْلُكِ الْخَالِد
يَسْهَرُ قُرْبَهُ عِنْدَمَا يَنَام؛
وَمِثْلُكِ ـ بِالتَّأكِيدِ ـ سَيَظَلُّ مُخْلِصًا لَك،
وَوَفِيًّا حَتَّى الْمَمَات.

١١١

نساءٌ ملعونات

رَاقِدَاتٍ عَلَى الرَّمْلِ مِثْلَ مَاشِيَةٍ مُتَأَمِّلَة،
يُدِرْنَ أَعْيُنَهُنَّ إِلَى أُفُقِ الْبَحْر،
أَقْدَامُهُنَّ الْبَاحِثَةُ عَنْ بَعْضِهَا وَأَيْدِيهِنَّ الْمُتَقَارِبَة
لَهَا مَفَاتِنُ فَاتِرَةٌ وَارْتِعَاشَاتٌ مَرِيرَة.

بَعْضُهُنَّ، مِمَّن قُلُوبُهُنَّ مُغْرَمَةٌ بِالْبَوْحِ الطَّوِيل،
فِي أَعْمَاقِ الأَجَمَاتِ حَيْثُ تُثَرْثِرُ الْجَدَاوِل،
يَتَهَجّينَ حُبَّ طُفُولَتِهِنَّ الْوَجِلَة
وَيَنْقُشْنَ الْغَابَةَ الْخَضْرَاءَ ذَاتَ الشُّجَيْرَاتِ الْفَتِيَّة؛

أُخْرَيَاتٌ، كَأَخَوَاتٍ يَمْشِينَ الْهُوَيْنَى بِوَقَار
خِلاَلَ الصُّخُورِ الْمَلِيئَةِ بِالأَطْيَاف،

حَيْثُ رَأَى سَانْت أَنْطُوَان[1]، مُنْبَثِقَةً كَالْحِمَم،
الأَثْدَاءَ الْعَارِيَةَ الْقُرْمُزِيَّةَ لإِغْوَائِه؛

وَهُنَاكَ، فِي وَمِيضِ الصَّمْغِ الْمُتَدَاعِي،
فِي الْجَوْفِ الصَّامِتِ لِلْمَغَارَاتِ الْوَثَنِيَّةِ الْقَدِيمَة
مَنْ يَدْعِينَكَ لِنَجْدَتِهِنَّ مِنْ حُمَّاهُنَّ الْعَاوِيَة،
يَا «بَاخُوس»[2]، يَا مُهَدْهِدَ النَّدَامَاتِ الْقَدِيمَة!

وَأُخْرَيَاتٌ، مِمَّن صَدْرُهُنَّ يُحِبُّ قُمْصَانَ الرُّهْبَان،
وَيُخْفِينَ سَوْطًا تَحْتَ ثِيَابِهِنَّ الطَّوِيلَة،
يَمْزِجْنَ، فِي الْغَابَةِ الْمُظْلِمَةِ وَاللَّيَالِي الْمُنْعَزِلَة،
زَبَدَ اللَّذَّةِ بِدُمُوعِ الآلاَم.

أَيَّتُهَا الْعَذْرَاوَاتُ، الشَّيَاطِينُ، الْمُسُوخ، الشَّهِيدَات،
أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْعَظِيمَةُ الْمُزْدَرِيَةُ لِلْوَاقِع،
الْبَاحِثَاتُ عَنِ اللاَّنِهَائِي، الْوَرِعَاتُ أَوِ الشَّبِقَات،
الْمُفْعَمَاتُ أَحْيَانًا بِالصَّرَخَاتِ، وَأَحْيَانًا بِالدُّمُوع،

(١) بطريرك للرُّهبان، عاش ما بين عامي ٢٥٠ و٣٥٦، مُعتزلاً في الصحراء. تروي سيرتُه الشائعة أنه قاتل الشياطين التي حرَّضته على التمرُّد والفِسق.
(٢) إله الخمر والنشوة عند الإغريق.

يَا مَنْ تَبِعَتكُنَّ رُوحِي إِلَى جَحِيمِكُن،

أَيَّتُهَا الأَخَوَاتُ الْبَائِسَاتُ، أُحِبُّكُنَّ بِقَدْرِ مَا أَرْثِي لَكُنّ،

عَلَى عَذَابَاتِكُنَّ الْكَئِيبَةِ، وَظَمَئِكُنَّ الَّذِي لاَ يَرْتَوِي،

وَقَوَارِيرِ الْحُبِّ الْمَلِيئَةِ بِقُلُوبِكُنَّ الْعَظِيمَة!

١١٢
الشَّقيقَتانِ الطّيّبتَان

الْفُجُورُ والْمَوْتُ فَتَاتَانِ مَحْبُوبَتَان،
سَخِيَّتَانِ بِالْقُبُلاَتِ عَامِرَتَانِ بِالْعَافِيَة،
خَاصِرَتُهُمَا دَائِمًا عَذْرَاءُ وَتَكْتَسِي بِالْخِرَق
وَتَحْتَ وَطْأَةِ الْعَمَلِ الأَبَدِيِّ لَم تُنْجِبَا أَبدًا.

وَبِالنِّسْبَةِ لِلشَّاعِرِ الْكَئِيبِ، عدُوِّ الْعَائِلَة،
نَدِيمِ الْجَحِيمِ، الْمُدَاهِنِ بِثَمَنٍ بَخْس،
فَالْقُبُورُ وَالْمَوَاخِيرُ تَكْشِفُ تَحْتَ خمَائِلِها
سَرِيرًا لَم يَقْرَبْه النَّدَمُ أَبدًا.

وَالتَّابُوتُ وَالْفِرَاشُ الْخِصْبَانِ بِالتَّجْدِيف
يُقَدِّمَانِ لَنَا، بِالتَّنَاوُبِ، كَشَقِيقَتَيْنِ طَيِّبَتَيْن،
مَلَذَّاتٍ رَهِيبَةً وَعُذُوبَةً مُرْعِبَة.

فَمَتَى تُرِيدُ أَنْ تَدْفِنَنِي، أَيُّهَا **الْفُجُورُ** ذُو الذِّرَاعَيْنِ الْقَذِرَتَيْن؟
وَأَيُّهَا **الْمَوْتُ**، يَا غَرِيمَه فِي الْمَفَاتِنِ، مَتَى سَتَأْتِي
لِتَغْرِسَ سَروَكَ الأَسْوَدَ فِي رَيَاحِينِهِ الْكَرِيهَة؟

١١٣
ينبُوعُ الدَّم

يَبْدُو لِي أَحْيَانًا أَنَّ دَمِيَ يَنْسَابُ فِي مَوْجَات،
مِثْلَ يَنْبُوعٍ فِي دَفقَاتٍ إِيقَاعِيَّة.
أَسْمَعُهُ جَيِّدًا مُنْسَابًا فِي غَمْغَمَةٍ طَوِيلَة،
لَكِنِّي أَتَفَحَّصُ نَفْسِي عَبَثًا بَحْثًا عَنِ الْجُرْح.

عبْرَ الْمَدِينَةِ، مِثْلَمَا فِي حَقْلٍ مُسَيَّج،
يَمْضِي، فَيُحَوِّلُ أَحْجَارَ الرَّصْفِ إِلَى جُزُرٍ صَغِيرَة،
وَيَرْوِي ظَمَأَ كُلِّ الْكَائِنَات،
وَيُلَوِّنُ كُلَّ مَكَانٍ فِي الطَّبِيعَةِ بِالأَحْمَر.

كَثِيرًا مَا طَلَبْتُ خُمُورًا قَوِيَّة
لِتُنِيمَ الرُّعْبَ الَّذِي يَأكُلُنِي طُوَالَ يَوْم؛
فَالْخَمْرُ تَجْعَلُ الْعَيْنَ أَصْفَى وَالأُذُنَ أَرْهَف!

بَحَثْتُ فِي الْحُبِّ عَنْ نَوْمٍ مَنْسِيّ؛
لَكِنَّ الْحُبَّ بِالنِّسْبَةِ لِي لَيْسَ سِوَى فِرَاشِ شَوْك
صُنِعَ لِمَنْحِ شَرَابٍ إِلَى هَذِهِ الْفَتَيَاتِ الْقَاسِيَات!

١١٤
صُورةٌ رَمزيَّة

هِي امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ وَذَاتُ عُنُقٍ حَافِل،

تَتْرُكُ شَعْرَهَا يَسْتَرْسِلُ فِي خَمْرِهَا.

مَخَالِبُ الْحُبِّ، وَسُمُومُ الْبَيْتِ الْمَشْبُوه،

تَنْزَلِقُ كُلُّهَا وَكُلُّهَا تَكِلُّ عَلَى جَرَانِيتِ بَشْرَتِهَا.

تَضْحَكُ لِلْمَوْتِ وَتَزْدَرِي الْفُجُور،

هَذَيْنِ الْوَحْشَيْنِ الَّلذَيْنِ احْتَرَمَت يَدَهُمَا،

اللَّتَينِ تَكْشِطَانِ وَتَحْصُدَانِ دَائِمًا،

فِي أَلْعَابِهِمَا المُدَمِّرَة، مَعَ ذَلِك،

الرَّوْعَةَ الْفَظَّةَ لِهَذَا الْجَسَدِ الرَّاسِخِ الْمُنْتَصِب.

تَمْشِي كَإِلَهَةٍ وَتَسْتَرْخِي كَسُلْطَانَة؛

وَلَدَيْهَا إِيمَانٌ مُحَمَّدِيٌّ باللَّذَّة،

وَإِلَى ذِرَاعَيْهَا الْمَفْتُوحَتَيْنِ، الْمُمْتَلِئَتَيْنِ بِثَدْيَيْهَا،

تَدْعُو بَعَيْنَيْهَا الْجِنْسَ الْبَشَرِيّ.

تَعْتَقِدُ، تَعْرِفُ، هَذِهِ الْعَذْرَاءُ الْعَقِيم
الضَّرُورِيَّةُ مَعَ ذَلِكَ لِمَسِيرَةِ الْعَالَم،
أَنَّ جَمَالَ الْجَسَدِ هُوَ مَوْهِبَةٌ سَامِيَة
تَنْتَزِعُ الْغُفْرَانَ عَنْ أَيِّ عَار.
تَجْهَلُ الْجَحِيمَ وَالْمَطْهَر،
وَعِنْدَمَا سَتَحِلُّ سَاعَةُ الدُّخُولِ فِي اللَّيْلِ الأَسْوَد،
سَتَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ الْمَوْت،
مِثْلَ طِفْلٍ وَلِيدٍ ـ بِلاَ كَرَاهِيَةٍ وَلاَ نَدَم.

١١٥

بياتريس

فِيمَا كُنْتُ أَشْكُو ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى الطَّبِيعَة،
فِي أَرْضٍ مِنْ رَمَادٍ، مُحْتَرِقَةٍ، بِلاَ خُضْرَة،
وَإِذْ كُنْتُ أَشْحَذُ، بِلاَ هُدًى وَلاَ بَصِيرَة،
خِنْجَرَ فِكْرِي بِبُطْءٍ عَلَى قَلْبِي،
رَأَيْتُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ غَيْمَةً قَاتِمَة
حُبْلَى بِعَاصِفَةٍ، تَحُطُّ عَلَى رَأسِي،
وَهيَ تَحْمِلُ قَطِيعًا مَنَ الشَّيَاطِينِ الْفَاجِرِين،
شَبِيهِينَ بِأَقْزَامٍ قَاسِينَ، غَرِيبِين.
يَتَمَلُّونَ وَهُم يَتَأَمَّلُونَنِي بِبُرُود،
وَمِثْلَ مَارَّةٍ عَلَى شَخْصٍ أَبْلَهَ يُدْهِشُهُم،
أَسْمَعُهُم يَضْحَكُونَ وَيَتَهَامَسُونَ فِيمَا بَيْنَهُم،
مُتَبَادِلِينَ الإِشَارَاتِ وَغَمَزَاتِ الأَعْيُن:

ـ «فَلْتَتَأَمَّلُوا عَلَى مَهَلٍ هَذِهِ الصُّورَةَ الْهَزْلِيَّة،

طَيْفَ هَاملِت هَذَا الَّذِي يُقَلِّدُ هَيْئَتَه،
النَّظْرَةُ حَائِرَةٌ وَالشَّعْرُ فِي الرِّيح.
أَلَيْسَ مُؤْسِفًا أَنْ نَرَى هَذَا الشَّخْصَ الْمَرِح،
هَذَا الصُّعْلُوكَ، هَذَا الْبَهْلَوَانَ الْمُتَبَطِّلَ، هَذَا الْمُضْحِك،
لأَنَّه يُجِيدُ بِصُورَةٍ فَنِّيَّةٍ أَدَاءَ دَوْرِه،
يُرِيدُ بِغِنَاءِ آلاَمِهِ أَنْ يُسَلِّي
النُّسُورَ وَالْجَدَاجِدَ وَالْيَنَابِيعَ وَالزُّهُور،
بَلْ حَتَّى لَنَا، نَحْنُ مُؤَلِّفِي هَذِهِ الْخِدَعِ الْقَدِيمَة،
يُرَتِّلُ عَاوِيًا خُطَبَه الْعَلَنِيَّةَ الْمُسْهَبَة؟»
كَانَ بِمَقْدُورِي (وَكِبْرِيَائِي بِارْتِفَاعِ الْجِبَال
يُشْرِفُ عَلَى الْغَيْمَةِ وَصُرَاخِ الشَّيَاطِين)
أَنْ أُدِيرَ رَأْسِي السَّامِيَةَ بِبَسَاطَةٍ،
إِنْ لَم أَرَ وَسْطَ قَطِيعِهِم الْفَاجِر،
جَرِيمَةً لَم تَدْفَع الشَّمْسَ إِلَى التَّهَاوِي!
فَمَلِيكَةُ قَلْبِي ذَاتُ النَّظْرَةِ الْفَرِيدَة،
كَانَت تَضْحَكُ مَعَهُم مِنْ ضِيقِي الْكَئِيب
وَتَنْثُرُ عَلَيْهِم أَحْيَانًا بِضْعَ مُدَاعَبَاتٍ قَذِرَة.

١١٦
رحلةٌ إلى سيثيريا

قَلْبِي، كَعُصْفُورٍ، كَانَ يُرَفْرِفُ فِي فَرَح
وَيُحَلِّقُ حُرًّا حَوْلَ الْجِبَال؛
كَانَت السَّفِينَةُ تَنْسَابُ تَحْتَ سَمَاءٍ بِلاَ غُيُوم؛
كَمَلاَكٍ سَكْرَانَ بِشَمْسٍ سَاطِعَة.

مَا هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الْحَزِينَةُ الْقَاتِمَة؟ ـ هِي «سِيثِيرِيَا»[١]،
كَمَا قَالُوا لَنَا، بَلَدٌ شَهِيرٌ فِي الأَغَانِي،
إلْدُورَادُو التَّافِهَةُ لِكُلِّ الصِّبْيَانِ القدَامَى.
انْظُرُوا، فَهي ـ فِي النِّهَايَةِ ـ أَرْضٌ بَائِسَة.

ـ جَزِيرَةُ الأَسْرَارِ الْعَذْبَةِ وَأَعْيَادِ الْقَلْب!
مُنْذُ الْقِدَمِ وَ«ڤينوس» الطَّيْفُ الرَّائِع
تُحَلِّقُ فَوْقَ بِحَارِهَا كَالأَرِيج،

(١) جزيرة بجنوب اليونان، اشتُهرت ـ في الآداب والفنون ـ باعتبارها بلد الحب والمتعة.

وَتُفْعِمُ النُّفُوسَ بِالْحُبِّ وَأَسْقَامِ الْعِشْق.

جَزِيرَةٌ جَمِيلَةٌ ذَاتُ رَيْحَانٍ أَخْضَرَ، مَلِيئَةٌ بِزُهُورٍ مُتَفَتِّحَة،
تُجِلُّهَا أَبَدًا جَمِيعُ الأُمَم،
حَيْثُ آهَاتُ الْقَلْبِ فِي الْعِشْق
تَدُورُ كَالبخُورِ عَلَى حَدِيقَةٍ مِنْ زُهُور

أَو كَالْهَدِيلِ الأَبَدِيِّ لِحَمَامَةٍ بَرِّيَّة!
ـ سِيثِيرِيَا لَيْسَت أَكْثَرَ مِنْ أَرْضٍ قَاحِلَة،
صَحْرَاءُ صَخْرِيَّةٌ تُنَغِّصُهَا صَرْخَاتٌ حَادَّة.
لَكِنَّنِي مَعَ ذَلِكَ لَمَحْتُ شَيْئًا فَرِيدًا!

لَيْسَ مَعْبَدًا فِي ظِلاَلِ الأَحْرَاج،
حَيْثُ الْكَاهِنَةُ الشَّابَّةُ، عَاشِقَةُ الزُّهُور،
كَانَت تَمْضِي، وَالْجَسَدُ يَفُورُ بِالأَسْرَارِ السَّاخِنَة
فَاتِحَةً ثَوْبَهَا لِلنَّسَائِمِ الْعَابِرَة؛

لَكِن فِيمَا كُنَّا نَسِيرُ بِحِذَاءِ الشَّاطِئِ الْقَرِيب
لِنُزْعِجَ الطُّيُورَ بِأَشْرِعَتِنَا الْبَيْضَاء،
رَأَيْنَا أَنَّه كَانَ مِشْنَقَةً بِثَلاَثِ أَذْرُع،
مُنْفَصِلَةً بِالأَسْوَدِ عَن السَّمَاءِ، مِثْلَ شَجَرَةِ سَرْو.

طُيُورٌ جَارِحَةٌ جَاثِمَةٌ عَلَى طَعَامِهَا
كَانَت تُدَمِّرُ بِاهْتِيَاجٍ جُثْمَانَ مَشْنُوقٍ نَاضِج،
غَارِسًا ـ كُلٌّ مِنْهُم ـ مِنْقَارَه الْمُلَوَّث، كَآلَة،
فِي كَلِّ الأَرْكَانِ الدَّامِيَةِ مِنْ هَذَا الْعَفَن؛

كَانَت الْعَيْنَانِ ثُقْبَيْنِ، وَمِنَ الْبَطْنِ الْمَبْقُورَة
كَانَت الأَمْعَاءُ الثَّقِيلَةُ تَنْدَفِقُ عَلَى الْفَخْذَيْن،
وَجلاَّدُوه، الْمُتْخَمُونَ بِمَلَذَّاتٍ بَشِعَة،
خَصَوْه تَمَامًا بِضَرْبَةِ مِنْقَار.

تَحْتَ الأَقْدَامِ، قَطِيعٌ غَيُورٌ مِنْ ذَوَاتِ الأَرْبَع،
وَالْخَطْمُ مَرْفُوعٌ، يَحُومُ وَيَطُوف؛
حَيَوَانٌ أَضْخَمُ كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي الْوَسَط
مِثْلَ جلاَّدٍ مُحَاطٍ بِمُسَاعِدِيه.

أَيُّهَا الْقَاطِنُ «سِيثِيرِيَا»، يَا ابْنَ سَمَاءٍ رَائِعَة،
فِي صَمْتٍ كُنْتَ تُعَانِي هَذِهِ الإِهَانَات
تَكْفِيرًا عَنْ مُعْتَقَدَاتِك الشَّائِنَة
وَآثَامٍ حَرَمَتْك مِنَ الْقَبْر.

أَيُّهَا الْمَشْنُوقُ الأَحْمَقُ، عَذَابَاتُكَ عَذَابَاتِي!
وَأُحِسُّ، لَدَى رُؤْيَةِ أَعْضَائِكَ الْمُتَمَاوِجَة،
بِالنَّهْرِ الطَّوِيلِ مِنْ مَرَارَةِ الْعَذَابَاتِ الْقَدِيمَة
يَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ، مِثْلَ قَيْءٍ، إِلَى فَمِي؛

أَمَامَك، أَيُّهَا الشَّيْطَانُ الْبَائِسُ ذو الذِّكْرَى الْغَالِيَة،
أَحْسَسْتُ بِكُلِّ الْمَنَاقِيرِ وَكُلِّ الأَفْوَاه
لِلْغِرْبَانِ الْوَاخِزَةِ وَالنُّمُورِ السَّوْدَاء
الَّتِي كَانَت تُحِبُّ كَثِيرًا فِي الْمَاضِي نَهْشَ لَحْمِي.

ـ السَّمَاءُ كَانَت سَاحِرَة، وَالْبَحْرُ كَانَ سَوِيًّا؛
مَعَ ذَلِك، فَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ بِالنِّسْبَةِ لِي أَسْوَدَ دَمَوِيًّا؛
وَا أَسَفَاه! فَكَفَّنْتُ قَلْبِي فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الرَّمْزِيَّة
مِثْلَمَا فِي كَفَنٍ كَثِيف.

فِي جَزِيرَتِكِ، يَا «ڤينوس»! لَم أَجِد شَيْئًا مُنْتَصِبًا
غَيْرَ مِشْنَقَةٍ رَمْزِيَّةٍ شَنَقَت صُورَتِي...
ـ آه! إِلَهِي! فَلْتَمْنَحْنِيَ الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَة
عَلَى تَأَمُّلِ قَلْبِي وَجَسَدِي بِلاَ اشْمِئْزَاز!

١١٧

الحُبُّ والجُمجُمَة

قاعدة قنديل قديم

«كيُوبيد» جَالِسٌ

عَلَى جُمْجُمَةِ الإِنْسَانِيَّة،

وَعَلَى هَذَا الْعَرْشِ يَنْفُثُ الْمُسْتَهْتِرُ بِمَرَح،

مَعَ الضَّحِكِ السَّفِيه،

فُقَاعَاتٍ مُسْتَدِيرَة

تَتَصَاعَدُ فِي الْهَوَاء،

كَأَنَّمَا لِتَنْضَمَّ إِلَى الْعَوَالِمِ

فِي أَعْمَاقِ الأَثِير.

الْكُرَةُ الْمُضِيئَةُ وَالْهَشَّة

تَنْطَلِقُ بِقُوَّة،

تُفَجِّرُ وَتَبْصُقُ رُوحَهَا النَّحِيلَةَ

مِثْلَ حُلمٍ ذَهَبِي.

أَسْمَعُ الْجُمْجُمَةَ، مَعَ كُلِّ فُقَّاعَة،

تَئِنُّ وَتَتَوَسَّل:

ـ «هَذِهِ اللُّعْبَةُ الْوَحْشِيَّةُ الْبَلْهَاء،

مَتَى سَتَنْتَهِي؟

لأَنَّ مَا يَنْثُرُهُ فِي الْهَوَاء

فَمُكَ الْقَاسِي،

أَيُّهَا الْوَحْشُ الْقَاتِل، هُوَ مُخِّي،

وَدَمِي وَلَحْمِي!».

تَمَــــرُّد

١١٨

إنكار سَان ـ بِيير

مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ اللَّهُ إِذَنْ بِهَذِهِ الْمَوْجَةِ مِنَ اللَّعَنَات
الَّتِي تَصَّاعَدُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى مَلاَئِكَتِهِ الأَعِزَّاء؟
كَطَاغِيَةٍ مُتْخَمٍ بِاللَّحْمِ وَالْخَمْر،
يَغْفُو عَلَى الصَّخَبِ الْعَذْبِ لِتَجْدِيفِنَا الْمُرِيع.

أَنَّاتُ الشُّهَدَاءِ وَالْمُعَذَّبِين
هِيَ ـ بِلاَ شَكٍّ ـ سِيمفونِيَّةٌ مُسْكِرَة،
طَالَمَا أَنَّ السَّمَاوَاتِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ الدَّمِ الَّذِي تُكَلِّفُه شَهَوَاتُهَا،
لَم تُشْفِ غَلِيلَهَا مِنْهُ بَعْد!

ـ آه! يَسُوع، فَلْتَتَذَكَّر حَدِيقَةَ الزَّيْتُون!
فَفِي بَسَاطَتِكَ صَلَّيْتَ رَاكِعًا
إِلَى مَنْ كَانَ فِي سَمَائِهِ يَضْحَكُ لِصَوْتِ الْمَسَامِير
الَّتِي يَغْرِسُهَا جَلاَّدُونَ سَفَلَةٌ فِي لَحْمِكَ الْحَيّ،

عِنْدَمَا رَأَيْتَه يَبْصُقُ عَلَى أُلُوهِيَّتِك
وَغْدَ الْحُرَّاسِ وَالْمَطَابِخ،
وَعِنْدَمَا أَحْسَسْتَ بِالشَّوْكِ يَغُوص
فِي جُمْجُمَتِكَ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا الإِنْسَانِيَّةُ الْهَائِلَة؛

وَالثِّقَلُ الرَّهِيبُ لِجَسَدِكَ الْمُحَطَّم
عِنْدَمَا بَسَطَ ذِرَاعَيْكَ الْمَمْدُودَتَيْن،
فَسَالَ دَمُكَ وَعَرَقُكَ مِنْ جَبِينِكَ الشَّاحِب،
وَعِنْدَمَا وَضَعُوكَ هَدَفًا أَمَامَ الْجَمِيع،

أَحَلُمْتَ بِهَذِهِ الأَيَّامِ الْمُشْرِقَةِ الْجَمِيلَة
عِنْدَمَا أَتَيْتَ لِتُحَقِّقَ الْوَعْدَ الأَبَدِيّ،
عِنْدَمَا وَطَأْتَ، وَأَنْتَ تَمْتَطِي حِمَارَةً رَقِيقَة،
الزُّهُورَ وَالسَّعَفَ الْمَنْثُورَ فِي الطُّرُقَات،

وَعِنْدَمَا، وَقَلْبُكَ مُفْعَمٌ بِالأَمَلِ وَالشَّجَاعَة،
لَفَحْتَ بِالسَّوْطِ بِكُلِّ قُوَّتِكَ هَؤُلاَءِ التُّجَّارَ الْحُقَرَاء،
عِنْدَمَا كُنْتَ سَيِّدًا؟ أَلَم يَخْتَرِق النَّدَم
جَنْبَكَ قَبْلَ الْحَرْبَةِ بِكَثِير؟

ـ بِالتَّأْكِيدِ ـ بِالنِّسْبَةِ لِي ـ كُنْتُ سَأَرْحَلُ رَاضِيًا
مِنْ عَالَمٍ لَيْسَ الْفِعْلُ فِيهِ شَقِيقَ الْحُلْم؛
فَلأَسْتَخْدِم السَّيْفَ وَلأَمُت بِالسَّيْف!
«سَان بِيير» أَنْكَرَ يَسُوع... وَحَسَنًا فَعَل!

١١٩

هَابِيلُ وقَابِيل

(١)

يَا جِنْسَ هَابِيل، فَلْتَنَم، وَلْتَشْرَب وَتَأكُل؛
فَاللهُ يَبْتَسِمُ لَكَ عِنْ رِضًى.

يَا جِنْسَ قَابِيل، فِي الطِّين
فَلْتَزْحَف وَلْتَمُت فِي بُؤْس.

يَا جِنْسَ هَابِيل، تَضْحِيَتُك
تُدَغْدِغُ أَنْفَ الْمَلاَك!

يَا جِنْسَ قَابِيل، أَلَن يَكُون
لِعَذَابِكَ نِهَايَةٌ أَبَدًا؟

يَا جِنْسَ هَابِيل، فَلْتَرَ بُذُورَك

وَقَطِيعَكَ يَنْمون جَيِّدًا؛

يَا جِنْسَ قَابِيلَ، أَمْعَاؤُك
تَعْوِي مِنَ الْجُوعِ مِثْلَ كَلْبٍ عَجُوز.

يَا جِنْسَ هَابِيل، فَلْتُدْفِئ كِرْشَك
عَلَى نَارِكَ الْبَطْرِيَرْكِيَّة؛

يَا جِنْسَ قَابِيل، فِي كَهْفِك
فَلْتَرْتَعِدْ مِنَ الْبَرْدِ، يَا ابْنَ آوَى الْبَائِس!

يَا جِنْسَ هَابِيلَ، فَلْتُحِبَّ وَلْتَتَكَاثَر!
فَحَتَّى ذَهَبُكَ يُنْجِبُ ذُرِّيَّة.

يَا جِنْسَ قَابِيل، وَالْقَلْبُ مُشْتَعِل،
فَلْتَحْذَرْ مِنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْكُبْرَى.

يَا جِنْسَ هَابِيل، تَكْبُرُ وَتَنْمُو
مِثْلَ حَشَرَاتِ الْغَابَة!

يَا جِنْسَ قَابِيل، عَلَى الطُّرُقَات
فَلْتُجَرْجِرْ عَائِلَتَكَ إِلَى الْيَأس.

(٢)

آه! يَا جِنْسَ هَابِيل، جُثَّتُك
سَتُخْصِبُ الأَرْضَ الْمُسْتَشِيطَةَ!

يَا جِنْسَ قَابِيل، مُهِمَّتُك
لَم تَتَحَقَّقْ بِصُورَةٍ مُرْضِيَة؛

يَا جِنْسَ هَابِيل، هَا هُوَ عَارُك:
النَّصْلُ انْهَزَمَ بِالْحَرْبَة!

يَا جِنْسَ قَابِيل، فَلْتَصْعَدْ إِلَى السَّمَاء،
وَلْتُطِحْ بِالرَّبِّ إِلَى الأَرْض!

١٢٠

ابتهالاتُ الشَّيطَان

يَا أَنْتَ، الأَعْلَمُ وَالأَجْمَلُ فِي الْمَلاَئِكَة،
خَانَكَ الرَّبُّ بِفِعْلِ الْقَدَرِ وَحُرِمْتَ مِنَ الْمَدِيح،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

يَا أَمِيرَ الْمَنْفَى، يَا مَن أُوذِي،
وَمَنْ تَنْتَصِبُ، عِنْدَ الْهَزِيمَةِ، أَقْوَى دَائِمًا،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَلِكُ الْعَظِيمُ لِلأَشْيَاءِ الْخَفِيَّة،
الْبَارِئُ الْمَأْلُوفُ لِلْعَذَابَاتِ الإِنْسَانِيَّة،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

يَا مَنْ، حَتَّى لِلْمَجْذُومِينَ وَالْمُحْتَقَرِينَ الْمَلْعُونِين،
تُعَلِّمُ بِالْحُبِّ مَذَاقَ الْفِرْدَوس،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِق عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

يَا مَنْ مِنَ الْمَوْتِ، عَاشِقِكَ الْقَدِيمِ الْقَوِيّ،
تُوَلِّدُ الأَمَلَ، ـ ذَلِكَ الأَبْلَهَ السَّاحِر!

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الَّذِي تَمْنَحُ الطَّرِيدَ تِلْكَ النَّظْرَةَ الْهَادِئَةَ الْمُتَرَفِّعَة
الَّتِي تَلْعَنُ الْحَشْدَ الْمُحِيطَ بِالْمِشْنَقَة،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الَّذِي تَعْرِفُ فِي أَيِّ رُكْنٍ مِنَ الأَرَاضِي الْحَاسِدَة
أَخفَى الرَّبُّ الْغَيُورُ الأَحْجَارَ الْكَرِيمَة،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

يَا مَنْ عَيْنُهُ الْبَصِيرَةُ تَعْرِفُ التِّرْسَانَةَ الْعَمِيقَة

حَيْثُ يَرْقُدُ مَدْفُونًا شَعْبُ الْمَعَادِنِ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

يَا مَنْ يَدُهُ الضَّخْمَةُ تُخْفِي السَّقْطَة
عَنِ السَّائِرِ فِي نَوْمِهِ الضَّالِّ عَلَى حَافَّةِ الْمَبْنَى،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الَّذِي تُلَطِّفُ، بِصُورَةٍ سِحْرِيَّةٍ، الْعِظَامَ الْعَجُوز
لِلْمَخْمُورِ الْمُتَأَخِّرِ الَّذِي دَهَسَتْهُ الْخُيُول،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الَّذِي تُعَلِّمُنَا مَزْجَ مِلْحِ الْبَارُودِ بِالْكِبْرِيت
مِنْ أَجْلِ التَّخْفِيفِ عَنِ الإِنْسَانِ الْهَزِيلِ الْمُتَأَلِّم،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الَّذِي تَضَعُ عَلامَتَكَ، أَيُّهَا الْمُتَوَاطِئُ الْبَارِع،
عَلَى جَبِينِ «كِرِيسُّوس» الْوَغْدِ الْقَاسِي،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الَّذِي تَضَعُ فِي عُيُونِ وَقُلُوبِ الْفَتَيَات
الإِيمَانَ بِالْجَرْحِ وَحُبَّ الْخِرَق،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

يَا عُكَّازَ الْمَنْفِيِّين، وَمِصْبَاحَ الْمُخْتَرِعِين،
نَجِيَّ الْمَشْنُوقِينَ وَالْمُتَآمِرِين،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

أَنْتَ الأَبُ الْمُخْتَارُ لِمَن طَرَدَهُم الأَبُ الرَّبّ
فِي سَوْرَةِ غَضَبِهِ مِنَ الْفِرْدَوْسِ الأَرْضِيّ،

أَيُّهَا الشَّيْطَانُ، فَلْتُشْفِقْ عَلَى بُؤْسِي الطَّوِيل!

صَلاَة

الْمَجْدُ وَالثَّنَاءُ لَكَ، أَيُّهَا الشَّيْطَانُ،
فِي أَعَالِي السَّمَاءِ، حَيْثُ هَيْمَنْتَ،

وَفِي أَعْمَاقِ الْجَحِيمِ، حَيْثُ تَحْلُمُ، مَهْزُومًا، فِي صَمْت!

فَلْتُؤَمِّنْ لِرُوحِي أَنْ تَرْقُدَ بِجَانِبِك،

ذَاتَ يَوْمٍ، تَحْتَ شَجَرَةِ الْمَعْرِفَةِ، سَاعَةَ أَنْ تَمُدَّ أَغْصَانَهَا

عَلَى جَبِينِكَ مِثْلَمَا عَلَى مَعْبَدٍ جَدِيد!

المَــوت



١٢١

مَوتُ المُحبّين

سَتكُونُ لَنَا أَسِرَّةٌ مُفْعَمَةٌ بِالأَرِيجِ الطَّفِيف،
وَأَرَائِكُ غَائِرَةٌ كَالْقُبُور،
وَزُهُورٌ غَرِيبَةٌ عَلَى الرُّفُوف،
تَتَفَتَّحُ مِنْ أَجْلِنَا تَحْتَ سَمَاوَاتٍ أَجْمَل.

مُتَنَافِسَيْنِ فِي اسْتِهْلاَكِ حَرَارَتِهِمَا الأَخِيرَة،
سَيُصْبِحُ قَلْبَانَا شُعْلَتَيْنِ شَاسِعَتَيْن،
تَعْكِسَانِ أَضْوَاءَهُمَا الْمُزْدَوَجَة
فِي رُوحَيْنَا، الْمِرْآتَيْنِ الشَّقِيقَتَيْن.

وَذَاتَ مَسَاءٍ مَجْبُولٍ مِنَ الْوَرْدِيِّ وَالأَزْرَقِ الرُّوحِيّ،
سَنَتَبَادَلُ وَمْضَةَ بَرْقٍ وَحِيدَة،
مِثْلَ آهَةٍ طَوِيلَةٍ، تَفِيضُ بِالْوَدَاع؛

وَفِيمَا بَعْدُ، سَيَأْتِي مَلاَكٌ، فِيمَا يَفْتَحُ الأَبْوَاب،
لِيُحْيِيَ، فِي إِخْلاَصٍ وَابْتِهَاج،
الْمَرَايَا الكَامِدَةَ وَالشُّعْلاَتِ الْخَامِدَة.

١٢٢

مَوتُ الفُقَـرَاء

هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي يُعَزِّي، وَا أَسَفَاه! وَيَمْنَحُ الْحَيَاة؛
هُوَ غَايَةُ الْحَيَاةِ، وَهوَ الأَمَلُ الْوَحِيد
الَّذِي يُثِيرُنَا وَيُسْكِرُنَا، مِثْلَ إِكْسِير،
وَيَمْنَحُنَا الْحَمِيَّةَ عَلَى الْمَسِيرِ حَتَّى الْمَسَاء؛

خِلاَلَ الْعَاصِفَةِ، وَالثُّلُوجِ، وَالْجَلِيد،
هُوَ الضِّيَاءُ الْمُرْتَعِش فِي أُفُقِنَا الْمُظْلِم؛
هُوَ الْفُنْدُقُ الشَّهِيرُ الْمَرْسُومُ عَلَى الْكِتَاب،
حَيْثُ يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَأْكُلَ، وَيَنَامَ، وَيَجْلِس؛

هُوَ مَلاَكٌ يُمْسِكُ بِأَصَابِعِهِ الْمغنَاطِيسِيَّة
النَّوْمَ وَمَوْهِبَةَ الأَحْلاَمِ الْمُذْهِلَة،
وَيُعِيدُ صُنْعَ سَرِيرِ الْفُقَرَاءِ وَالْعَرَايَا؛

هُوَ مَجْدُ الآلِهَةِ، وَمَخْزَنُ الْغِلاَلِ الرُّوحِيّ،

هُوَ كِيسُ نُقُودِ الْفَقِيرِ وَمَوْطِنُهُ الْقَدِيم،

هُوَ الرُّوَاقُ الْمَفْتُوحُ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَجْهُولَة!

١٢٣
مَوتُ الفنّانين

كَمْ مِنْ مَرَّةٍ يَنْبَغِي أَنْ أَهُزَّ أَجْرَاسِي الصَّغِيرَة
وأُقَبِّلَ جَبِينَكَ الْوَضِيعَ، أَيُّهَا الرَّسْمُ الْكَئِيب؟
لأُصِيبَ الْهَدَفَ، ذَا الطَّبِيعَةِ الْمَجَازِيَّة،
كَم أَفْقِدُ، يَا جُعْبَتِي، مِنْ رِمَاح؟

نَسْتَنْزِفُ رُوحَنَا فِي دَسَائِسَ بَارِعَة،
وَنَهْدِمُ الْكَثِيرَ مِنَ الْهَيَاكِلِ الثَّقِيلَة،
قَبْلَ تَأَمُّلِ الْكَائِنِ الْعَظِيم
الَّذِي تُفْعِمُنَا رَغْبَتُه الْجَهَنَّمِيَّةُ بِالنَّحِيب!

هُنَاكَ مَنْ لَم يَعْرِفُوا أَبَدًا مَعْبُودَهُم،
وَهَؤُلاَءِ النَّحَّاتُونَ الْمَلْعُونُونَ الْمَوْسُومُونَ بِالْعَار،
الَّذِينَ يَمْضُونَ فِي طَرْقِ صُدُورِهِم وَجِبَاهِهِم،

لَيْسَ لَدَيْهِم إِلاَّ أَمَلٌ وَحِيدٌ، «كَابِيتُول»[1] غَرِيبَةٌ وَقَاتِمَة!
هُوَ الْمَوْتُ، الَّذِي يُحَوِّمُ مِثْلَ شَمْسٍ جَدِيدَة،
مَا سَيَدْفَعُ أَزْهَارَ عُقُولِهِم إِلَى التَّفَتُّح!

(١) أحد تلال روما السّبعة، حيثُ كان الجنرالات المنتصرون يصعدُون بعد انتهاء المعركة.

١٢٤

نهَايةُ النَّهَار

تَحْتَ ضِيَاءٍ شَاحِب

تَرْكُضُ وَتَرْقُصُ وَتَتَلَوَّى بِلاَ سَبَب

الْحَيَاةُ، صَفِيقَةً صَاخِبَة.

وَأَيْضًا، مَا إِنْ يَرْتَقِي

اللَّيْلُ الشَّهْوَانِيُّ الأُفُق،

مُشْبِعًا كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْجُوع،

مَاحِيًا كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْعَار،

حَتَّى يَقُولَ الشَّاعِرُ لِنَفْسِه: «أَخِيرًا!

رُوحِي، شَأنَ فَقَرَاتِي،

تَلْتَمِسُ بِلَهْفَةٍ الرَّاحَة؛

وَالْقَلْبُ مُفْعَمٌ بِالْخَوَاطِرِ الْكَئِيبَة،

أَمْضِي لأَنَامَ عَلَى ظَهْرِي
وَأَلْتَفَّ فِي سَتَائِرِك،
أَيَّتُهَا الظُّلُمَاتُ الْمُنْعِشَة!»

١٢٥

حُلمُ شَخص فُضُولي

إِلى ف. ن.[١]

أَتَعْرِفُ، مِثْلِي، الأَلَمَ الْعَذْب،
وَتَجْعَلُ الآخَرِينَ يَقُولُونَ عَنْكَ: «آه! يَا لَلرَّجُلِ الْفَرِيد!»
ـ كُنْتُ أَمْضِي إِلَى الْمَوْت. وَفِي رُوحِي الْعَاشِقَة،
شَهْوَةٌ مَمْزُوجَةٌ بِالرُّعْبِ، مَرَضٌ خُصُوصِيّ؛

عَذَابٌ وَأَمَلٌ حَيٌّ، بِلاَ مِزَاجٍ مُتَمَرِّد.
وَكُلَّمَا كَانَت السَّاعَةُ الرَّمْلِيَّةُ الْمَشْئُومَةُ تُفْرِغُ نَفْسَهَا،
كَانَ عَذَابِي يَزْدَادُ شَرَاسَةً وَعُذُوبَة؛
وَكَانَ قَلْبِي يَنْقَطِعُ عَنِ الْعَالَمِ الْعَادِيّ.

كُنْتُ كَالطِّفْلِ الشَّرِهِ لِلاسْتِعْرَاضَات،
الْكَارِهِ لِلسِّتَارَةِ كَمَنْ يَكْرَهُ الْحَاجِز...
أَخِيرًا تَكَشَّفَتِ الْحَقِيقَةُ الْبَارِدَة:

---

(١) هو فيليب نادار، المصوّر الفوتوغرافيّ الشهير في حقبة «بودلير»، وصديقه.

كُنْتُ مَيِّتًا بِلاَ مُفَاجَأَة، وَالْفَجْرُ الرَّهِيب
كَانَ يَلُفُّنِي. ـ وَمَاذَا! أَهَذَا كُلُّ شَيْء؟
كَانَت السِّتَارَةُ قَد رُفِعَت وَكُنْتُ مَا أَزَالُ أَنْتَظِر.

١٢٦

الرِّحلَة

إلى مكسيم دي كام[١]

(١)

بِالنِّسْبَةِ لِلطِّفْلِ، الْمُحِبِّ لِلْخَرَائِطِ وَالنُّقُوش،
فَالْكَوْنُ مُعَادِلٌ لِشَهِيَّتِهِ الْوَاسِعَة.
آه! كَمِ الْعَالَمُ كَبِيرٌ عَلَى ضَوْءِ الْمَصَابِيح!
وَفِي عُيُونِ الذِّكْرَى كَم هُوَ صَغِير!

ذَاتَ صَبَاحٍ نَرْحَلُ، وَالرَّأسُ مُفْعَمَةٌ بِاللَّهِيب،
وَالْقَلْبُ مَغْمُومٌ بِالضَّغِينَةِ وَالرَّغَبَاتِ الْمَرِيرَة،
وَنَمْضِي، مُقْتَفِينَ إِيقَاعَ الْمَوْج،
مُهَدْهِدِينَ لاَ نِهَائِيَّتِنَا عَلَى نِهَائِيَّةِ الْبِحَار:

الْبَعْضُ مُبْتَهِجُونَ بِالابْتِعَادِ عَنْ مَوْطِنٍ كَرِيه؛

---

(١) كاتبٌ وصحفيّ، صديق «لبودلير»، له كتاباتٌ في أدب الرحلات.

آخَرُون، عَن رُعْبِ مِهَادِهِم، وَبَعْضٌ آخَر،
مُنَجِّمُونَ غَرِقُوا فِي عُيُونِ امْرَأَة،
سِيرسِيه[1] الطَّاغِيَةِ ذَاتِ الْعُطُورِ الْخَطِرَة.

وَحَتَّى لاَ يَتَحَوَّلُوا إِلَى حَيَوَانَاتٍ، يَسْكَرُون
بِالْفَضَاءِ وَالضِّيَاءِ وَالسَّمَاوَاتِ الْمُشْتَعِلَة؛
وَالثَّلْجُ الَّذِي يَتَآكَلُهُم، وَالشُّمُوسُ الَّتِي تُلَوِّنُهُم بِالنُّحَاسِي،
تَمْحُو بِبُطْءٍ عَلاَمَاتِ الْقُبُلاَت.

لَكِنَّ الرَّحَّالَةَ الْحَقِيقِيِّينَ هُم أُولَئِكَ الَّذِينَ يَرْتَحِلُون
مِنْ أَجْل الارْتِحَال؛ بِقُلُوبٍ خَفِيفَةٍ، شَبِيهَةٍ بِالْبَالُونَات،
لاَ يَبْتَعِدُونَ أَبَدًا عَنْ قَدَرِهِم،
وَبِدُونِ مَعْرِفَةِ السَّبَبِ، دَائِمًا مَا يَقُولُونَ: هَيَّا!

أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَّخِذُ رَغَبَاتُهُم شَكْلَ الْغُيُوم،
وَيَحْلُمُون، كَأَحَدِ مُجَنَّدِي الْمدْفَعِيَّة،
بِشَهَوَاتٍ شَاسِعَةٍ، مُتَغَيِّرَةٍ، مَجْهُولَة،
لَم يَعْرِف الْعَقْلُ الإِنْسَانِيُّ لَهَا اسْمًا أَبَدًا!

(٢)

نَحْنُ نُقَلِّدُ، أَيُّهَا الرُّعْبُ! لُعْبَةَ الدَّوَّامَةِ وَالْكُرَة

---

(١) ساحرة «**الأوديسا**» التي حوّلت رفاق عوليس إلى حيوانات، قبل أن تعيدَهم إلى حالتهم الأولى.

فِي رَقْصَتِهِمَا وَقَفزَاتِهِمَا؛ فَحَتَّى فِي نَوْمِنَا
يُعَذِّبُنَا وَيَطْوِينَا الْفُضُول،
مِثْلَ مَلاَكٍ قَاسٍ جَلَدَتْهُ الشُّمُوس.

مَصِيرٌ فَرِيدٌ فِيهِ تَتَبَدَّلُ الْغَايَة،
وَطَالَمَا أَنَّنَا فِي لاَمَكَان، فَرُبَّمَا فِي أَيِّ مَكَان!
حَيْثُ الإِنْسَانُ، الَّذِي لاَ يَكِلُّ أَمَلُهُ أَبَدًا،
يَرْكُضُ دَائِمًا مِثْلَ مَجْنُونٍ بَحْثًا عَنِ الرَّاحَة!

رُوحُنَا ثُلاَثِيَّةُ الصَّوَارِي بَاحِثَةٌ عَنْ إِيكَارِي[1]؛
صَوْتٌ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْجِسْر: «فَلْتَفْتَحِ الْعَيْن!»
صَوْتٌ مِنْ قَاعِدَةِ الصَّارِي، مُتَوَقِّدٌ وَمَجْنُونٌ، يَصْرُخ:
«الْحُب.. الْمَجْد.. السَّعَادَة!» الْجَحِيم! صُخور!

كُلُّ جَزِيرَةٍ أَشَارَت مِنْ طَرَفِ رَجُلِ الْمُرَاقَبَة
هِي «إِلْدُورَادُو» مَوْعُودَةٌ مِنَ الْقَدَر؛
وَالْخَيَالُ الَّذِي يَنْصِبُ عَرْبَدَتَه

(١)إشارة إلى «إيكاري»، المدينة الطوباوية التي دار حولها كتاب «رحلة إلى إيكاري»، «لإتيين كابيه»، مُنظِّر الشيوعيّة الطوباوية، حيثُ عَرَف الكتاب نجاحًا كبيرًا لدى صدوره عام ١٨٤٠

لاَ يَجِدُ سِوَى صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ فِي ضَوْءِ الصَّبَاح.

يَا لِلْعَاشِقِ الْبَائِسِ لِلْبُلْدَانِ الْخَيَالِيَّة!
أَيَنْبَغِي وَضْعُه فِي الْحَدِيدِ، أَم رَمْيُه فِي الْبَحْر،
هَذَا الْبَحَّارِ الْمَخْمُورِ، مُخْتَرِعِ الأَمْرِيكَات
الَّذِي يَزِيدُ وَهْمُه اللُّجَّةَ مَرَارَة؟

هَكَذَا الْمُتَشَرِّدُ الْعَجُوزُ، السَّائِرُ فِي الأَوْحَال،
يَحْلُم، وَأَنْفُه شَامِخَةٌ، بِفَرَادِيسَ رَائِعَة؛
عَيْنُهُ الْمَسْحُورَةُ تَكْتَشِفُ «كَابُو»[1]
فِي كُلِّ مَكَانٍ تُضِيءُ فِيهِ شَمْعَةٌ كُوخًا.

(٣)

أَيُّهَا الرَّحَّالَةُ الْمُدْهِشُون! أَيَّةُ حِكَايَاتٍ نَبِيلَة
نَقْرَأُهَا فِي عُيُونِكُم الْغَائِرَةِ مِثْلَ الْبِحَار!
فَلْتَعْرِضُوا لَنَا جَوَاهِرَ ذِكْرَيَاتِكُم الثَّرِيَّة،
هَذِهِ الْحُلِيِّ الرَّائِعَةَ، الْمَجْبُولَةَ مِنْ نُجُومٍ وَأَثِير.

نُرِيدُ السَّفَرَ بِلاَ بُخَارٍ وَلاَ شِرَاع!

(١) مدينة إيطاليّة قديمة اشتهرت بالملذّات، على عصر «هانيبال».

وَلإِبْهَاجِ ضَجَرِ سُجُونِنَا،
فَلْتَمُرَّ عَلَى أَرْوَاحِنَا، الْمَبْسُوطَةِ كَالْقُمَاش،
ذِكْرَيَاتُكُم الَّتِي تُؤَطِّرُهَا الآفَاق.

فَلْتَقُولُوا، مَاذَا رَأَيْتُم؟

(٤)

«رَأَيْنَا نُجُومًا
وَأَمْوَاجًا؛ رَأَيْنَا أَيْضًا رِمَالا؛
رَغْمَ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّدَمَاتِ وَالْكَوَارِثِ الْمُفَاجِئَة،
فَكَثِيرًا مَا أَصَابَنَا الضَّجَرُ، كَمَا هُنَا.

مَجْدُ الشَّمْسِ عَلَى الْبَحْرِ الْبَنَفْسَجِي،
مَجْدُ الْمُدُنِ فِي الشَّمْسِ الْغَارِبَة،
كَانَ يُشْعِلُ فِي قُلُوبِنَا شَوْقًا مُتَّقِدًا
لِلْغَوْصِ فِي سَمَاءٍ ذَاتِ انْعِكَاسَاتٍ فَاتِنَة.

الْمُدُنُ الأَغْنَى، الْمَشَاهِدُ الطَّبِيعِيَّةُ الأَعْظَم،
لَمْ تَكُن لَهَا أَبَدًا الْجَاذِبِيَّةُ الْغَامِضَة
لِتِلْكَ الَّتِي صَنَعَتْهَا الصُّدْفَةُ بِالْغُيُوم.
وَدَائِمًا مَا تَدْفَعُنَا الرَّغْبَةُ إِلَى الْقَلَق!

ـ وَالْمُتْعَةُ تَمْنَحُ الرَّغْبَةَ قُوَّة،
الرَّغْبَةَ، تِلْكَ الشَّجَرَةَ الْقَدِيمَةَ الَّتِي تَسْتَخْدِمُ اللَّذَّةَ كَسِمَاد،
فَحَتَّى لَوْ كَانَ لِحَاؤُكَ يَزْدَادُ سُمْكًا وَيَجِفّ،
فَأَغْصَانُكَ تُرِيدُ رُؤْيَةَ الشَّمْسِ عَنْ قُرْبٍ أَكْبَر!
أَستَكْبُرِينَ دَائِمًا، أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ الأَكْثَرُ رُسُوخًا
مِنَ السَّرْو؟ ـ مَعَ ذَلِكَ جَمَعْنَا، بِعِنَايَةٍ،
بَعْضَ التَّخْطِيطَاتِ لأَلْبُومِكُم الشَّرِه،
أَيُّهَا الأَشِقَّاءُ الَّذِينَ يَرَوْنَ كُلَّ مَا يَأتِي مِنَ الْبَعِيدِ جَمِيلاً تَمَامًا!

قَدَّمْنَا التَّحِيَّةَ لِمَعْبُودَاتٍ ذَاتِ خَرَاطِيم أَفْيَال؛
لِعُرُوشٍ مُزَيَّنَةٍ بِجَوَاهِرَ وَامِضَة؛
لِقُصُورٍ مُتْقَنَةٍ سَتكُونُ عَظَمَتُهَا الْخُرَافِيَّة
حُلْمًا مُدَمِّرًا لِرِجَالِ بُنُوكِكُم؛

مَلاَبِسُ تُمَثِّلُ سُكْرًا لِلْعُيُون؛
نِسَاءٌ أَسْنَانُهُنَّ وَأَظَافِرُهُنَّ مُلَوَّنَة،
وَحُكَمَاءُ مُشَعْوِذُون تُدَاعِبُهُم الأَفْعَى».

(٥)

وَمَاذَا، مَاذَا أَيْضًا؟

(٦)

«أَيَّتُهَا الْعُقُولُ الطُّفُولِيَّة!

حَتَّى لاَ نَنْسَى الشَّيْءَ الأَسَاسِيّ،
رَأَيْنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَدُونَ الْبَحْثِ عَنْه،
مِنْ أَعْلَى حَتَّى أَسْفَل السُّلَّمِ الْقَاتِل،
الْمَشْهَدَ الْمُمِلَّ لِلْفُجْرِ الأَبَدِيّ:

الْمَرْأَةُ، الْعَبْدُ الدَّنِيءُ، الْمُتَعَجْرِفَةُ الرَّعْنَاء،
الْعَابِدَةُ لِنَفْسِهَا بِلاَ ضَحِكٍ الْعَاشِقَةُ لِنَفْسِهَا بِلاَ تَقَزُّز؛
وَالرَّجُلُ، الطَّاغِيَةُ النَّهِمُ، الدَّاعِرُ، الْقَاسِي وَالْجَشِع،
عَبْدُ الْعَبْدِ وَسَيْلٌ مِنَ الْقَذَارَة؛

الْجَلاَّدُ الْمُسْتَمْتِعُ، وَالضَّحِيَّةُ الْمُتَأَوِّه،
الْحَفْلُ الْمَتَبَّلُ وَالْمُعَطَّرُ بِالدَّم؛
سُمُّ السُّلْطَةِ الَّذِي يُوهِنُ الطَّاغِيَة،
وَالشَّعْبُ الْعَاشِقُ لِلسَّوْطِ الْمُتَوَحِّش؛

أَدْيَانٌ كَثِيرَةٌ مُشَابِهَةٌ لِدِينِنَا،
كُلُّهَا يَرْتَقِي إِلَى السَّمَاءِ؛ وَالْقَدَاسَة،
مِثْلَمَا فِي فِرَاشٍ مِنْ رِيشٍ يَتَمَرَّغُ شَخْصٌ مُرْهَف،
تَبْحَثُ فِي الْمَسَامِيرِ وَعُرْفِ الْعُنُقِ عَنِ اللَّذَّة؛

وَالإِنْسَانِيَّةُ الثَّرْثَارَةُ، سَكْرَى بِعَبْقَرِيَّتِهَا، وَحَمْقَاء،
الآنَ كَمَا كَانَت فِي الْمَاضِي،
تَصْرُخُ إِلَى اللهِ، فِي عَذَابِهَا الرَّهِيب:
«يَا قَرِينِي، يَا سَيِّدِي، إِنَّنِي أَلْعَنُك!»

وَأَقَلُّ عُشَّاقِ الْجُنُونِ غَبَاءً، وَجُرأَةً،
يَتْرُكُونَ الْقَطِيعَ الْعَظِيمَ فِي حَظِيرَةِ **الْقَدَر**،
وَيَجِدُونَ مَلْجَأَهُم فِي الأَفْيُونِ الْهَائِلِ!
ـ هَكَذَا هُوَ التَّقْرِيرُ الأَبَدِيُّ عَنِ الْكَوْنِ الْخَارِجِيّ».

(٧)

مَعْرِفَةٌ مَرِيرَةٌ، تِلْكَ الَّتِي يَسْتَمِدُّهَا الْمَرْءُ مِنَ السَّفَر!
فَالْعَالَمُ، الرَّتِيبُ وَالصَّغِيرُ، الْيَوم،
يُرِينَا صُورَتَنَا بِالأَمْسِ، وَغَدًا، وَدَائِمًا:
وَاحَةٌ مِنَ الرُّعْبِ فِي صَحْرَاءَ مِنَ الضَّجَر!

أَيَنْبَغِي الرَّحِيل؟ أَم الْبَقَاء؟ إِن اسْتَطَعْتَ الْبَقَاءَ، فَلْتَبْق؛
وَلْتَرْحَل، إِنْ كَانَ ضَرُورِيًّا. أَحَدُهُم يَرْكُض، وَالآخَرُ يَكْمُن
لِمُخَادَعَةِ الْعَدُوِّ الْيَقِظِ الْمُمِيت،
الزَّمَن! هُنَاك، وَا أَسَفَاه! الرَّاكِضُونَ بِلاَ هَوَادَة،

مِثْلَ الْيَهُودِيِّ التَّائِهِ وَمِثْلَ الْحَوَارِيِّين،
الَّذِين لاَ يَكْفِيهِم شَيْءٌ، لاَ عَرَبَةٌ وَلاَ سَفِينَة،
لِلْهَرَبِ مِنْ هَذَا الْمُصَارِعِ الدَّنِيءِ؛ وَهُنَاكَ آخَرُون
يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَقْتُلُونَ دُونَ مُبَارَحَةِ مَهْدِهِم.

وَحِينَمَا سَيَضَعُ فِي النِّهَايَةِ قَدَمَه عَلَى عَمُودِنَا الْفِقَرِي،
سَنَمْلِكُ الأَمَلَ وَنَصِيح: إِلَى الأَمَام!
وَمِثْلَمَا فِيمَا مَضَى رَحَلْنَا إِلَى الصِّين،
وَالْعُيُونُ مُحْدِّقَةٌ فِي الْبَحْرِ وَالشَّعْرُ فِي الرِّيح،

سَنُقْلِعُ عَلَى بَحْرِ الظُّلُمَات
بِقَلْبٍ مُبْتَهِجٍ لِمُسَافِرٍ شَاب.
فَلْتُنْصِتُوا إِلَى هَذِهِ الأَصْوَاتِ، السَّاحِرَةِ الْجَنَائِزِيَّة،
الَّتِي تُغَنِّي: «مِنْ هُنَا! يَا مَنْ تُرِيدُون

أَكْلَ اللُّوتَسِ الْمُعَطَّر! فَهُنَا نَجْنِي
الْفَوَاكِهَ الإِعْجَازِيَّةَ الَّتِي يَجُوعُ لَهَا قَلْبُكُم؛
تَعَالَوا اسْكَرُوا بِالْعُذُوبَةِ الْغَرِيبَة
لِهَذَا الأَصِيلِ الَّذِي لاَ يَنْتَهِي أَبَدًا!»

مِنَ النَّبْرَةِ الْمَعْهُودَةِ نَكْتَشِفُ الطَّيْف؛
هُنَاكَ صَدِيقُنَا بِيلاد[1] يَمُدُّ ذِرَاعَيْهِ لَنَا.
«لإِنْعَاشِ قَلْبِكَ فَلْتَسْبَح إِلَى حَبِيبَتِكَ إِليكْتِرَا!»
ذَلِكَ مَا تَقُولُه مَنْ قَبَّلْنَا رُكْبَتَيْهَا فِي الْمَاضِي.

٨

أَيُّهَا الْمَوْتُ، أَيُّهَا الْقُبْطَانُ الْعَجُوزُ، هُوَ الْوَقْت! فَلْتَرْفَعِ الْمِرْسَاة!
هَذِهِ الْبِلادُ تُضْجِرُنَا، أَيُّهَا الْمَوْتُ! فَلْتُبْحِر!
فَإِذَا مَا كَانَت السَّمَاءُ وَالْبَحْرُ سَوْدَاوَيْنِ كَالْحِبْر،
فَقُلُوبُنَا الَّتِي تَعْرِفُهَا مَلِيئَةٌ بِالأَشِعَّة!

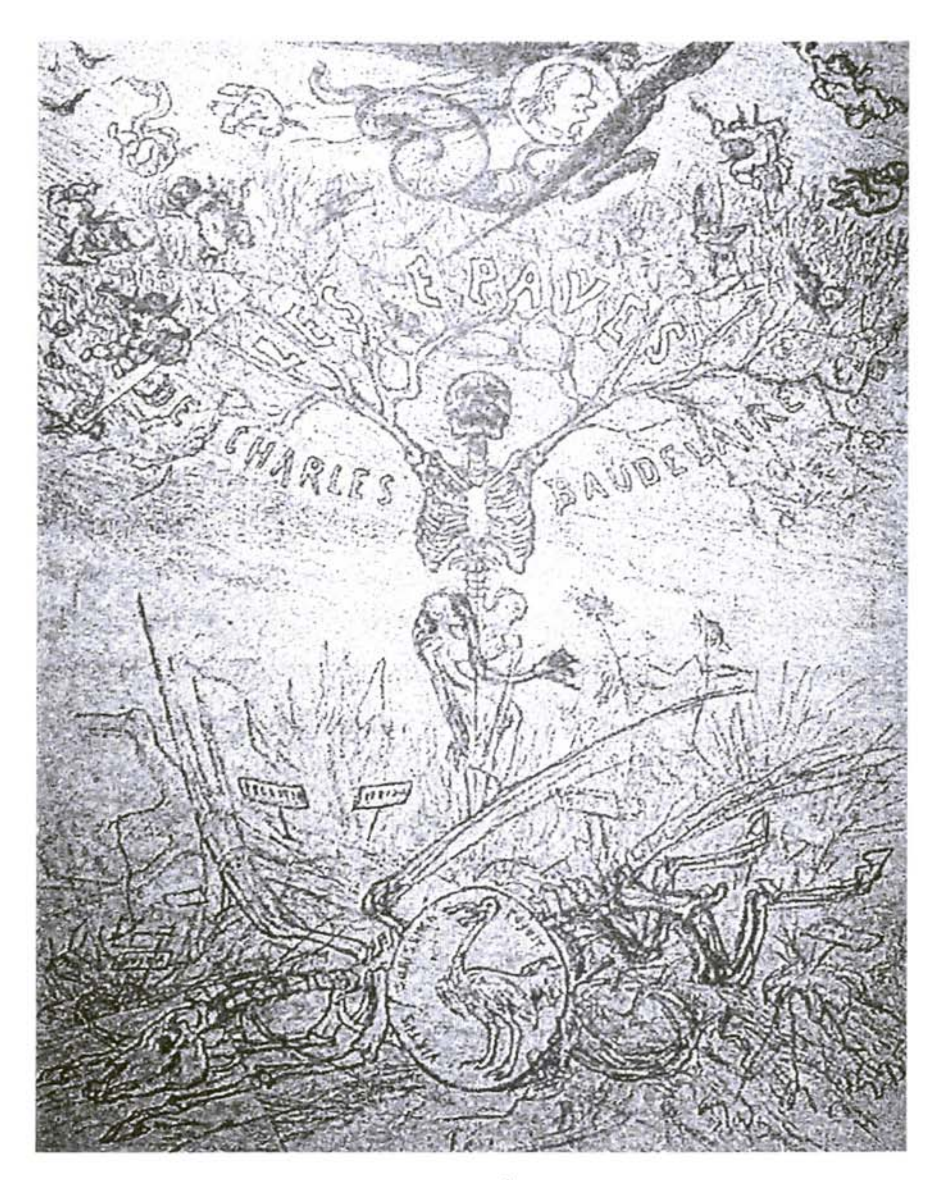
فَلْتَسْكُب لَنَا سُمَّكَ لِيُنْعِشَنَا!
فَنَحْنُ نُرِيدُ، وَهَذِهِ النَّارُ تُحْرِقُ عُقُولَنَا،
أَنْ نَغُوصَ فِي قَاعِ الْهَاوِيَةِ، أَوِ الْجَحِيمِ، أَوِ السَّمَاءِ، مَا الْفَرْق؟
فِي قَاعِ الْمَجْهُولِ لِنَعْثُرَ عَلَى الْجَدِيد!

---

(١) صديق، وابن عمّ «أوريست».

البقَــايَــا

(١٨٦٦)



غلاف الطبعة الأولى من « البقايا» لبودلير

تنبيه من الناشر

هذا الديوان مؤلَّفٌ من مقطوعات شعرية معظمها مُدانٌ أو غير منشور، والتي لم يعتقد السّيد «شارل بودلير» أنه من الضروريّ ضمّها إلى الطبعة النهائيَّة من «**أزهار الشّرّ**».

وذلك ما يفسّر عنوانها.

وقد قدّم السيد «شارل بودلير» هذه القصائد منحةً ـ بلا تحفظ ـ إلى صديق قرَّر نشرها، لأنه يأمل في الاستمتاع بها، ولأنه في سنٍّ يحب المرء فيه مشاركة أحاسيسه مع أصدقائه الذين يُضفي عليهم فضائله.

وسيكون الناشر، في الوقت نفسه، منتبهًا ـ فيما يتعلق بهذه الطبعة ـ للمائتين وستين قراءة المحتمَلة، والتي تمثل تقريبًا ـ لناشرها التطوعي ـ الجمهور الأدبيّ في فرنسا، طالما أن الحيوانات قد اغتصبت عن عمد الكلام عن البشر.

١

غُروبُ الشَّمس الرُّومَانتيكيَّة

كَم الشَّمْسُ جَمِيلَةٌ عِنْدَمَا تُشْرِقُ غَضَّةً تَمَامًا،
وَتُطْلِقُ إِلَيْنَا تَحِيَّةَ الصَّبَاحِ مِثْلَ انْفِجَار!
ـ سَعِيدٌ ذَلِكَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بِحُبٍّ
تَحِيَّةَ غُرُوبِهَا الأَرْوَعَ مِنْ حُلْم!

أَتَذَكَّر!... رَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ، الزَّهْرَةَ، وَالنَّبْعَ، وَالأُخْدُودَ،
وَهوَ يَتَفَتَّحُ تَحْتَ عَيْنِهَا مِثْلَ قَلْبٍ يَخْفِق...
ـ فَلْنَرْكُض إِلَى الأُفُقِ، تَأَخَّرَ الْوَقْت! فَلْنَرْكُض بِسُرْعَة،
لِنَلْتَقِطَ عَلَى الأَقَلّ شُعَاعًا مَائِلاً!

لَكِنَّنِي أَقْتَفِي سُدًى الإِلَهَ الرَّاحِل،
فَاللَّيْلُ الْقَاهِرُ يُقِيمُ إِمْبَرَاطُورِيَّتَه،
مُظْلِمَةً، رَطْبَةً، جَنَائِزِيَّةً، وَمَلأَى بِالرَّجْفَات؛

رَائِحَةُ الْقَبْرِ تَسْبَحُ فِي الظُّلُمَات،
وَقَدَمِي الْخَائِفَةُ تَهْرِسُ، عَلَى حَافَّةِ الْمُسْتَنْقَع،
ضَفَادِعَ غَيْرَ مَنْظُورَةٍ وَحَلَزُونَاتٍ بَارِدَة.

قَصَائدُ مُدانَة

محذُوفَة من «أزهار الشَّر»

٢

ليسبُوس[١]

يَا أُمَّ الأَلْعَابِ اللاَّتِينِيَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الإِغْرِيقِيَّة،
لِيسْبُوس، حَيْثُ الْقُبُلاَتُ، الْفَاتِرَةُ أَو الْفَرِحَة،
السَّاخِنَةُ كَالشُّمُوسِ، النَّدِيَّةُ كَالْبَطِّيخ،
تُوَشِّي اللَّيَالِي وَالنَّهَارَاتِ الرَّائِعَة؛
يَا أُمَّ الأَلْعَابِ اللاَّتِينِيَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الإِغْرِيقِيَّة،

يَا لِيسْبُوس، حَيْثُ الْقُبُلاَتُ كَالشَّلاَّلاَتِ
الَّتِي تَسَّاقَطُ بِلاَ خَوْفٍ فِي هَاوِيَةٍ بِلاَ قَرَار،
وَتَجْرِي، مُتَأَوِّهَةً مُهَمْهِمَةً بِلاَ انْتِظَام،
عَاصِفَةً وَسِرِّيَّةً، مُحْتَشِدَةً وَغَائِرَة؛
يَا لِيسْبُوس، حَيْثُ الْقُبُلاَتُ كَالشَّلاَّلاَت!

---

(١) جزيرة يونانيّة، ارتبط اسمها في التاريخ الحضاريّ بالحب «المِثلي» لدى النساء.

يَا لِيسْبُوس، حَيْثُ تَنْجَذِبُ كُلُّ فِرِينِيه[1] إِلَى قَرِينَتِهَا،
حَيْثُ لَم تَبْقَ تَنْهِيدَةٌ أَبَدًا بِلاَ صَدًى،
وَالنُّجُومُ تُعْجَبُ بِكَ مِثْلَمَا بِبَافُوس[2]،
وَيُمْكِنُ لِڤِينوس عَنْ حَقٍّ أَنْ تَغَارَ مِنْ سَافُّو[3]!
يَا لِيسْبُوس، حَيْثُ تَنْجَذِبُ كُلُّ فِرِينِيه إِلَى قَرِينَتِهَا،

لِيسبُوس، يَا أَرْضَ اللَّيَالِي السَّاخِنَةِ وَالْفَاتِرَة،
الَّتِي تَدْفَعُ الْفَتَيَاتِ ذَاتِ الْعُيُونِ الْغَائِرَةِ، الْعَاشِقَاتِ لأَجْسَادِهِن،
إِلَى مُدَاعَبَةِ الثِّمَارِ النَّاضِجَةِ لِبُلُوغِهِن،
أَمَامَ مَرَايَاهُنَّ، لَذَّةٌ عَقِيم!
لِيسبُوس، يَا أَرْضَ اللَّيَالِي السَّاخِنَةِ وَالْفَاتِرَة،

فَلْتَدَعي لأَفْلاَطُونَ الْعَجُوزِ أَنْ تَكْفَهِرَّ نظْرَتُه الْعَابِسَة؛
فَأَنْتِ تَسْتَمِدِّينَ عُذْرَكِ مِنْ شَرَاهَةِ الْقُبُلاَت،
يَا مَلِيكَةَ الإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعَذْبَةِ، الأَرْضِ الْحَبِيبَةِ النَّبِيلَة،
وَالرَّهَافَةِ الَّتِي لاَ تَنْفَدُ أَبَدًا.
فَلْتَدَعي لأَفْلاَطُونَ الْعَجُوزِ أَنْ تَكْفَهِرَّ نظْرَتُه الْعَابِسَة.

(١) عاهرة يونانية، اتّخذها «براكسيتيل» كموديل له لما أنجزه من تماثيل ڤينوس.
(٢) جزيرة يونانيّة مُكرسَة «لڤينوس».
(٣) الشاعرة اليونانية العظيمة، التي عاشت في القرن الثّامن قبل الميلاد. تدور قصائدها الغنائيّة حول حبيباتها من النِّساء.

تَسْتَمِدِّينَ عُذْرَكِ مِنَ الاسْتِشْهَادِ الأَبَدِيّ،
الْمَفْرُوضِ بِلاَ هَوَادَةٍ عَلَى الْقُلُوبِ الطَّامِحَة،
وَالَّذِي يَجْتَذِبُ بَعِيدًا عَنَّا الْبَسْمَةَ الْمُضِيئَة
الَّتِي تَبِينُ غَائِمَةً عَلَى حَافَّةِ سَمَاوَاتٍ أُخْرَى!
تَسْتَمِدِّينَ عُذْرَكِ مِنَ الاسْتِشْهَادِ الأَبَدِيّ!

مَنْ مِنَ الآلِهَةِ سَيَجْرُؤُ، يَا لِيسْبُوس، أَنْ يَكُونَ قَاضِيَك
وَيُدِينَ جَبِينَكِ الَّذِي شَحُبَ فِي الْعَمَل،
لَو لَم تَزِن مَوَازِينُهُ الذَّهَبِيَّة
طُوفَانَ الدُّمُوعِ الَّتِي صَبَّتْهَا يَنَابِيعُكِ فِي الْبَحْر؟
مَنْ مِنَ الآلِهَةِ سَيَجْرُؤُ، يَا لِيسْبُوس، أَنْ يَكُونَ قَاضِيَك؟

مَاذَا تُرِيدُ مِنَّا قَوَانِينُ الْعَدْلِ وَالظُّلْم؟
أَيَّتُهَا الْعَذْرَاوَاتُ ذَوَات الْقَلْبِ السَّامِي، يَا شَرَفَ الأَرْخَبِيل،
دِينُكُنَّ، شَأنَ أَيِّ دِينٍ، جَلِيل،
وَالْحُبُّ سَيَسْخَرُ مِنَ الْجَحِيمِ وَالسَّمَاء!
فَمَاذَا تُرِيدُ مِنَّا قَوَانِينُ الْعَدْلِ وَالظُّلْم؟

لأَنَّ لِيسْبُوس قَد اخْتَارَتْنِي مِنْ بَيْنِ الْجَمِيعِ عَلَى الأَرْض
لأُغَنِّي سِرَّ عَذْرَاوَاتِهَا الْمُزْدَهِرَات،

وَكُنْتُ مُنْذُ الطُّفُولَةِ مُنْضَوِيًا فِي السِّرِّ الأَسْوَد
لِلضَّحِكَاتِ الْجَامِحَةِ الْمَمْزُوجَةِ بِدُمُوعٍ كَئِيبَة؛
لأَنَّ «لِيسْبُوس» قَد اخْتَارَتْنِي مِنْ بَيْنِ الْجَمِيعِ عَلَى الأَرْض.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ أَسْهَرُ عَلَى قِمَّةِ لُوكَات[1]،
مِثْلَ حَارِسٍ ذِي عَيْنٍ نَافِذَةٍ وَوَاثِقَة،
يَتَرَصَّدُ لَيْلَ نَهَارٍ سَفِينَةً شِرَاعِيَّةً، أَوْ قَارِبًا وَحِيدَ الصَّارِي، أَوْ فُرْقَاطَة،
تَرْتَعِش أَشْكَالُهَا عَنْ بُعْدٍ فِي الزُّرْقَة؛
وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ أَسْهَرُ عَلَى قِمَّةِ لُوكَات

لأَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ الْبَحْرُ حَلِيمًا وَطَيِّبًا،
وَوَسْطَ التَّأَوُّهَاتِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا الصَّخْر
سَيَعُودُ ذَاتَ مَسَاءٍ إِلَى لِيسْبُوس، الغَفُورة،
الْجُثْمَانُ الْمَعْشُوقُ لِسَافُو، الَّتِي رَحَلَت
لِتَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ الْبَحْرُ حَلِيمًا وَطَيِّبًا!

عَنْ سَافُو الرُّجُولِيَّةِ، الْعَاشِقَةِ وَالشَّاعِرَة،
الأَجْمَل مِنْ ڤِينُوس بِفِعْلِ شُحُوبِهَا الْكَئِيب!
ـ عَيْنُ الزُّرْقَةِ هَزَمَتْهَا الْعَيْنُ السَّوْدَاء

---

(١) إحدى الـجُزر اليونانيّة.

الَّتِي تُبَرْقِش الدَّائِرَةَ الْقَاتِمَةَ الَّتِي خَطَّتْهَا آلاَم
سَافُّو الرُّجُولِيَّةِ، الْعَاشِقَةِ وَالشَّاعِرَة!

ـ أَجْمَلُ مِنْ ڤينوس الْمُنْتَصِبَةِ فَوْقَ الْعَالم
وَالَّتِي تَنْثُرُ كُنُوزَ سَكِينَتِهَا
وَإِشْعَاعَ شَبَابِهَا الأَشْقَر
عَلَى الْمُحِيطِ الْقَدِيم، الْمَسْحُورِ بِابْنَتِهَا؛
أَجْمَلُ مِنْ ڤينوس الْمُنْتَصِبَةِ فَوْقَ الْعَالم!

عَنْ سَافُّو الَّتِي مَاتَتْ يَوْمَ تَجْدِيفِهَا،
عِنْدَمَا، لَدَى إِهَانَتِهَا الطَّقْسَ وَالْعَقِيدَةَ الْمُخْتَرَعَة،
صَنَعَت مِنْ جَسَدِهَا الْجَمِيلِ الطَّعَامَ الأَسْمَى
لِرَجُلٍ وَحْشِيٍّ عَاقَبَ عَجْرَفَتَه
إِلْحادُ مَنْ مَاتَت يَوْمَ تَجْدِيفِهَا.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ وَلِيسْبُوس تَنُوح،
وَرَغْمَ الشَّرَفِ الَّذِي أَسْبَغَهُ عَلَيْهَا الْعَالَم،
فَهِيَ تَسْكَرُ كُلَّ لَيْلَةٍ بِصُرَاخِ الْعَذَاب
الَّذِي تُطْلِقُه إِلَى السَّمَاوَاتِ شَوَاطِئُهَا الْمَهْجُورَة!
مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ وَلِيسْبُوس تَنُوح!

٣

نسَــاءٌ ملعُــونَــات

دِيلفِين وهِيبُولِيت

فِي الضِّيَاءِ الشَّاحِبِ لِلْمَصَابِيحِ الْفَاتِرَة،
عَلَى أَرَائِكَ غَائِرَةٍ مُشْبَعَةٍ بِالْعُطُور،
كَانَت هِيبُولِيت تَحْلُمُ بِتَرْبِيتٍ قَوِي
يَرْفَعُ سِتَارَةَ بَرَاءَتِهَا الشَّابَّة.

كَانَت تَبْحَثُ، بِنَظْرَةٍ أَزْعَجَتْهَا الْعَاصِفَة،
عَنْ سَمَاءِ سَذَاجَتِهَا الْبَعِيدَةِ الآن،
مِثْلَ مُسَافِرٍ يُدِيرُ رَأسَه
نَحْوَ الآفَاقِ الزَّرْقَاءَ الَّتِي اجْتَازَهَا فِي الصَّبَاح.

الدُّمُوعُ الْكَسُولَةُ لِعَيْنَيْهَا الْخَامِدَتَيْن،
السِّيمَاءُ الْمُنْكَسِرَةُ، وَالْخَدَرُ، وَالشَّهْوَةُ الْكَئِيبَة،
ذِرَاعَاهَا الْمَهْزُومَتَان، مَطْرُوحَتَيْنِ كَأَسْلِحَةٍ عَقِيمَة،

كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَخْدِمُ، كَانَ يُزَيِّنُ جَمالَهَا الْهَشّ.

مُمَدَّدَةً عِنْدَ قَدَمَيْهَا، هَادِئَةً وَمُفْعَمَةً بِالْبَهْجَة،
نَظَرَت إِلَيْهَا دِيلْفِين فِي اشْتِهَاءٍ مُتَّقِد،
كَحَيَوانٍ قَوِيٍّ يَرْقُبُ فَرِيسَتَه،
بَعْدَ أَنْ رَصَدَهَا أَوَّلاً بِأَسْنَانِه.

جَمَالٌ قَوِيٌّ مُتَدَلِّهٌ بِالْجَمَالِ الْهَشّ،
رَائِعَةً كَانَت، تَرْتَشِفُ بِشَهْوَانِيَّةٍ
خَمْرَ انْتِصَارِهَا، وَتَتَمَدَّدُ نَحْوَهَا،
كَأَنَّمَا لِتَتَلَقَّى شُكْرًا عَذْبًا.

كَانَت تَبْحَثُ فِي عَيْنِ ضَحِيَّتِهَا الشَّاحِبَة
عَنِ النَّشِيدِ الصَّامِتِ الَّذِي يُغَنِّي اللَّذَّة،
وَذَلِكَ الْعِرْفَانِ اللاَّنِهَائِيِّ السَّامِي
الَّذِي يَنْبَثِقُ مِنَ الْجَفْنِ مِثْلَ آهَةٍ طَوِيلَة.

ـ «هِيبُولِيت، حَبِيبَتِي، مَا تَقُولِينَ عَنْ هَذِهِ الأَشْيَاء؟
أَتُدْرِكِينَ الآنَ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي تَقْدِيم
الأُضْحِيَةِ الْمُقَدَّسَةِ لِزُهُورِكِ الأُولَى

إِلَى الْعَوَاصِفِ الْعَنِيفَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَهْتِكَهَا؟

قُبُلاَتِي خَفِيفَةٌ مِثْلَ تِلْكَ الذُّبَابَاتِ الْعَابِرَة
الَّتِي تُدَاعِبُ فِي الْمَسَاءِ الْبُحَيْرَاتِ الْكُبْرَى، الشَّفَّافَة،
وَقُبُلاَتُ حَبِيبِكِ تَشُقُّ أَخَادِيدَهَا
مِثْلَ الْمَرْكَبَاتِ أَوْ سِلاَحِ الْمِحْرَاثِ الْقَاطِع؛

سَتَمُرُّ عَلَيْكِ مِثْلَ نِيرٍ ثَقِيل
لأَحْصِنَةٍ وَثِيرَانٍ ذَاتِ حَوَافِرَ قَاسِيَة...
هِيبُولِيت، يَا أُخْتِي! أَدِيرِي إِذَن وَجْهَك،
أَنْتِ، رُوحِي وَقَلْبِي، كُلِّي وَبَعْضِي،

أَدِيرِي إِلَيَّ عَيْنَيْكِ الْمُفْعَمَتَيْنِ بِالزُّرْقَةِ وَالنُّجُوم!
فَمِنْ أَجْلِ إِحْدَى هَذِهِ النَّظَرَاتِ السَّاحِرَةِ، الْبَلْسَمِ السَّمَاوِي،
سَأَرْفَعُ الْحِجَابَ عَنْ مَلَذَّاتٍ غَامِضَة
وَأُدْخِلُكِ إِلَى النَّوْمِ فِي حُلْمٍ بِلاَ انْتِهَاء!»

لَكِنَّ هِيبُولِيت آنَئِذٍ، وَهي تَرْفَعُ رَأْسَهَا الْفَتِي:
ـ «لَسْتُ عَاقَّةً أَبَدًا وَلاَ يَعْتَرِينِي نَدَم،
حَبِيبَتِي دِيلفِين، إِنَّنِي أُعَانِي وَأَنَا قَلِقَة،

مِثْلَمَا، بَعْدَ وَجْبَةٍ لَيْلِيَّةٍ رَهِيبَة،

أُحِسُّ بِأَهْوَالٍ وَبِيلَةٍ تَحُطُّ عَلَيّ
وَحُشُودٍ سَوْدَاءَ مِنْ أَشْبَاحٍ مُبَعْثَرَة،
تُرِيدُ اقتِيَادِي إِلَى دُرُوبٍ مُضْطَرِبَة
يُوصِدُهَا أُفُقٌ دَامٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَة.

فَهَل ارْتَكَبْنَا إِذَن فِعْلاً غَرِيبًا؟
فَسِّرِي لِي، لَوْ تَسْتَطِيعِينَ، انْزِعَاجِي وَخَوْفِي:
فَأَنَا أَرْتَعِدُ مِنَ الرُّعْبِ عِنْدَمَا تَقُولِين لِي: «يَا مَلاَكِي!»
وَأُحِسُّ مَعَ ذَلِكَ بِفَمِي يَتَّجِهُ نَحْوَك.

لاَ تَرْمُقِينِي هَكَذَا، أَنْتِ، هَمِّي!
أَنْتِ مَنْ أُحِبُّ إِلَى الأَبَد، أُخْتِي بِالاخْتِيَار،
حَتَّى لَو سَتَكُونِينَ شَرَكًا مَنْصُوبًا لِي
وَابْتِدَاءَ ضَيَاعِي!»

تُجِيبُ دِيلْفِين بِصَوْتٍ اسْتِبْدَادِي، وَنَظْرَتُهَا مَشْئُومَة،
وَهِيَ تَهُزُّ شَعْرَهَا الْغَزِيرَ الْمَأْسَاوِي،
كَأَنَّهَا تَضْرِبُ قَدَمَهَا بِالرَّكِيزَةِ الْحَدِيد:

ـ «مَنْ إِذَن يَجْرُؤُ إِزَاءَ الْحُبِّ عَلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْجَحِيم؟

اللَّعْنَةُ إِلَى الأَبَدِ عَلَى الْحَالِمِ سُدًى
الَّذِي أَرَادَ أَوَّلاً، فِي حَمَاقَتِه،
شَغُوفًا بِمُشْكِلَةٍ عَصِيَّةٍ وَعَقِيم،
أَنْ يَخْلِطَ الاسْتِقَامَةَ بِأَشْيَاءِ الْحُب!

ـ فَذَلِكَ الَّذِي يُرِيدُ تَوْحِيدَ الظِّلِّ وَالْحَرَارَة،
وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي تَوَافُقٍ رُوحِيّ،
لَنْ يُدْفِئَ أَبَدًا جَسَدَه الْمَشْلُول
بِهَذِهِ الشَّمْسِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْحُب!

هَيَّا، إِنْ شِئْتِ، فَلْتَبْحَثِي عَنْ خَطِيبٍ أَحْمَق؛
اذْهَبِي وَقَدِّمِي قَلْبًا بِكْرًا لِقُبُلاَتِهِ الْقَاسِيَة؛
وَمُفْعَمَةً بِالنَّدَمِ وَالذُّعْرِ، مُمْتَقِعَة،
سَتُعِيدِينَ إِلَيَّ ثَدْيَيْكِ مَوْصُومَيْن...

فَهُنَا عَلَى الأَرْضِ لاَ يُمْكِنُ إِلاَّ إِرْضَاءُ سَيِّدٍ وَحِيد!»
لَكِنَّ الطِّفْلَةَ، مُنْدَفِقَةً بِأَلَمٍ هَائِل،
صَرَخَتْ فَجْأَةً: «ـ أُحِسُّ بِهَاوِيَةٍ فَاغِرَة

تَتَّسِعُ فِي كَيْنُونَتِي؛ هَذِهِ الْهَاوِيَةُ هِي قَلْبِي!

مُحْتَرِقًا مِثْلَ بُرْكَانٍ، غَائِرًا كَالْفَرَاغ!
لاَ شَيْءَ يَشْفِي غَلِيلَ هَذَا الْوَحْشِ الْمُعَذَّب
وَلاَ يُطْفِئُ ظَمَأَ رَبَّةِ الْجَحِيم
الَّتِي تُحْرِقُهُ، وَالشُّعْلَةُ فِي يَدِهَا، حَتَّى الدَّم.

فَلَعَلَّ سَتَائِرَنَا الْمُنْسَدِلَةَ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنِ الْعَالَم،
وَلَعَلَّ الْعَيَاءَ يَجْلِبُ الرَّاحَة!
أُرِيدُ أَنْ أَفْنَى فِي صَدْرِكِ الْعَمِيق
وَأَجِدَ عَلَى ثَدْيِكِ نَدَاوَةَ الْمَقَابِر!»

ـ فَلْتَهْبِطُوا، اهْبِطُوا، أَيُّهَا الضَّحَايَا النَّائِحُون،
فَلْتَهْبِطُوا طَرِيقَ الْجَحِيمِ الأَبَدِيّ!
وَلْتَغُوصُوا فِي أَعْمَقِ أَعْمَاقِ الْهُوَّةِ، حَيْثُ كُلُّ الْجَرَائِم،
الَّتِي تَجْلِدُهَا رِيحٌ لاَ تَأْتِي مِنَ السَّمَاء،

تَفُورُ بِلاَ نِظَامٍ مَعَ صَخَبِ الْعَاصِفَة.
أَيَّتُهَا الظِّلاَلُ الْمَجْنُونَةُ، فَلْتَرْكُضِي إِلَى مُنْتَهَى رَغَبَاتِكُم؛
فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَبَدًا إِرْوَاءَ غَضَبِكُم،

وَعِقَابُكُم سَيَنْبُعُ مِنْ مَلَذَّاتِكُم.

أَبَدًا لَنْ يُضِيءَ شُعَاعٌ نَدِيٌّ كُهُوفَكُم؛
وَخِلاَلَ شُقُوقِ الْجُدْرَانِ تَتَسَرَّبُ أَبْخِرَةٌ فَاسِدَةٌ مَحْمُومَة
مُشْتَعِلَةً كَالْقَنَادِيل
وَتَخْتَرِقُ بِرَوَائِحِهَا الْبَشِعَةِ أَجْسَادَكُم.

الْعُقْمُ الْمَرِيرُ لِمُتْعَتِكُم
يُظْمِئُ ظَمَأَكُم وَيُجَفِّفُ جُلُودَكُم،
وَالرِّيحُ الْهَائِجَةُ لِلشَّبَق
تَجْعَلُ أَجْسَادَكُم تَصْطَفِقُ مِثْلَ رَايَةٍ قَدِيمَة.

بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ الأَحْيَاءِ، الضَّالِّينَ، الْمُدَانِين،
فَلْتَرْكُضُوا عَبْرَ الصَّحَارِي كَالذِّئَاب؛
وَلْتَصْنَعُوا مَصِيرَكُم، أَيَّتُهَا الأَرْوَاحُ الْمُشَوَّشَة،
وَلْتَهْرُبُوا مِنَ اللاَّنِهَائِيِّ الَّذِي تَحْمِلُونَهُ دَاخِلَكُم!

٤

ليثِيـه[١]

تَعَالَيْ إِلَى قَلْبِي، أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْقَاسِيَةُ الصَّمَّاء،
أَيُّهَا النَّمِرُ الْمَعْشُوقُ، الوَحْشُ ذو الْمَلاَمِحِ اللاَّمُبَالِيَة؛
أَرِيدُ أَنْ أَغُوصَ طَوِيلاً بِأَصَابِعِي الْمُرْتَعِشَة
فِي كَثَافَةِ شَعْرِكِ الْغَزِيرِ الثَّقِيل؛

وَأَنْ أَدْفِنَ رَأسِي الْمُتْعَبَة
فِي تَنُّورَتِكِ الْمُفْعَمَةِ بِرائِحَتِك،
وَأَسْتَنْشِقَ، مِثْلَ زَهْرَةٍ ذَابِلَة،
الْعُفُونَةَ الْعَذْبَةَ لِحُبِّيَ الْغَابِر.

أُرِيدُ النَّوْمَ! النَّوْمَ أَكْثَرَ مِنَ الْحَيَاة!
فِي رُقَادٍ عَذْبٍ كَالْمَوْت،
سَأَنْثُرُ قُبُلاَتِي بِلاَ نَدَم

---

١) نهر النّسيان في الجحيم السفليّ، وفقًا للأساطير اليونانيّة اللاتينيّة.

عَلَى جَسَدِكِ الْجَمِيلِ الأَمْلَس كَالنُّحَاس.

وَلأَبْتَلِعَ تَأَوُّهَاتِي الْخَامِدَة،
لاَ شَيْءَ يَعْدِلُ لِي هَاوِيَةَ سَرِيرِك؛
النِّسْيَانُ الْقَدِيرُ يَسْكُنُ فَمَك،
وَنَهْرُ «لِيثِيه» يَنْسَابُ فِي قُبُلاَتِك.

مِنَ الآنَ فَصَاعِدًا يَا حُلْوَتِي، سَأُذْعِن
لِمَصِيرِي شَأنَ شَخْصٍ مُحَدَّد الْمَصِير؛
كَشَهِيدٍ وَدِيعٍ، مُدَانٍ بَرِيء،
حَمِيَّتُهُ تُؤَجِّجُ الْعَذَاب،

سَأَمْتَصُّ، لأُغْرِقَ ضَغِينَتِي،
نَبَاتَ السَّلْوَى وَالشَّوْكَرَانِ الطَّيِّب
مِنَ الأَطْرَافِ السَّاحِرَةِ لِهَذَا الصَّدْرِ الْقَاسِي
الَّذِي لَمْ يَضُم دَاخِلَه قَلْبًا أَبَدًا.

٥

إلَى تلكَ المُبتهِجَة للغَاية

رَأسُكِ، إِيمَاءَتُكِ، هَيْئَتُك

جَمِيلَةٌ مِثْلَ مَشْهَدٍ طَبِيعِي جَمِيل؛

الضَّحِكُ يَلْعَبُ عَلَى وَجْهِك

مِثْلَ رِيحٍ نَدِيَّةٍ فِي سَمَاءٍ صَافِيَة.

الْعَابِرُ الْحَزِينُ الَّذِي تَحْتَكِّينَ بِه

مَذْهُولٌ مِنَ الْعَافِيَة

الَّتِي تَنْبَثِقُ كَضِيَاء

مِنْ ذِرَاعَيْكِ وَكَتِفَيْك.

الأَلْوَانُ الْمُدَوِّيَة

الَّتِي تُرَصِّعِينَ بِهَا زِينَتَك

تَطْرَحُ فِي عُقُولِ الشُّعَرَاء

صُورَةَ رَقْصَةٍ لِلزُّهُور.

هَذِهِ الأَثْوَابُ الْمَجْنُونَةُ هِي رَمْز
لِعَقْلِكِ الْمُبَرْقَش؛
أَيَّتُهَا الْمَجْنُونَةُ الَّتِي جُنِنْتُ بِهَا،
أَكْرَهُكِ بِقَدْرِ مَا أُحِبُّك!

أَحْيَانًا فِي حَدِيقَةٍ جَمِيلَة
كُنْتُ أُجَرْجِرُ فِيهَا وَهَنِي،
أَحْسَسْتُ، كَسُخْرِيَة،
بِالشَّمْس تُمَزِّقُ صَدْرِي؛

وَالرَّبِيعُ وَالاخْضِرَار
أَذَلاَّ كَثِيرًا قَلْبِي،
حَتَّى إِنَّنِي عَاقَبْتُ زَهْرَة
عَلَى وَقَاحَةِ الطَّبِيعَة.

هَكَذَا أُرِيدُ، ذَاتَ لَيْلَة،
عِنْدَمَا تَدُقُّ سَاعَةُ الشَّهْوَة،
أَنْ أَزْحفَ بِلاَ صَوْتٍ، كَجَبَان،
نَحْوَ كُنُوزِ جَسَدِك،

لأُهَذِّبَ جَسَدَكِ الْمُبْتَهِج،
لأَجْرَحَ صَدْرَكِ الْمُتَسَامِح،
وَأَرْتَكِبَ فِي خَصْرِكِ الْمَذْهُول

جُرْحًا كَبِيرًا وَغَائِرًا،

وَعَبْرَ هَذِهِ الشِّفَاهِ الجَدِيدَة،
الأَكْثَرَ صَخَبًا وَجَمَالاً،
أَيَّتُهَا الْعُذُوبَةُ الْمُدَوِّخَة!
أَبُثُّ فِيكِ سُمِّي، يَا أُخْتِي!

٦

الجَواهـر

كَانَت الْغَالِيَةُ عَارِيَةً، وَإِذْ تَعْرِفُ قَلْبِي،
فَلَم تُبْقِ إِلاَّ عَلَى جَوَاهِرِهَا الرَّنَّانَة،
الَّتِي كَانَت عُدَّتُهَا الثَّرِيَّةُ تَمْنَحُهَا السِّيمَاءَ الْمُنْتَصِرَة
لِعَبِيدِ الْمُورِ فِي أَيَّامِهِم السَّعِيدَة.

وَحِينَمَا تَرْمِي وَهيَ تَرْقُصُ صَخَبَهَا الْحَيَّ وَالسَّاخِر،
يَخْطَفُنِي فِي نَشْوَةٍ هَذَا الْعَالَمُ الوَامِض
مِنْ مَعْدِنٍ وَحَجَرٍ كَرِيمٍ، وَأُحِبُّ فِي الاهْتِيَاج
الأَشْيَاءَ الَّتِي يَمْتَزِجُ فِيهَا الصَّوْتُ بِالضَّوْء.

هَكَذَا كَانَت رَاقِدَةً، مُسْتَسْلِمَةً لِلْحُب،
وَمِنْ أَعْلَى الأَرِيكَةِ كَانَت تَبْتَسِمُ فِي هَنَاء
إِلَى حُبِّيَ الْعَمِيقِ وَالْعَذْبِ كَالْبَحْر
الَّذِي يَصَّاعَدُ نَحْوَهَا مِثْلَمَا نَحْوَ جُرْفِهَا.

الْعَيْنَانِ تُحَدِّقَانِ فِيَّ، مِثْلَ نَمِرٍ مُرَوَّض،
وَبِسِيمَاءَ غَامِضَةٍ وَحَالِمَةٍ كَانَت تُجَرِّبُ الأَوْضَاع،
وَالْبَرَاءَةُ الْمُتَوَحِّدَةُ بِالشَّبَق
كَانَت تَمْنَحُ سِحْرًا جَدِيدًا لِتَحَوُّلاَتِهَا؛

وَذِرَاعُهَا وَسَاقُهَا، فَخْذُهَا وَحِقْوُهَا،
النَّاعِمُون كَالزَّيْتِ، مُتَمَاوِجِين كَبَجَعَة،
كَانُوا يَمُرُّونَ أَمَامَ عَيْنَيَّ الْبَصِيرَتَيْنِ الْهَادِئَتَيْن؛
وَبَطْنُهَا وَثَدْيَاهَا، عَنَاقِيدُ خَمْرِي،

كَانُوا يَتَقَدَّمُون، أَكْثَرَ غُنْجًا مِنْ مَلاَئِكَةِ الشَّر،
لِيُزْعِجُوا الرَّاحَةَ الَّتِي اسْتَكَانَت إِلَيْهَا رُوحِي،
وَيُزِيحُوهَا عَنْ صَخْرَةِ الْبِللَّور
الَّتِي كَانَت جَالِسَةً عَلَيْهَا، هَادِئَةً مُنْفَرِدَة.

بَدَا لِي أَنَّنِي أَرَى، فِي صُورَةٍ جَدِيدَة،
أَفْخَاذَ «أَنْتِيُوب» (١) مُتَّحِدَةً بِجِذْعِ صَبِيٍّ أَمْرَد،
وَقَوَامُهَا كَانَ يَدْفَعُ إِلَى الْبُرُوزِ بَحَوضِهَا.
وَعَلَى هَذِهِ الْمِسْحَةِ مِنَ الشُّقْرَةِ وَالْبُنِّي كَانَ الْخِضَابُ رَائِعًا!

---

(١) ابنة «نيكتيه»، ملك طيبة، ومحبوبة «زيوس».

ـ وَلأَنَّ الْمِصْبَاحَ قَد اسْتَسْلَمَ لِلْمَوْت،
كَانَت الْمِدْفَأَةُ وَحْدَهَا مَا يُضِيءُ الْغُرْفَة،
وَكُلَّمَا صَعَّدَت تَنْهِيدَةً مُتَّقِدَة،
غَمَرَت بِالدَّمِ هَذِهِ الْبَشْرَةَ بِلَوْنِ الْعَنْبَر!

٧

تَحولاتُ مصّاصَة الدّماء

مَعَ ذَلِكَ، فَالْمَرْأَةُ، مِنْ فَمِهَا الْفَرَاولَة،
مُتَلَوِّيَةً كَأَفْعَى عَلَى الْجَمْر،
وَهيَ تَدْعَكُ ثَدْيَيْهَا فِي حَدِيدِ مَشَدَّاتِ صَدْرِهَا،
كَانَت تَدَعُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمُشْبَعَةَ بِالْمِسْكِ تَنْسَاب:
ـ «أَنَا، لَدَيَّ شَفَةٌ رَطْبَةٌ، وَأَعْرِف
عِلْمَ ضَيَاعِ الشُّعُورِ الْقَدِيمِ فِي أَعْمَاقِ سَرِير.
أُجَفِّفُ كَلَّ الدُّمُوعِ عَنْ ثَدْيَيَّ الظَّافِرَيْن،
وَأَدْفَعُ الْعَجَائِزَ إِلَى الضَّحِكِ كَالأَطْفَال.
وَلِمَنْ يَرَانِي عَارِيَةً بِلاَ حِجَاب، فَإِنَّنِي أَحْتَلُّ مَكَان
الْقَمَرِ، وَالشَّمْسِ، وَالسَّمَاءِ وَالنُّجُوم!
فَأَنَا، يَا عَالِمِي الْعَزِيز، خَبِيرَةٌ بِالشَّهَوَات،
عِنْدَمَا أَخْنُقُ رَجُلاً فِي ذِرَاعَيَّ الْمُفْزِعَتَيْن،
أَوْ حِينَمَا أَتْرُكُ صَدْرِي لِلْعَضَّات،
خَجُولَةً وَفَاجِرَةً، هَشَّةً وَقَوِيَّة،

حَتَّى إِنَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْمُشْبَعَةِ بِالإِثَارَة،
سَيَلْعَنُ الْمَلاَئِكَةُ الْخَائِرُونَ أَنْفُسَهُم مِنْ أَجْلِي!»

وَعِنْدَمَا امْتَصَّتْ كُلَّ النُّخَاعِ مِنْ عِظَامِي،
وَاسْتَدَرْتُ بِتَرَاخٍ إِلَيْهَا
لأَمْنَحَهَا قُبْلَةَ حُبٍّ، لَم أَرَ سِوَى
قِرْبَةٍ ذَات أَجْنَابٍ لَزِجَةٍ، مَلأَى بِالصَّدِيد!
أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ، فِي رُعْبِي الْبَارِد،
وَحِينَمَا أَعَدْتُ فَتْحَهُمَا فِي الضِّيَاءِ الْحَيّ،
كَانَت إِلَى جَانِبِي، مَكَانَ عَارِضَةِ الأَزْيَاءِ الْقَدِيرَة
الَّتِي يَبْدُو أَنَّهَا أَمَدَّت نَفْسَهَا بِالدَّم،
بَقَايَا هَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ تَرْتَعِدُ فِي ارْتِبَاك،
وَتَصْدُرُ مِنْهَا قَرْقَعَةُ دَوَّارَةِ هَوَاء
أَو لاَفِتَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي طَرَفِ قَضِيبٍ حَدِيد،
تُؤَرْجِحُه الرِّيحُ خِلاَلَ لَيَالِي الشِّتَاء.

غَزَلِيّات

٨
النَّـافُورة

عَيْنَاكِ الْجَمِيلَتَانِ مُتْعَبَتَان، أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ الْبَائِسَة!

فَلْتَبْقَيْ طَوِيلاً، دُونَ أَنْ تَفْتَحِيهِمَا،

فِي هَذَا الْوَضْعِ الْفَاتِر

حَيْثُ فَاجَأَتْكِ اللَّذَّة.

فِي الْفِنَاءِ نَافُورَةُ الْمَاءِ الثَّرْثَارَة

الَّتِي لاَ تَسْكُتُ لَيْلَ نَهَار،

تَصُون بِرِقَّةٍ النَّشْوَة

الَّتِي غَمَرَنِي فِيهَا الْحُبُّ هَذَا الْمَسَاء.

الْبَاقَةُ تَتَفَتَّحُ

فِي أَلْفِ وَرْدَة،

حَيْثُ فُوِيْبِي الْمُبْتَهِجَة

تَضَعُ أَلْوَانَهَا،

وَتَسَّاقَطُ مِثْلَ مَطَر

مِنْ دُمُوعٍ كَبِيرَة.

هَكَذَا رُوحُكِ الَّتِي يُشْعِلُهَا

بَرْقُ الشَّهَوَاتِ الْمُتَّقِد

تَنْطَلِقُ، سَرِيعَةً وَجَرِيئَةً،

نَحْوَ السَّمَاوَاتِ الْمَسْحُورَةِ الشَّاسِعَة.

ثُمَّ تَنْدَفِقُ، مُحْتَضِرَة،

فِي مَوْجَةٍ مِنْ فُتُورٍ حَزِين،

تَهْبِطُ عَبْرَ مُنْحَدَرٍ خَفِي

حَتَّى أَعْمَاقِ قَلْبِي.

الْبَاقَةُ تَتَفَتَّحُ

فِي أَلْفِ وَرْدَة،

حَيْثُ فُويْبِي الْمُبْتَهِجَة

تَضَعُ أَلْوَانَهَا،

وَتَسَّاقَطُ مِثْلَ مَطَر

مِنْ دُمُوعٍ كَبِيرَة.

يَا أَنْتِ، الَّتِي يَجْعَلُكِ اللَّيْلُ بِالِغَةَ الْجَمَال،

كَمْ هُوَ عَذْبٌ لِي، مُنْحَنِيًا عَلَى ثَدْيَيْكِ،

أَنْ أَسْمَعَ الأَنِينَ الأَبَدِيّ

الَّذِي يَنْتَحِبُ فِي الأَحْوَاض!
قَمَرٌ، وَمَاءٌ صَاخِبٌ، وَلَيْلٌ مُبَارَك،
أَشْجَارٌ تَرْتَعِدُ فِي الْجِوَار،
وَكَآبَتُكِ الصَّافِيَة
هِيَ مِرْآةُ حُبِّي.

الْبَاقَةُ تَتَفَتَّحُ
فِي أَلْفِ وَرْدَة،
حَيْثُ فُويْبِي الْمُبْتَهِجَة
تَضَعُ أَلْوَانَهَا،
وَتَسَّاقَطُ مِثْلَ مَطَر
مِنْ دُمُوعٍ كَبِيرَة.

٩

عينا برت

تَسْتَطِيعُونَ ازْدِرَاءَ الْعُيُونِ الأَكْثَرِ شُهْرَة،
عَيْنَيْ طِفْلَتِي الْجَمِيلَتَيْنِ، اللَّتَيْنِ يَتَسَرَّبُ مِنْهُمَا وَيَفِر
مَا لاَ أَدْرِي مِنْ شَيْءٍ طَيِّبٍ وَعَذْبٍ كَاللَّيْل!
أَيَّتُهَا الْعَيْنَانِ الْجَمِيلَتَانِ، فَلْتَصُبِّي عَلَيَّ ظُلُمَاتِكِ الْفَاتِنَة!

يَا عَيْنَيْ طِفْلَتِي الْوَاسِعَتَيْن، أَيُّهَا اللُّغْزَانِ الْحَبِيبَان،
تُشْبِهَانِ كَثِيرًا هَذِهِ الْكُهُوفَ السِّحْرِيَّة
حَيْثُ، وَرَاءَ أَكْدَاسِ الظِّلاَلِ الْبَلِيدَة،
تُومِض فِي غُمُوضٍ كُنُوزٌ مَجْهُولَة!

لِطِفْلَتِي عَيْنَانِ قَاتِمَتَانِ، عَمِيقَتَانِ وَوَاسِعَتَان،
مِثْلَكَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الْهَائِلُ، وَجَلِيَّتَانِ مِثْلَك!
نِيرَانُهُمَا هِي أَفْكَارُ الْحُبِّ، الْمُمْتَزِجَةُ بِـالإِيمَان،
الَّتِي تَتَلأَلأُ فِي الأَعْمَاقِ، شَهوَانِيَّةً أَوْ طَاهِرَة.

١٠

تَرنِيمَة

إِلَى الْغَالِيَةِ، الْجَمِيلَةِ لِلْغَايَة
الَّتِي تُفْعِمُ قَلْبِي بِالضِّيَاء،
إِلَى الْمَلاَكِ، إِلَى الْمَعْبُودِ الْخَالِد،
سَلاَمًا فِي الْخُلُود!

تَنْتَشِرُ فِي حَيَاتِي
كَهَوَاءٍ مُشَبَّعٍ بِالْمِلْح،
وَفِي رُوحِي غَيْرِ الْمُشْبَعَة
تَصُبُّ مَذَاقَ الأَبَدِي.

جِرَابٌ دَائِمًا نَدِيٌّ يُعَطِّر
مَنَاخَ خُلْوَةٍ أَثِيرَة،
مَبْخَرَةٌ مَنْسِيَّةٌ تَشْتَعِل
فِي السِّرِّ خِلاَلَ اللَّيْل،

فَكَيْفَ، أَيُّهَا الْحُبُّ الْعَفِيف،
يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْكَ بِصُورَةٍ حَقِيقِيَّة؟
يَا حَبَّةَ الْمِسْكِ الْكَامِنَةَ، خَفِيَّةً،
فِي عُمْقِ أَبَدِيَّتِي؟

إِلَى الطَّيِّبَةِ لِلْغَايَة، الْجَمِيلَةِ لِلْغَايَة،
الَّتِي تَصْنَعُ بَهْجَتِي وَعَافِيَتِي،
إِلَى الْمَلاَكِ، إِلَى الْمَعبُودِ الْخَالِد،
سَلاَمًا فِي الْخُلُود!

١١

وُعُودٌ في وَجه

أُحِبُّ، أَيُّهَا الْجَمَالُ الشَّاحِبُ، رُمُوشَك الْمُسْدَلَة،
الَّتِي يَبْدُو أَنْ الظُّلُمَاتِ مِنْهَا تَنْسَاب؛
عَيْنَاكِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ سَوَادِهِمَا الْبَالِغِ، تُلْهِمَانِنِي أَفْكَارًا
لَيْسَت كَئِيبَةً أَبَدًا؛

عَيْنَاكِ، الْمُتَوَافِقَتَانِ مَعَ شَعْرِكِ الأَسْوَد،
مَعَ شَعْرِكِ الْغَزِيرِ الطَّيِّع،
عَيْنَاكِ، فِي فُتُورٍ، تَقُولاَنِ لِي: «لَوْ شِئْت،
يَا مُحِبَّ رَبَّةِ الْفَنِّ التَّشْكِيلِي،

اقْتِفَاءَ الأَمَلِ الَّذِي أَثَرْنَاهُ دَاخِلَك،
وَكُلَّ الأَمْزِجَةِ الَّتِي تُمَارِسُهَا،
فَيُمْكِنُكَ التَّحَقُّقُ مِنْ صِدْقِنَا،
ابْتِدَاءً مِنَ السُّرَّةِ حَتَّى الأَرْدَاف؛

سَتَجِدُ فِي طَرَفِ ثَدْيَيْنِ جَمِيلَيْنِ، كَبِيرَيْنِ تَمَامًا،

مِيدَالِيَتَيْنِ كَبِيرَتَيْن مِن بُرُونْز،

وَتَحْتَ بَطْنٍ مَلْسَاءَ، نَاعِمَةٍ كَالْقَطِيفَة،

دَاكِنَةِ السُّمْرَةِ كَبَشْرَةِ رَاهِبٍ بُوذِي،

شَعْرٌ غَزِيرٌ هُوَ، فِي الْحَقِيقَةِ، شَقِيق

شَعْرِ الرَّأسِ الْهَائِل،

طَيِّعٌ وَمُجَعَّدٌ، وَيُبَارِيكَ فِي الْكَثَافَة،

أَيُّهَا اللَّيْلُ بِلاَ نُجُوم، اللَّيْلُ الْقَاتِم!»

١٢

الوَحش

أو صَديق حوريَّة جنائزيَّة

(١)

لَسْتِ بِالتَّأكِيدِ، يَا غَالِيَتِي،
مَنْ يُسَمِّيهَا «ڤِيُّو»[١] فَتَاةً صَغِيرَة.
فَالْمُقَامَرَةُ، وَالْحُبُّ، وَالطَّعَامُ الْفَاخِر،
يَغْلِي دَاخِلَكِ، أَيَّتُهَا الْقِدْرُ الْعَجُوز!
لَمْ تَعُودِي غَضَّةً، يَا غَالِيَتِي،

يَا طِفْلَتِي الْعَجُوز! وَمَعَ ذَلِك
فَحَيَاتُكِ الطَّائِشَةُ الْمَجْنُونَة
مَنَحَتْكِ هَذَا الْبَرِيقَ الْكَبِير
لِلأَشْيَاءِ الْمُسْتَهْلَكَة،
لَكِن الْمُغْوِيَة مَعَ ذَلِك.

---

(١) ناشر وروائيّ كاثوليكيّ (١٨١٣ـ ١٨٨٣).

لاَ أَجِدُهَا رَتِيبَةً

خُضْرَةَ أَعْوَامِكِ الأَرْبَعِين؛

فَأَنَا أُفَضِّلُ فَوَاكِهَكِ، أَيَّتُهَا **الْخَرِيف**،

عَلَى زُهُورِ **الرَّبِيعِ** الْمُبْتَذَلَة!

لاَ! لَسْتِ أَبَدًا رَتِيبَة!

لَهَيْكَلِكِ مَبَاهِج

وَمَفَاتِنُ فَرِيدَة؛

فَأَجِدَ مَذَاقًا غَرِيبًا

لِفَجْوَةِ تُرْقُوَتَيْك؛

فَلِهَيْكَلِكِ مَبَاهِجُه!

أَزْدَرِي الْمُحِبِّينَ الْبُلَهَاء

لِلشَّمَّامِ وَالْقَرْع!

فَأَنَا أُفَضِّلُ عِظَامَ نَحْرِك

عَلَى عِظَامِ نَحْرِ الْمَلِكِ سُلَيْمَان،

وَأُشْفِقُ عَلَى هَؤُلاَءِ الْبُلَهَاء!

شَعْرُكِ، مِثْلَ خَوْذَةٍ زَرْقَاء،

يُظَلِّلُ مِنْكِ جَبِينَ الْمُحَارِب،

الَّذِي لاَ يُفَكِّرُ أَوْ يَتَضَرَّجُ بِالْحُمْرَةِ إِلاَّ قَلِيلا،

ثُمَّ يَفِرُّ إِلَى الْوَرَاءِ،
مِثْلَ عُرْفِ خوذَةٍ زَرْقَاء.

عَيْنَاكِ الشَّبِيهَتَانِ بِالطِّين،
حَيْثُ يُومِضُ قِنْدِيلٌ مَا،
يُؤَجِّجُه خِضَابُ وَجْنَتَك،
تُطْلِقَانِ بَرْقًا جَهَنَّمِيًّا!
عَيْنَاكِ سَوْدَاوَانِ كَالطِّين!

بِشَبَقِهَا وَاسْتِخْفَافِهَا
تَسْتَثِيرُنَا شَفَتُكِ الْمَرِيرَة؛
هَذِهِ الشَّفَةُ، جَنَّةُ عَدْن
الَّتِي تَجْتَذِبُنَا وَتَصْدِمُنَا.
أَيُّ شَبَق! وَأَيُّ اسْتِخْفَاف!

سَاقُكِ الرُّجُولِيَّةُ الْجَافَّة
تَعْرِفُ ارْتِقَاءَ أَعَالِي الْبَرَاكِين،
وَرَقْصَ الْكَانْكَانِ الأَكْثَرَ جُمُوحًا
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ الثُّلُوجِ وَالْفَقْر.
سَاقُكِ رُجُولِيَّةٌ وَجَافَّة؛

بَشْرَتُكِ الْمُتَّقِدَةُ بِلاَ رِقَّة،

كَبَشْرَةِ رِجَالِ الدَّرَكِ الْعَجَائِزِ،
لَمْ تَعُد تَعْرِفُ الْعَرَق
مِثْلَمَا لاَ تَعْرِفُ عَيْنَاك الدُّمُوع.
(وَمَع ذَلِكَ فَلَهَا رِقَّتُهَا!)

(٢)

حَمْقَاءَ، سَتَذْهَبِينَ رَأسًا إِلَى الشَّيْطَان!
وَسَأَذْهَبُ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ مَعَك،
إِذَا مَا كَانَت هَذِهِ السُّرْعَةُ الْمُرْعِبَة
لَنْ تَتَسَبَّبَ لِي فِي اهْتِيَاجٍ مَا.
فَلْتَذْهَبِي إِذَن، وَحْدَكِ، إِلَى الشَّيْطَان!

حِقْوِي، وَرِئَتِي، وَبَاطِنُ الرُّكْبَة،
لَمْ يَعُودُوا يَسْمَحُونَ لِي بِالثَّنَاء
عَلَى هَذَا السَّيِّد، كَمَا يَنْبَغِي.
«وَاأَسَفَاه! يَا لَهُ حَقًّا مِنْ أَمْرٍ مُؤْسِف!»
يَقُولُ حِقْوِي وَبَاطِنُ رُكْبَتِي.

آه! فَأَنَا بِصِدْقٍ بَالِغٍ أُعَانِي
مِنْ عَدَمِ الذِّهَابِ إِلَى مَحَافِلِ السَّبْت،
لأَرَى، عِنْدَمَا يَضْرِطُ كِبْرِيتًا،
كَيْفَ تُقَبِّلِينَ مُؤَخِّرَتَه!
آه! فَأَنَا ـ بِصِدْقٍ بَالِغٍ ـ أُعَانِي!

إِنَّنِي مَغْمُومٌ بِصُورَةٍ شَيْطَانِيَّة
مِنْ أَنَّنِي لَسْتُ شَمْعَدَانِك،
مِنْ طَلَبِي مِنْكِ الانْصِرَاف،
يَا مِشْعَل الْجَحِيم! فَلْتَحْكُمِي، يَا عَزِيزَتِي،
كَمْ يَنْبَغِي أَنْ أَغْتَم،

لأَنَّنِي أُحِبُّكِ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيد،
فَذَلِكَ مَنْطِقِيٌّ تَمَامًا! فِي الْوَاقِع،
لأَنَّنِي أُرِيدُ الْبَحْثَ عَنْ خُلاَصَةِ الشَّر
وَأَلاَّ أُحِبَّ إِلاَّ وَحْشًا خَالِصًا،
نَعَم، حَقًّا! فَأَنَا أُحِبُّكِ، يَا وَحْشِي الْعَجُوز!

١٣

فرَانشيسكَا ماي لود

أبياتٌ كُتبت إلى صانعة قُبعات خبيرة وورعة

(انظر القصيدة فيما سبق من «أزهار الشّر»)

نُقُــوش

١٤

أبيات لبُورتريه

السيد أونُورِيه دُومييه

مَنْ نُقَدِّمُ لَكَ صُورَتَه،
وَمَن فَنُّهُ، الثَّاقِبُ قَبْلَ كُلِّ شَيء،
يُعَلِّمُنَا الضَّحِكَ مِنْ أَنْفُسِنَا،
ذَلِكَ الرَّجُلُ، أَيُّهَا الْقَارِئُ، حَكِيم.

هُوَ هَجَّاءٌ، سَاخِر؛
لَكِنَّ الطَّاقَةَ الَّتِي بِهَا
يَرْسُمُ الشَّرَّ وَعَوَاقِبَه،
تُثْبِتُ جَمَالَ قَلْبِه.

ضِحْكَتُه لَيْسَت تَكْشِيرَة
مِيلمُوث[١] أَو مِفِيستُو[٢]

---

(١) **ميلموث**: بطل إحدى روايات **شارل ماتوران** (١٧٨٢ـ ١٨٢٤). وقد باع روحه للشيّطان.

(٢) **مفيستو**: اسم الشيطان في «**فاوست**» لجوته.

تَحْتَ شُعْلَةِ أَلِيكْتُو[1]
الَّتِي تُحْرِقُهُم، لَكِنَّهَا تُثْلِجُنَا.

فَضِحْكَتُهُم، لِلأَسَفِ! لَيْسَت سِوَى
الكَارِيكَاتِير الأَلِيمِ لِلْبَهْجَة؛
أَمَّا ضِحْكَتُه فَتُشِعُّ، صَرِيحَةً وَكَبِيرَة،
كَشَارَةٍ عَلَى طِيبَتِه!

(١) **أليكتو**: إحدى جنيّات «**الإنيادة**» لفرجيل.

١٥

لُولاَ دي ڤَالُونس (١)

بَيْنَ الْكَثِيرِ مِنَ الْجمِيلاَتِ اللاَّئِي يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُنَّ فِي كُلِّ مَكَان،
أُدْرِكُ جَيِّدًا، يَا أَصْدِقَاءُ، أَنَّ الرَّغْبَةَ تَتَعَادَل؛
لَكِنَّ الْمَرْءَ يَرَى فِي لُولاَ دِي فَالُونس وَمِيضَ السِّحْرِ الْمُفَاجِئ
لِجَوْهَرَةٍ وَرْدِيَّةٍ وَسَوْدَاء.

---

(١) راقصة باليه إسبانيّة.

١٦

عن «لو تاس سجينًا»[١]

لأُوجِين دِيلاكْرُوَا

الشَّاعِرُ فِي الزِّنْزَانَةِ، أَشْعَثَ، مَرِيضًا،
وَهوَ يُمَزِّغُ مَخْطُوطًا تَحْتَ قَدَمِهِ الْمُتَشَنِّجَة،
يَقِيسُ بِنَظْرَةٍ يُشْعِلُهَا الرُّعْب
سُلَّمَ الدُّوَارِ حَيْثُ تَهْوِي رُوحُه.

الضَّحِكَاتُ الْمَخْمُورَةُ الَّتِي تَمْلأُ السِّجْن
تُوَجِّهُ عَقْلَهُ نَحْوَ الْغَرِيبِ وَالْعَبَثِي؛
الشَّكُّ يَلُفُّه، وَالْخَوْفُ الأَحْمَق،

---

(١) لو تاس: شاعر رومانيّ كبير (١١ مارس ١٥٤٤ـ ٢٥ أبريل ١٥٩٥)، صاحب ملحمة «**أورشليم محررة**»، عن الحملة الصليبية الأولى. احتُجز لسبع سنوات في مستشفى للأمراض العقلية عقابًا له على شتمه بلاط دوق «فرارا»، بعد أن سبق الحكم عليه بالحبس في غرفته لقتله أحد الخدم. انظر جوته: **توركواتو تاسو**، ترجمة وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، من المسرح العالميّ (١٣٢)، الكويت، سبتمبر ١٩٨٠
و«**لو تاس سجينًا**»: لوحة لأوجين ديلاكروا، الفنان الفرنسيّ الشهير في القرن التاسع عشر، والذي كان موضع إعجاب بودلير.

الْبَشِعُ مُتَعَدِّدُ الأَشْكَالِ، يُحِيطُ بِه.

هَذِهِ الْعَبْقَرِيَّةُ الْمَحْبُوسَةُ فِي وَكْرٍ مَوْبُوء،
هَذِهِ التَّكْشِيرَاتُ، هَذِهِ الصَّرَخَاتُ، هَذِهِ الأَطْيَاف
الَّتِي تُدَوِّمُ حَشُودُهَا، مُهْتَاجَةً خَلْفَ أُذُنِه،

وَهَذَا الْحَالِمُ الَّذِي يُوقِظُه ذُعْرُ مَسْكَنِه،
هُوَ ـ حَقًّا ـ رَمْزُكِ، أَيَّتُهَا **الرُّوحُ** ذَاتِ الأَحْلاَمِ الْمُظْلِمَة،
الَّذِي يَخْنِقُهُ **الْوَاقِعُ** بَيْنَ جُدْرَانِهِ الأَرْبَعَة!



لوحة «لوتاس سجينًا» لديلاكروا

قصَـائدُ مُتنَوِّعَـة

١٧

الصَّــوت

مَهْدِي كَانَ يَتَّكِئُ عَلَى الْمَكْتَبَة،

بَابِلَ قَاتِمَةٍ، حَيْثُ الرِّوَايَةُ، وَالْعِلْمُ، وَالْحِكَايَاتُ الشَّعْبِيَّة،

كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَمْتَزِج، الرَّمَادُ اللاَّتِينِيُّ وَالْغُبَارُ الْيُونَانِيّ.

كُنْتُ بِطُولِ كِتَابِ فُولِيُو[1]

كَانَ صَوْتَانِ يَتَحَدَّثَانِ مَعِي. أَحَدُهُمَا، دَاخِلِيٌّ وَحَازِم،

كَانَ يَقُولُ: «الأَرْضُ قِطْعَةُ حَلْوَى مَلِيئَةٌ بِالْعُذُوبَة؛

أَسْتَطِيعُ (وَمُتْعَتُكَ سَتَكُونُ آنَئِذٍ بِلاَ انْتِهَاء!)

أَنْ أَمْنَحكَ شَهِيَّةً بِالضَّخَامَة نَفْسِها».

وَالآخَرُ: «هَيَّا! آه! تَعَالَ لِتُسَافِرَ فِي الأَحْلاَم،

فِيمَا وَرَاءَ الْمُمْكِنِ، فِيمَا وَرَاءَ الْمَعْرُوف!»

وَكَانَ هَذَا الصَّوْتُ يُغَنِّي مِثْلَ رِيحِ السَّوَاحِل،

كَشَبَحٍ صَارِخٍ، لاَ أَحَدَ يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَتَى،

---

(١) قطع للكتب معروف في أوروبا.

يُدَاعِبُ أُذُنِي، وَيُخِيفُهَا مَعَ ذَلِك.

أَجَبْتُكَ: «نَعَم! أَيُّهَا الصَّوْتُ الْعَذْب!» فَعِنْدَئِذٍ

بَدَأَ مَا يُمْكِنُ، لِلأَسَفِ! أَنْ نُسَمِّيَهُ جُرْحِي وَمُصِيبَتِي.

فَوَرَاءَ زِينَةِ الْوُجُودِ الْهَائِلِ، فِي السَّوَادِ الأَفْدَحِ لِلْهَاوِيَة،

أَرَى بِوُضُوحٍ عَوَالِمَ فَرِيدَة،

وَبِبَصِيرَتِي الضَّحِيَّةِ الْمُنْتَشِيَة،

أُجَرْجِرُ خَلْفِي ثَعَابِينَ تَقْضُمُ نِعَالِي.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، وَأَنَا، كَالأَنْبِيَاء،

أُحِبُّ بِرِقَّةٍ الصَّحرَاءَ وَالْبَحْر؛

أَضْحَكُ فِي الْجِنَازَاتِ وَأَبْكِي فِي الْحَفَلاَت،

وَأَجِدُ مُتْعَةً عَذْبَةً فِي الْخَمْرِ الْمَرِير؛

وَكَثِيرًا مَا أَعْتَبِرُ الْحَقَائِقَ أَكَاذِيب،

وَأَهْوِي، فِيمَا الْعَيْنَانِ شَاخِصَتَانِ فِي السَّمَاءِ، فِي الْحُفَر.

لَكِنَّ الصَّوْتَ يُعَزِّينِي وَيَقُول: «فَلْتَحْتَفِظْ بِأَحْلاَمِك؛

فَالْحُكَمَاءُ لاَ يَمْلِكُونَ أَحْلاَمًا بِجَمَالِ أَحْلاَمِ الْمَجَانِين!»

١٨

غيرُ المنتَظَر

أربَاجُون، الَّذِي كَانَ يَسْهَرُ عَلَى أَبِيهِ الْمُحْتَضِر،
يَقُولُ لِنَفْسِهِ، حَالِمًا، أَمَامَ هَذِهِ الشِّفَاهِ الَّتِي ابْيَضَّت:
«أَلَدَيْنَا فِي مَخْزَنِ الْغِلاَلِ مَا يَكفِي،
فِيمَا يَبْدُو لِي، مِنْ أَلْوَاحِ الْخَشَبِ الْقَدِيمَة؟»

سِيلِيمِين تَهْدِلُ وَتَقُول: «قَلْبِي طَيِّب،
وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ خَلَقَنِي اللهُ بِالِغَةَ الْجَمَال».
ـ قَلْبُهَا! قَلْبٌ قَاسٍ، يَنْفُثُ الدُّخَانَ مِثْلَ قِطْعَةِ جَامْبُون،
يُجَفَّفُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى اللَّهِيبِ الأَبَدِيّ!

صَحَفِيٌّ مُشَوَّشٌ، يَظُنُّ نَفْسَه مِشْعَلاً،
يَقُولُ لِلْفَقِير، الَّذِي أَغْرَقَه فِي الظُّلُمَات:
«أَيْنَ إِذَن تَرَاه، هَذَا الْمُبْدِعَ لِلْجَمَال،
هَذَا الْفَارِسَ الَّذِي تَحْتَفِي بِه؟»

أَفْضَلَ مِنَ الْجَمِيعِ، أَعْرِفُ شَخْصًا شَهْوَانِيًّا
يَتَثَاءَبُ لَيْلَ نَهَارٍ، وَيَنُوحُ وَيَبْكِي،
وَهوَ يُرَدِّدُ، خَائِرًا مَغْرُورًا: «نَعَم، أُرِيد
أَنْ أَكُونَ فَاضِلاً، لِمُدَّةِ سَاعَةَ!»

سَاعَةُ الحَائِطِ، فِي دَوْرَتِهَا، تَقُولُ بِصَوْتٍ خَفِيض: «إِنَّهُ نَاضِج،
الْمَلْعُون! إِنَّنِي أُحَذِّرُ سُدًى الْجَسَدَ الْعَفِن.
الإِنْسَانُ أَعْمَى، أَصَمٌّ، هَشٌّ، كَجِدَار
تَسْكُنُه وَتَقْرِضُه حَشَرَة!»

آنَئِذٍ، يَتَجَلَّى شَخْصٌ مَا، كَانَ قَد أَنْكَرَه الْجَمِيع،
وَيَقُولُ لَهُم، سَاخِرًا وَأَبِيًّا: «مِنْ وِعَاءِ قُرْبَانِي،
تَنَاوَلْتُم، فِيمَا أَظُنُّ، الْقُرْبَانَ بِمَا يَكْفِي،
فِي الْقُدَّاسِ الأَسْوَدَ الْبَهِيج؟

كُلٌّ مِنْكُم أَقَامَ لِي مَعْبَدًا فِي قَلْبِه؛
وَفِي السِّرِّ، قَبَّلْتُم مُؤَخِّرَتِي الْمُقَزِّزَة!
تَتَعَرَّفُونَ عَلَى الشَّيْطَانِ بِضِحْكَتِهِ الظَّافِرَة،
الْهَائِلَةِ الْقَبِيحَةِ كَالْعَالَم!

فَهَلْ ظَنَنْتُم، آنئِذٍ، أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ الْمُنْدَهِشون،
أَنْ يَسْخَرَ الْمَرْءُ مِنَ السَّيِّدِ، وَأَنْ يَخْدَعَه وَهوَ مَعَه،
وَأَنْ يَكُونَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَتَلَقَّى جَائِزَتَيْن،
الذِّهَابَ إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَالثَّرَاء؟

عَلَى الْقَنِيصَةِ أَنْ تَدْفَعَ لِلصَّيَّادِ الْقَدِيم
الَّذِي يُعَانِي طَوِيلاً مُتَرَبِّصًا بِالْفَرِيسَة.
سَآخُذُكُم خِلالَ الْكَثَافَة،
رِفَاقًا لِبَهْجَتِي الْحَزِينَة،

خِلاَلَ كَثَافَةِ الأَرْضِ وَالْحَجَر،
خِلاَلَ أَكْدَاسِ رَمَادِكُم المُضْطَرِبَة،
إِلَى قَصْرٍ كَبِيرٍ مِثْلِي، مِنْ كُتْلَةٍ وَاحِدَة،
لَيْسَت مِنْ حَجَرٍ رَخْو؛

لأَنَّه أُقِيمَ مِنَ الْفُجُورِ الْكَوْنِيّ،
وَيَنْطَوِي عَلَى كِبْرِيَائِي، وَعَذَابِي، وَمَجْدِي!»
ـ آنئِذٍ، جَاثِمًا فِي أَعَالِي الْكَوْن،
دَوَّى مَلاَكٌ بِانْتِصَار

مَنْ تَقُولُ قُلُوبُهُم: «فَلْيَتَبَارَك سَوْطُك،
سَيِّدِي! فَلْيَتبَارَك، يَا أَبَانَا، الأَلَم!
رُوحِي فِي يَدِكَ لَيْسَت لُعْبَةً بَاطِلَة،
وَحِكْمَتُكَ لانِهَائِيَّة».

صَوْتُ الْبُوقِ بَالِغُ الْعُذُوبَة،
فِي هَذِهِ الأُمْسِيَاتِ الْمهِيبَةِ مِنْ الْقَطَافِ السَّمَاوِي،
فَيَتَسَرَّبُ مِثْلَ نَشْوَةٍ دَاخِلَ كُلِّ هَؤُلاَءِ
الَّذِينَ يُنْشِدُ مَدَائِحَهُم.

١٩

الفديَـة

لَدَى الإِنْسَانِ، مِنْ أَجْلِ دَفْعِ فِدْيَتِه،
حَقْلاَنِ مِنْ تُرْبَةٍ خِصْبَةٍ وَعَمِيقَة،
عَلَيْهِ أَنْ يُقَلِّبَهَا وَيَسْتَصْلِحَهَا
بِنَصْلِ الْعَقْل؛

فَلِلْحُصُولِ عَلَى أَقَلِّ وَرْدَة،
لإِنْبَاتِ بِضْعِ سَنَابِل،
فَلاَبُدَّ أَنْ يَرْوِيَهَا بِلاَ انْتِهَاء
بِقَطَرَاتٍ مَالِحَةٍ مِنْ جَبِينِهِ الرَّمَادِي.

أَحَدُهُمَا هُوَ الْفَن، وَالآخَرُ الْحُب.
ـ وَحَتَّى يُصْبِحَ الْحُكْمُ مُلاَئِمًا،
عِنْدَمَا يَتَجَلَّى الْيَوْمُ الْمَشْهُود
لِلْعَدْلِ الصَّارِم،

فَلاَ بُدَّ أَنْ يَرَى مَخَازِنَ
مَلأَى بِالْحَصَادِ، وَبِالزُّهُور
الَّتِي تَلْقَى أَشْكَالُهَا وَأَلْوَانُهَا
رِضَا الْمَلاَئِكَة.

٢٠

إلى امرأة من مَالاَبَار

قَدَمَاكِ بِمِثْلِ رَهَافَةِ يَدَيْكِ، وَفَخْذُك

كَبِيرٌ بِمَا يَدْفَعُ أَجْمَلَ امْرَأَةٍ بَيْضَاءَ إِلَى الْغِيرَة؛

وَجَسَدُكِ ـ لِلْفَنَّانِ الْمُتَأَمِّلِ ـ عَذْبٌ وَأَثِير؛

عَيْنَاكِ الْوَاسِعَتَانِ الْقَطِيفِيَّتَانِ أَكْثَرُ سَوَادًا مِنْ جَسَدِك.

فِي الْبِلاَدِ الْحَارَّةِ الزَّرْقَاءَ حَيْثُ جعَلَكَ رَبُّكِ تُولَدِين،

مُهِمَّتُكِ هِي إِشْعَالُ الْغَلْيُونِ لِسَيِّدِك،

وَمَلْءُ الْقَوَارِيرِ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ الْمُعَطَّر،

وَمُطَارَدَةُ النَّامُوسِ الْجَوَّالِ بَعِيدًا عَنِ الْفِرَاش،

وَشِرَاءُ الأَنَانَاسِ وَالْمُوزِ مِنَ السُّوقِ

مَا إِنْ يَدْفَع الصَّبَاحُ أَشْجَارَ الدَّلْبِ لِلْغِنَاء.

طُوَالَ الْيَوْمِ، تَقُودِينَ قَدَمَيْكِ الْحَافِيَتَيْنِ إِلَى حَيْثُ تُرِيدِين،

وَتُدَنْدِنِينَ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ نَغَمَاتٍ قَدِيمَةً مَجْهُولَة؛

وَحِينَمَا يَحِلُّ الْمَسَاءُ ذُو الْمِعْطَفِ الْقُرْمُزِي،

تَضَعِينَ بِرِقَّةٍ جَسَدَكِ عَلَى حَصِيرٍ مِنْ قَصَب،
حَيْثُ تَمْتَلِئُ أَحلامُكِ الطَّافِيَةُ بِالْعَصَافِيرِ الْمُلَوَّنَة،
الرَّشِيقَةِ الْمُزْدَهِرَةِ دَائِمًا، مِثْلَك.
فَلِمَاذَا ـ أَيَّتُهَا الطِّفْلَةُ السَّعِيدَةُ ـ تُرِيدِينَ رُؤْيَةَ بَلَدِنَا فرَنْسَا؟
هَذَا الْبَلَدِ الْمُزْدَحِمِ بِالسُّكَّانِ الَّذِي يَحْصُدُ الأَلَم،
وَإِذْ تَعْهَدِينَ بِحَيَاتِكِ إِلَى الأَذْرِعَةِ الْقَوِيَّةِ لِلْبَحَّارَة،
تَقُومِينَ بِالْوَدَاعِ الْكَبِيرِ لأَشْجَارِ التَّمْرِ الهِنْدِي الْعَزِيزَةِ عَلَيْك؟
أَنْتِ، الَّتِي يَكْسُو نِصْفَ جَسَدِكِ الْمُوسلِينُ الْخَفِيف،
مُرْتَعِدَةً هُنَاكَ تَحْتَ الثُّلُوجِ وَالْبَرَد،
كَمْ سَتَبْكِينَ أَوْقَاتَ فَرَاغِكِ الْعَذْبَةَ الصَّادِقَة،
إِذَا مَا كَانَ عَلَيْكِ، وَمِشَدُّ الْخَصْرِ الْوَحْشِيُّ يَسْجِنُ ضُلُوعَك،
أَنْ تَلْتَقِطِي عَشَاءَكِ فِي مَبَاءَاتِنَا
وَتَبِيعِي عِطْرَ مَفَاتِنِكِ الْغَرِيبَة،
وَالْعَيْنُ مَهْمُومَةٌ، بَاحِثَةً، فِي ضَبَابِنَا الْقَذِر،
عَنِ الأَشْبَاحِ الْمُتَنَاثِرَةِ لأَشْجَارِ جُوزِ الْهِنْدِ الْغَائِبَة!


هَزليّات

٢١

عَن بدَايات أَمينة بُوشِتّي

في مسرح لامونيه، في بروكسل

أَمِينَة تَقْفِز، ـ تَفِرّ، ـ ثُمَّ تُرَفْرِفُ وَتَبْتَسِم؛
يَقُولُ الْغَالِيُّ[1]: «كُلُّ هَذَا، لِي أَنَا، تِلْكَ لَهْجَةٌ هِنْدِيَّة؛
وَلاَ أَعْرِفُ، فِي الْوَاقِعِ مِنْ حُورِيَّاتِ الأَحْرَاج،
إِلاَّ حُورِيَّاتِ مُونتَانْي أُوزِيرب بُوتَاجِير[2]».

بِطَرَفِ قَدَمِهَا الرَّهِيفَةِ وَبِعَيْنِهَا الضَّاحِكَة،
تَنْثُرُ أَمِينَة فِي مَوْجَاتٍ الْجُنُونَ وَالْعَقْل؛
يَقُولُ الْغَالِيُّ: «فَلْتَفِرِّي، أَيَّتُهَا الْمَلَذَّاتُ الْكَاذِبَة!
فَزَوْجَتِي لَيْسَت لَدَيْهَا هَذِهِ الْحَرَكَاتُ الْخَفِيفَة».

تَتَجَاهَلُونَ، كَأُنْثَى سِلْفٍ ذَاتِ عُرْقُوبٍ ظَافِر،

---

(١) نسبةً إلى بلاد الغال.

(٢) أحد شوارع «بروكسيل» الرئيسة، على عهد «بودلير».

يَا مَنْ تُرِيدُونَ تَعْلِيمَ الْفِيلِ رَقْصَةَ الْفَالس،
وَالْبُومَةَ الْمَرَح، وَاللَّقْلَقَ الضَّحِك،

أَنَّ الْغَالِيَّ فِي غَمْرَةِ الأَنَاقَةِ يَقُول: «عَلَيْكُم بِهِم!»
وَإِذْ يَصُبُّ لَه بَاخُوس الرَّقِيقُ نَبِيذَ بُورجُوني،
يَقُولُ لَهُ الْمَسْخ: «إِنَّنِي أُفَضِّلُ الْبِيرَة!»

٢٢

إلى السيد أُوجين فرُومِينتَان

فيما يتعلق بشخصٍ مُزعجٍ يدَّعي أنه صديقُه

يَقُولُ لِي إِنَّهُ كَانَ وَاسِعَ الثَّرَاء،
لَكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى الْكُولِيرَا:
ـ إِنَّه كَانَ بَخِيلاً بِذَهَبِه،
لَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَمْتِعُ كَثِيرًا بِالأُوبرَا؛

ـ إِنَّهُ كَانَ مُولَعًا بِالطَّبِيعَة،
عِنْدَمَا عَرَفَ السَّيِّد كُورُو؛
ـ إِنَّه لَمْ تَكُن لَدَيْهِ سَيَّارَةٌ أَيْضًا،
لَكِنَّهَا سَرْعَانَ مَا سَتَأْتِي؛

ـ إِنَّه كَانَ يُحِبُّ الرُّخَامَ وَالْقِرْمِيد،
الْخَشَبَ الأَسْوَدَ وَالْخَشَبَ الْمُذهَب؛
ـ إِنَّ لَدَيْهِ فِي مَصْنَعِه

ثَلاَثَةً مِنْ رُؤَسَاءِ الْعُمَّالِ مِن ذَوِي الأَوْسِمَة؛

ـ إِنَّ لَدَيْهِ، دُونَ احْتِسَابِ الْبَقِيَّة،
عِشْرِينَ أَلْفَ سَهْمٍ فِي الـ «نُور»[1]؛
وَإِنَّهُ عثَرَ، كَحَاجِزٍ،
عَلَى إِطَارَاتِ لَوْحَاتٍ لِـ «أُوبِينُور»[2]؛

ـ إِنَّهُ كَانَ يَسْتَسْلِمُ (فِي لُوزَارش)
إِلَى سِقْطِ الْمَتَاعِ حَتَّى الْعُنُق،
وَإِنَّهُ فِي سُوقِ الْبَطَارِكَة
حَقَّقَ أَكْثَرَ مِنْ ضَرْبَةٍ جَيِّدَة؛

ـ إِنَّه لَم يُحِب زَوْجَته كَثِيرًا،
وَلاَ أُمَّه؛ ـ لَكِنَّه يُؤْمِن
بِخُلُودِ الرُّوح،
وَإِنَّه قَرَأَ نِيبُويِيه[3]!

ـ إِنَّه يَمِيلُ إِلَى الْحُبِّ الْجَسَدِيّ،

---

(١) شركة للسِّكك الحديديّة.
(٢) فنان ديكور معروف في ذلك الحين.
(٣) مؤلف روايات أخلاقيّة، معاصر لبودلير.

وَفِي رُومَا، مقَامِ الضَّجَر،
هُنَاكَ امْرَأَةٌ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَن أَنَّهَا مَهْزُولَة،
مَاتَت مِنْ حُبِّهَا لَه.

وَخِلاَلَ ثَلاَثِ سَاعَاتٍ وَنِصْف،
أَتَى هَذَا الثَّرْثَارُ، الْقَادِمُ مِنْ تُورنَاي،
عَلَى حَيَاتِهِ كُلِّهَا لِي؛
وَتَبَلْبَلَت رَأْسِي.

وَإِذَا مَا كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَصِفَ أَلَمِي،
فَلَن يَنْتَهِي ذَلِك؛
كُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِي، قَامِعًا بُغْضِي:
«عَلَى الأَقَلِّ، لَوْ أَسْتَطِيعُ النَّوْم!»

وَكَشَخْصٍ لَيْسَ عَلَى رَاحَتِه
وَلاَ يَجْرُؤُ عَلَى الانْصِرَاف،
حَكَكْتُ مُؤَخِّرَتِي بِالْكُرْسِي،
حَالِمًا بِأَنْ تَتَخَوْزَق.

هَذَا الْوَحْشُ يُسَمَّى بَاستُونِي؛

كَانَ يَهْرُبُ أَمَامَ الْبَلاَءِ.
وَأَنَا، سَأَهْرُبُ حَتَّى كَاسجُوني،
أَوْ أَرْمِي بِنَفْسِي فِي الْمَاء،

إِذَا مَا كَانَ فِي بَارِيس هَذِهِ، الَّتِي يَخْشَاهَا،
عِنْدَمَا سَيَعُودُ كُلُّ شَخْص،
سَأَجِدُ أَيْضًا فِي طَرِيقِي
هَذَا الْبَلاَءَ، الْمَوْلُودَ فِي تُورنَاي.

بروكسيل، ١٨٦٥

٢٣

حَانةٌ مَرحَة

على طريق بروكسل ـ أوكل

أَنْتُم أَيُّهَا الْمُولَعُونَ بِالْقَوَالِبِ الْجَافَّة

وَالرُّمُوزِ الْكَرِيهَة،

لِتَتْبِيلِ الشَّهَوَات،

(كَانَ ذَلِكَ عِجَّةَ بَيْضٍ بَسِيطَة!)

أَيُّهَا الْفِرْعَوْنُ الْعَجُوزُ، يَا «مُونسُولِيه»[1]!

أَمَامَ هَذِهِ اللاَّفِتَةِ الْمُفَاجِئَة

حَلُمْتُ بِكُم: مَشْهَد

الْمَقْبَرَة، حَانَة!

---

(١) صديق «لبودلير».